

سَنُ كُنُوذِ الْقَرَّآءِ

١٣

وقفاً مع

هَذِهِ الْآيَاتُ

الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي

دار القراء
دمشق



وقفاً مع
هَذِهِ الْآيَاتِ

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

www.alkalam-sy.com

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ .

أَمَّا بَعْدُ :

فقد أوجبَ اللهُ على المسلمین النظرَ في القرآن ، والوقوفَ أمامَ آياته ، وَتَدَبَّرَ جَمَلَهُ وَعِبَارَاتِهِ ، فقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] .

وأخبرنا اللهُ أَنَّ الذي يحولُ بيننا وبينَ تدبُّرِ القرآنِ هو الأفعالُ الثقيلةُ التي على القلوب ، وأنه لا بُدَّ من إزالةِ هذه الأفعال ؛ لتدخلَ أنوارُ القرآنِ إلى هذه القلوب ، فتُضيئُها وتُحييها وتُحركها ؛ قال اللهُ تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] .

وإنَّ الحياةَ مع القرآنِ هي الحياة ، كيفَ لا والمؤمنُ يُناجي اللهُ ربَّ العالمين ، بتلاوةِ كلامِهِ ، والوقفَةِ مع آياته ، وتحليلِ كلماتِهِ ، وفهمِ معانيهِ ، واستخراجِ دلالاتِهِ ، وتنفيذِ أحكامِهِ؟! .

وإنَّ القرآنَ العظيمَ هو أعظمُ ما تُوجَّهُ له النَّظَرَاتُ ، وتُنْفَقُ فيه الأوقاتُ .

وما أجملَ ما قاله الصحابيُّ الجليلُ عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضي اللهُ عنه ، عن

سور (الحواميم): إذا وَقَعْتُ في الحَوَامِيمِ فكأنما أَفْعُ في رَوْضَاتِ دَمِثَاتٍ ،
أَتَأْتُقُ فِيهِنَّ .

والحواميمُ سَبْعُ سورٍ متتابعةٌ في المصحف ، مبدوءةٌ بالحرفين (حم)؛
وهي سورٌ: غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف .

يُخْبِرُ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: أَنه عندما يَتْلُو هذه السورَ يكونُ في غَايَةِ
الأنسِ والسَّعادةِ ، وكأنه يَسِيرُ مُتَأَنِّقًا مُبْتَهَجًا مَسْرورًا ، وَسَطَ بسَاتينِ
خضراءَ ، مزهرة مثمرة جميلة .

وما أَجْمَلَ ما قاله المفسرُ أبو حيان الأندلسيُّ في مقدمة تفسيره (البحر
المحيط) يَتَغَنَّى بجمال القرآن :

نِعْمَ السَّحِيرُ كِتَابُ اللَّهِ ، إِنَّ لَهُ حَلَاوَةً ، هِيَ أَحْلَى مِنْ جَنَى الضَّرْبِ
بِهِ فُنُونُ المَعَانِي قَدْ جُمِعْنَ ، فما يَفْتَنُّ مِنْ عَجَبٍ إِلَّا إِلَى عَجَبِ
أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَأَمْثَالٍ وَمَوْعِظَةٍ ، وَحِكْمَةٍ أودَعَتْ في أَفْصَحِ الكُتُبِ
لَطَائِفٌ يَجْتَلِيها كُلُّ ذِي بَصَرٍ وَرَوْضَةٌ يَجْتَنِيها كُلُّ ذِي أَدَبٍ

والوقوفُ أَمامَ القرآنِ ، وَتَدْبِيرُ آيَاتِهِ لا يَمَلُّ مِنْهُ ، وَكُلَّمَا طالَ الوقوفُ أَمامَهُ
كَلِمًا زادَ الاستمتاعُ ، وَكثُرَ الانتفاعُ ، وَصَدَقَ القائلُ حيثُ يقولُ :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زَدْتَهُ نَظْرًا

وَصَدَقَ أميرُ المؤمنينِ عليُّ بنُ أَبِي طالبٍ رضي الله عنه في كلامه عن
القرآنِ : «... وَإِنَّهُ لا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ ، وَلا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ ، وَلا يَخْلُقُ
عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ» .

وَأَحْبَبْنَا أَنْ نَقِفَ أَمامَ بعضِ آياتِ القرآنِ وَقَفَاتٍ ، وَأَنْ نُفِذَ فِيها النُّظراتِ ،
وَأَنْ نَجُولَ في رِحابِها جَوالاتٍ ، وَأَنْ نَسْتَشعِرَ - كما قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله
عنه - أَننا في رَوْضَاتِ دَمِثَاتٍ ، وَأَنْ نُسَجِّلَ بعضَ ما يَبْدُو مِنْ لَطائِفِ
وَدلالاتِ .

ومن هنا جاءَ هذا الكتابُ (وقفات مع هذه الآيات) ، ليكونَ الحلقةَ الثالثةَ
عَشْرَةَ مِنْ السلسلةِ القرآنيةِ : (من كنوز القرآن) ، والله الحمد والشكر .

وقد حرصنا في هذه الوقفاتِ أَنْ تكونَ شاملةً ، وليستَ خاصَّةً بلونٍ

واحد ، أو مجالٍ خاصّ ، لتكون الفائدةُ أعمّ ، فنحن من أنصار (المنهج الشامل) في فهم القرآن وتفسيره وتأويله ، ذلك المنهج الذي يجمع وينسق ويوفق بين المناهج التفسيرية المختلفة ، المعروفة عند دارسي مناهج المفسرين ، من : مأثور ، ولغة ، وبلاغة ، ونحو ، وقرآيات ، وفقه ، ورأي محمود ، وحركة ، ودعوة ، وتأويل . . . ولا بُدَّ أن يكون لكلِّ واحدٍ من هذه المناهج والتيارات وجودٌ مُستقٌّ مُتوازنٌ متكاملٌ مع المنهج الشامل لتفسير القرآن .

ويبدو هذا (المنهج الشامل) الذي ندعو إليه في وقفاتنا التحليلية الشاملة مع الآيات التي عرّضناها في هذه الحلقة .

تحدّثنا في هذه الوقفات عن جَوِّ نزول الآيات التي لها أسبابٌ نزول ، ثم عن موضوع الآيات ، ثم قسّمنا كلَّ آيةٍ إلى جملة ، وأعطينا كلَّ جملةٍ رقماً ، وتحدّثنا عن كلِّ جملةٍ حديثاً تفصيلياً : من معاني كلماتها ، وإعرابها ، وما فيها من قراءاتٍ موجّهة - إن وُجدت - وما فيها من لطائفٍ بيانيةٍ ممتعة ، وما فيها من دلالاتٍ وإشاراتٍ واستنباطاتٍ وتشريعات .

وبهذا جَمَعْنَا بين التفسير الأثري ، والتفسير اللغوي ، والتفسير النحوي ، والتفسير البياني ، والتفسير النظري ، والتأويل الاستنباطي ، والفهم الحركي الدعوي ، والله الحمد والشكر .

وجاءت (الوقفاتُ الشاملة) مع عشرٍ مَجْموعاتٍ مُنَوَّعةٍ من الآيات ، كانت مختلفة الموضوعات ، مُوزَّعةً بين سورٍ عديدة ، لتكون النظرةُ أشملَ ، والفائدةُ أعمّ ، والوقفَةُ أكثرَ متعةً وجاذبيةً وتأثيراً !! .

ورَتَّبْنَا الآياتِ التي وقَّفْنَا معها وفق ترتيبِ المصحف ، وليس وفق موضوعاتها . . .

وجاء هذا الكتابُ في عشرةِ فصول :

● الفصل الأول : ﴿ مَثْنَى وَثُلَّةٌ وَرُبْعٌ ﴾ :

وقَفْنَا فيه مع الآيةِ الثالثةِ من سورةِ النَّساء ، والتي تتحدّثُ عن رخصةِ تعددِ

الزوجات، وجعلنا وقفنا مع هذه الآية نموذجاً لفهم آيات الأحكام في القرآن.

● الفصل الثاني: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾:

وقفنا فيه مع الآية المئة من سورة المائدة، التي تتحدث عن عدم تساوي الخبيث والطيب مهما كان الطيب قليلاً متركاً، ومهما كان الخبيث كثيراً مرغوباً، وجعلنا وقفنا مع هذه الآية نموذجاً لفهم آيات القيم والتصورات في القرآن.

● الفصل الثالث: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾:

وقفنا فيه مع الآية الثالثة بعد المئة من سورة الأنعام، التي تتحدث عن عدم إدراك الأبصار لله، بينما يدركها سبحانه وتعالى، وجعلنا وقفنا مع هذه الآية نموذجاً لفهم آيات العقيدة في القرآن.

● الفصل الرابع: ﴿إِلَّا كُنِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾:

وقفنا فيه مع الآيتين (١٢٠ - ١٢١) من سورة التوبة، اللتين تتحدثان عن الجهاد والمجاهدين، وتقدمان أهم صفات وأعمال المجاهدين، وتقران فضلهم عند الله، وكتابة الأعمال الصالحة لهم. وجعلنا وقفنا مع هذه الآيات نموذجاً لفهم آيات الجهاد في القرآن.

● الفصل الخامس: ﴿كَلَّا نُمِدُّهُنَّوَلَاءَ وَهَنُوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾:

وقفنا فيه مع أربع آيات (١٨ - ٢١) من سورة الإسراء، التي تتحدث عن أصناف البشر، وتنوع اهتماماتهم ومقاصدهم، واختلاف سعيهم وتوجههم وعملهم، فهناك من يريدون الدنيا العاجلة، وهناك من يريدون الآخرة الباقية، وهناك تفاضل كبير بين الصنفين، وماذا أعطى الله لمريدي الدنيا، وماذا أعد لمريدي الآخرة. وجعلنا وقفنا مع هذه الآيات نموذجاً لفهم آيات التصنيف البشري والتنوع الإنساني في القرآن.

● الفصل السادس: ﴿لَا تَنْخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾:

وقفنا فيه مع الآية الأولى من سورة الممتحنة، التي نزلت بمناسبة فتح

مكة ، في السنة الثامنة من الهجرة ، وعالجت خطأ الصحابي حاطب بن أبي بلتعة ، رضي الله عنه ، وحزمت على المؤمنين اتخاذ الأعداء الكفار أولياء ، وهيجت المؤمنين على وجوب البراءة من الكافرين . . وجعلنا ووقفنا مع هذه الآية نموذجاً لفهم آيات الولاء والبراء في القرآن .

● الفصل السابع: السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة:

جعلنا هذا الفصل نموذجاً للوقفة مع علم (المتشابه اللفظي) في القرآن ، وهو من أنفُسِ علوم القرآن ، وبيحث في الآيات المتشابهة في القرآن ، ويحلل أوجه (التشابه والاختلاف) فيها ، ويبين حكمة ما فيها من تفاوت واختلاف .

وقفنا في هذا الفصل مع آيتين في سورتين مختلفتين ، تأمران المسلمين بالسعي إلى الجنة ، وتحثانهم وترغبانهم في ذلك .

الآية الأولى: هي الآية الحادية والعشرون من سورة الحديد ، وتحدث عن وجوب السعي إلى الجنة بطريقة المسابقة .

والآية الثانية: هي الآية الثالثة والثلاثون بعد المئة من سورة آل عمران ، وتحدث عن وجوب السعي إلى الجنة بطريقة المسارعة .

فما هو الفرق بين المسابقة والمسارعة؟ ولماذا اختصت سورة الحديد بالمسابقة؟ واختصت سورة آل عمران بالمسارعة؟ ومن هم المسابقون إلى الجنة؟ ومن هم المسارعون إليها؟ .

حاولنا أن نجيب على هذه الأسئلة ، من خلال إنفاذ النظر في صياغة الآيتين ، وسجلنا سبعة فروق بينهما ، ووجهنا تلك الفروق ، وخرجنا من الآيتين بأهم ما فيهما من لطائف وإشارات ودلالات .

● الفصل الثامن: حديث القرآن عن الجاهلية:

جعلنا هذا الفصل نموذجاً للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني ، حيث تابعنا حديث القرآن عن الجاهلية ، ووقفنا مع الآيات الأربع التي وردت فيها مصطلح الجاهلية ، ولاحظنا أنها في كل مرة كانت تختص ببعد من أبعاد

الجاهلية ، فتحدّثت سورة آل عمران عن ظنّ الجاهلية ، وتحدّثت سورة المائدة عن حُكم الجاهلية ، وتحدّثت سورة الأحزاب عن تَبْرُجِ الجاهلية ، وتحدّثت سورة الفتح عن حمية الجاهلية .

● الفصل التاسع: مع مادّة (ضَرَرٌ) في القرآن:

جعلنا هذا الفصلَ نموذجاً للتفسير الموضوعي للمادّة القرآنية ، حيثُ قُمنا بجولةٍ مع مادّة الضَّرَر في القرآن ، ذكّرنا معنى هذه المادّة في اللغة ، ثم ذكّرنا اشتقاقات هذه المادّة في القرآن ، حيث وَرَدَتْ بصيغة الثلاثي والرباعي والخماسي ، ووقفنا وقفةً مطوّلةً مع كلّ صيغة ، ذكّرنا فيها اشتقاقاتِها وتصريفاتِها ، من فعلٍ ماضٍ ومضارعٍ ومصدرٍ واسم فاعلٍ واسم مفعولٍ ، والآيات التي وَرَدَتْ فيها هذه الاشتقاقاتُ والكلمات ، وذكّرنا ما في كلّ صيغةٍ من لطائفٍ ودلالاتٍ وإشاراتٍ . وذكّرنا الفرق بين مادّة الضَّرٌّ ومادّة الضَّير ، القريبة منها في الاشتقاق والمعنى .

● الفصل العاشر: مع سورة الإخلاص:

جَعَلْنَا هذا الفصلَ نموذجاً للتفسير الموضوعي للسورة القرآنية ، واختَرْنَا فيه الوقفةَ مع سورةٍ من أقصرِ سورِ القرآن ، من حيثِ الكلماتِ والجملِ والآيات ، لكنها من أفضلِ سورِ القرآن ، فهي تعدلُ ثلثَ القرآن ، كما أخبر رسولُ الله ﷺ . ووقفنا مع كلّ آيةٍ من آياتِها الأربع . وتحدّثنا عن لطائفِ كلّ آيةٍ ودلالاتِها ، ثم ختمنا كلامنا عن السورة بتلخيصٍ أهمِّ لطائفِها وإشاراتِها .

ونُقدِّمُ إلى الإخوة القراء الكرام هذه الوقفاتِ المنوّعةَ مع هذه الآيات ، مختلفةٍ الموضوعات ، ونضعُ بين أيديهم الطريقةَ الأمثلَ لتفسيرِ القرآن ، وفق المنهجِ الشاملِ للتفسيرِ والتأويلِ ، ليحاولوا اعتمادَ هذا المنهج ، والسيرَ على هذا الطريق .

ونرجو أن يجدوا في هذه الوقفاتِ المنوّعةِ فائدةً وعلماً ، وزيادةً فهمٍ ومحبةٍ لهذه الآيات ، ليوثّقوا صلّتهم بالقرآن ، ويكثّروا من تلاوته وفهمه وحفظه ، وتطبيقِ أحكامه ، والدعوة إليه ، والحركة به .

ونختمُ مقدّمنا لهذه الوقفاتِ بدعاءِ رسولِ الله ﷺ ، فنقول : «اللَّهُمَّ اجْعَلِ
الْقُرْآنَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا ، وَنُورَ صُدُورِنَا ، وَذَهَابَ هُمُومِنَا ، وَجَلَاءَ أَحْزَانِنَا ،
وَارْزُقْنَا تِلَاوَتَهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَنَاءَ النَّهَارِ ، وَعَلَّمْنَا مِنْهُ مَا جَهِلْنَا ، وَذَكَّرْنَا مِنْهُ
مَا نُسِّينَا ، وَاجْعَلْهُ حُجَّةً لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .

ونتوجّه إلى الله بهذه الدراسة القرآنية ، طالبين منه حُسنَ القَبول ، وَجَزِيلَ
الأجر ، وَعَظِيمَ الثواب .

وصلّى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .
والحمد لله رب العالمين .

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

السبت ٢٣ شعبان ١٤٢٧ هـ
٢٠٠٦/٩/١٦ م

الفصل الأول

﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْهَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴾ [النساء: ٣].

هذه الآية خطابٌ من الله للمسلمين ، يُبيح للرجل منهم فيها تعدد الزوجات ، بشرط أن لا يزدن على أربع في الوقت الواحد. ويُرشد الله المسلمين فيها إلى أنهم إن خافوا ألا يُقْسِطُوا ويعدّلوا في اليتامى ، فلهم أن يتزوّجوا ما طاب لهم من النساء: مثنى وثلاث ورباع. . فإن خاف أحدهم أن لا يعدل بين أكثر من امرأة ، فعليه أن لا يُعَدِّدَ ، ويكتفي بامرأة واحدة.

وذكرت الآية أن الحكمة من هذا التشريع وإباحة التعدد ، واشتراط العدل بين الزوجات؛ هي عدم العول والظلم والميل والتجاوز.

مناسبة نزول الآية:

وقبل الدخول في تحليل جمل وكلمات الآية ، والوقوف أمام لطائفها ودلالاتها ، نذكر اللبس الذي وقع فيه التابعي عروة بن الزبير في فهم الآية ، وكيف أزالته خالته عائشة رضي الله عنها اللبس ، ووضّحت له معنى الآية .

روى البخاري ومسلم، عن ابن شهاب: أن عروة بن الزبير سأل عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْهَى . . . ﴾ .؟

فقالَتْ له: يا بن أُختي! هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها ، تُشركه في ماله ، ويُعجبُه مالها وجمالها ، فيريد وليّها أن يتزوّجها ، بغير أن يُقْسِطَ في صداقها ، ولا يُعطيها مثل ما يعطيها غيره. . . فنُهِوا عن أن ينكحوهنَّ إلا أن

يُقْسِطُوا لَهُنَّ ، وَيَبْلِغُوا لَهُنَّ أَعْلَى سَنَتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ . فَأَمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ .

وقالت عائشة رضي الله عنها: وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ . . . ﴾ [النساء: ١٢٧] . . . فمعنى قوله: ﴿ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾: رغبة أحدكم عن يَتِيمَتِهِ ، حين تكونُ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ . . . فَهُوَ عَنِ أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا فِي يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ^(١) .

الذي أَوْقَعَ عُرْوَةَ بِنَ الزَّيْبِرِ فِي اللَّبْسِ هُوَ عَدَمُ الْارْتِبَاطِ الظَّاهِرِ بَيْنَ الْجَمَلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ فِي الْآيَةِ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾! فما هي الصلّة بين الخوف من عدم القسط في اليتامى ، وبين نكاح النساءِ مثنى وثلاث ورباع؟ .

إِنَّ حُسْنَ فَهْمِ الْآيَةِ يَتَطَلَّبُ مَعْرِفَةَ جَوْ نَزُولِهَا ، وَهَذَا مَا بَيَّنَّتْهُ عَائِشَةُ لَابِنِ أُخْتِهَا عُرْوَةَ .

وَمَعْنَى تَوْضِيحِ عَائِشَةَ لِعُرْوَةَ - وَلَنَا نَحْنُ مِنْ بَعْدِ عُرْوَةَ - أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي أَبَاحَتْ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ نَزَلَتْ فِي الرَّجُلِ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْيَتِيمَةُ ، مِمَّنْ يَحُلُّ لَهُ نِكَاحُهَا ، كَأَنَّ تَكُونَ ابْنَةَ عَمِّهِ أَوْ ابْنَةَ خَالِهِ ، وَأَنَّ تَكُونَ جَمِيلَةً وَذَاتَ مَالٍ ، وَيَكُونُ هُوَ وَصِيًّا عَلَيْهَا وَعَلَى مَالِهَا . . . فَيَطْمَعُ الرَّجُلُ فِيهَا لِجَمَالِهَا ، كَمَا يَطْمَعُ فِي مَالِهَا . . . وَيَرْغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، لَا رَغْبَةً حَقِيقِيَّةً فِي الزَّوْجِ بِهَا ، وَإِنَّمَا رَغْبَةً فِي جَمَالِهَا ، وَطَمَعًا فِي مَالِهَا ، وَلِذَلِكَ لَا يُعْطِيهَا الْمَهْرَ الْمُنَاسِبَ لَهَا ، وَإِنَّمَا يُعْطِيهَا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ غَيْرَ مُقْسِطٍ فِيهَا . . . فَهَذَا اللَّهُ عَنِ هَذَا الظلمِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ لَا يَتَزَوَّجَ يَتِيمَتَهُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَزَوَّجَ مَا شَاءَ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ ، مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعَ .

(١) البخاري، كتاب التفسير، حديث رقم: (٤٥٧٤)؛ ومسلم، كتاب التفسير، حديث رقم: (٢٣١٤) .

وذكرت عائشة رضي الله عنها: أَنَّ الله أَنْزَلَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ آيَةً أُخْرَى ،
تَحَدَّثُ عَنِ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ الْيَتَامَى مِنَ النِّسَاءِ بَعْدَ رِغْبَتِهِمُ الْحَقِيقِيَّةَ فِي
نِكَاحِهِنَّ ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَزَوَّجُونَهُنَّ طَمَعاً فِي مَالِهِنَّ أَوْ جَمَالِهِنَّ : ﴿ قُلِ اللَّهُ
يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمِّ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا
كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ ﴾ .

وبذلك التقت الآيات من سورة النساء - الآية الثالثة ، والآية السابعة
والعشرون بعد المئة - على حُرْمَةِ ظُلْمِ النِّسَاءِ الْيَتَامَى عِنْدَ الزَّوْجِ مِنْهُنَّ .

ونظرُ فيما يلي في جُمَلِ الْآيَةِ الَّتِي أَبَاحَتْ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ :

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ :

الواو: حرف استئناف ، والجملة بعدها استئنافية .

﴿ وَإِنْ ﴾ : حرف شرط . و: ﴿ خِفْتُمْ ﴾ : فعلٌ ماضٍ وفاعله . و: ﴿ أَنْ ﴾ :
حرفٌ مصدرِيٌّ ونَصْبٌ . و« لا » : حرفٌ نفي . وأدغمت نونُ « أَنْ » مع لامِ
« لا » ، فصارت ﴿ أَلَّا ﴾ . و﴿ تُقْسِطُوا ﴾ : مضارعٌ منصوبٌ بحذفِ النونِ ، لأنه
من الأفعالِ الخمسة ، والواو فاعل . وشبهُ الجملةُ ﴿ فِي الْيَتَامَى ﴾ متعلقةٌ بالفعلِ
﴿ تُقْسِطُوا ﴾ . والمصدرُ من ﴿ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به لفعلٍ
﴿ خِفْتُمْ ﴾ . والتقدير : إنْ خِفْتُمْ عَدَمَ الْقِسْطِ فِي الْيَتَامَى .

ويمكن استخراج اللطائف والإشارات التالية من هذه الجملة :

أ - الخوف هنا بمعنى الخشية من الوقوع في الحرام ، وتوقع عدم القسط
في اليتامى .

ب - الخطابُ في ﴿ خِفْتُمْ ﴾ ليس لكلِّ المسلمين ، وإنما هو لفئةٍ خاصَّةٍ
منهم ، وهم الرجالُ الأوصياءُ على النساءِ اليتيمات ، من غيرِ المحرَّمين
عليهنَّ ، كأنَّ يكونَ الرجلُ ابنَ عمِّ اليتيمة أو ابنَ خالِها . وخصَّصنا الخطابَ
بهؤلاءٍ ليستقيمَ فهمُ الجملةِ الثانية : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . ودليلنا
على هذا التخصيصِ ما قالته عائشة رضي الله عنها لعروة في مناسبة نزولِ
الآية .

ج - جملة ﴿أَلَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: في محلّ نصب مفعولٍ به. وحكمة التعبير بالفعل المضارع الدعوة إلى استحضارِ عدم القسط ، والإشارة إلى تجدد ذلك ، مما يوُلِّدُ الخوف والخشية من وقوعه .

د - جملة ﴿خِفْتُمْ أَلَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾: فعلُ الشَّرْطِ ، والراجحُ أنّ جواب الشرطِ محذوف ، والتقدير: إن خفتُم ألا تقسطوا في اليتامى فلا تنكحوهنّ ، وأنكحوا ما طابَ لكم من النساءِ غيرهن ، مثنى وثلاث ورباع .

وقدّرنا جوابَ الشرطِ لأنه هو المتناسقُ مع فعلِ الشرط ، ومن غير الراجح اعتبارُ جوابِ الشرطِ ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ، لأنّ المعنى ليسَ بليغاً ، ولأنّ الصلة بين الفعل والجواب ليست قوية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ، فما هي الصلة بين الخوف من عدم القسط وبين نكاح ما طاب من النساء؟! .

الأفصحُ والأرجحُ اعتبارُ جوابِ الشرطِ محذوفاً ، حيث يكون المعنى: إن خفتُم عَدَمَ القسطِ في اليتامى فلا تنكحوهن ، لئلا يقع منكم الظلمُ لهن ، وانكحوا من تشاؤون من غيرهن .

هـ - ﴿تُقْسِطُوا﴾: فعل مضارع ، ماضيه رباعي: نقول: أَقْسَطَ ، يُقْسِطُ ، فهو مُقْسِطٌ . والقِسْطُ هو العدل .

واللّطيفُ أنّ الرباعيّ نقيض الثلاثي . الثلاثيُّ «قَسَطَ» بمعنى: ظَلَمَ ، تقول: قَسَطَ ، يُقْسِطُ ، فهو قاسِط . بمعنى: ظَلَمَ ، يَظْلِمُ ، فهو ظالم . قال الله تعالى: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا ۚ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥] ، فالقاسِطُ هو الظالم ، وهو حطبُ جهنم .

والرّباعيُّ «أَقْسَطَ» بمعنى: عَدَلَ!! وأمر الله المسلمين بأن يكونوا مُقْسِطِينَ؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَاصِلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] .

و - ﴿الْيَتَامَى﴾ في الآية مجرورة بحرف الجر ﴿فِي﴾ حسب الظاهر ، لكنّ

الراجع أنها مضافٌ إليه لمضافٍ محذوف ، هو «نِكَاحٍ» . فيكون التقدير: إن خفتُم ألا تقسطوا في نِكَاحِ اليتامى فلا تنكحوهن .

وقدّرنا المجرورَ لأنه هو الذي يتعلّقُ به الخوفُ والخشية ، الخوفُ ليس من عدمِ القسطِ في النساءِ اليتامى ، لأنّ هذا لا معنى له؛ إنما الخوفُ هو من عدمِ القسطِ والعدلِ في نِكَاحِ النساءِ اليتامى .

ز - الراجعُ أيضاً أنّ ﴿الْيَتَامَى﴾ صفةٌ مجرورةٌ لموصوفٍ محذوفٍ مجرور ، هو ﴿النِّسَاءِ﴾ . والتقدير: ألا تقسطوا في نِكَاحِ النساءِ اليتامى . . وقدّرنا الموصوفَ محذوفاً لأنه هو المرادُ في الآية . ولأنّ ﴿الْيَتَامَى﴾ جمعٌ معرّفٌ بآلِ التعريف ، وهذا الجمعُ من ألفاظِ العمومِ في القرآن ، لكن أحياناً يُرادُ به الخصوص ، كما في هذه الآية ، ويُسمّى في هذه الحالة: جمعاً يُرادُ به الخصوص .

ح - اليتامى جمعُ «يتيم» ، وهو صفةٌ مشبهةٌ على وزنِ فعيل . وهو مشتقٌ من «الْيَتِيمِ» وهو الأئفرد . واليَتِيمُ هو الذي مات أبوه وهو صغير ، فصارَ وحيداً منفرداً يحتاجُ إلى رعايةٍ وعناية .

و«يَتِيم» مفردٌ مُذكّر ، مؤنّثه «يَتِيمَةٌ» . ولم تردِ الصفةُ المؤنّثة «يَتِيمَةٌ» في القرآن ، وإنما وردَ فيه «يتيم» ، وأريدُ به الذكْرُ والأنثى؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩] .

أما الجمعُ ﴿الْيَتَامَى﴾ فقد يُرادُ به النساءُ فقط ، كما في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] .

وقد يشملُ الذكورَ والإناث ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] .

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ :

الراجعُ أنّ هذه الجملةُ معطوفةٌ على جوابِ الشرطِ المحذوف ، كما بيّنا ، والتقديرُ: إن خفتُم عدمَ القسطِ في نِكَاحِ النساءِ اليتامى فلا تنكحوهنَّ ، وأنكحوا ما طابَ لكم من النساءِ من غيرهن .

وفي هذه الجملة من الآية اللطائف والإشارات والدلالات التالية:

أ - الأمرُ في «انكحوا» ليس للوجوب ، وإنما هو للتوجيه والإرشاد والإباحة ، لأنه معلقٌ بالخوف من عدم العدل في نكاح اليتامى .

ومن المعلوم أنَّ الأصلَ في النكاح أنه ليس واجباً ، إلا من قويت شهوته ، وخشي على نفسه الوقوع في الفاحشة ، وعنده القدرة على النكاح . وبالنسبة لعموم الرجال فإنَّ النكاح في حقهم سنة ، لأن فيه اقتداء برسول الله ﷺ .

ويكونُ النكاحُ حراماً في حقِّ غير القادرِ عليه مالياً وجنسياً؛ لأنه يظلمُ امرأته ، والظلمُ حرام .

ب - النكاحُ: الزواج . يقال: نكح الرجل المرأة ، أي: تزوجها . ويقال في الرباعي: أنكح الرجل ابنه المرأة ، أي: زوجه إياها .

وقد اجتمع الفعلان الثلاثي والرباعي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٢١] .

﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ﴾: أي: لا تزوجوا المشركات .

و﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾: أي: لا تزوجوا المشركين المؤمنات؛ فالمفعول الثاني في هذه الجملة محذوف .

وقد يُطلقُ النكاحُ على عقدِ الزواج ، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٩] . أي: إذا عقدَ الرجلُ على المرأة ، ثم طلقها قبل الدخولِ بها؛ فلا عِدَّةَ لها .

وقد يُطلقُ النكاحُ على الجِماعِ مباشرة ، وليس على مجرد عقدِ الزواج ، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٣٠] . الكلام في الآية عن ما بعد الطلقة الثالثة؛ فإن طلق الرجل امرأته

الطَّلَقَةُ الثَّلَاثَةُ ، فَلَا تَحُلُّ لَهُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَرْجَعَ لَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَنْكَحَ زَوْجًا غَيْرَهُ .

وَنِكَاحُ الزَّوْجِ الثَّانِي لَيْسَ بِمَجْرَدِ عَقْدِهِ عَلَيْهَا ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُعَاشِرَهَا وَيُجَامِعَهَا ، كَمَا حَدَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكَ» .

وَقَدْ يُطْلَقُ النِّكَاحُ عَلَى الْمَعَاشِرَةِ الْمُحَرَّمَةِ ، وَهِيَ الزَّانِي ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٣] . أَيُّ : لَا يَجِدُ الزَّانِي مَنْ تُطَاوَعُهُ وَتُؤَافِقُهُ عَلَى الزَّانِي إِلَّا زَانِيَةً مِثْلَهُ ، أَوْ مُشْرِكَةً لَا قِيمَةَ لِلعُرْضِ عِنْدَهَا . وَالزَّانِيَةُ لَا تَجِدُ مَنْ يَزْنِي بِهَا إِلَّا زَانِيًا مِثْلَهَا ، أَوْ مُشْرِكًا لَا حَرَمَةَ لِلزَّانِي عِنْدَهُ .

ج - ﴿مَا﴾ : فِي ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ : اسْمٌ مُوصُولٌ ، بِمَعْنَى «الَّذِي» فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٍ بِهِ لِفِعْلِ «انكحوا» .

و﴿طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ : صِلَةُ الْمَوْصُولِ . وَالتَّقْدِيرُ : انكحوا الصَّنْفَ الطَّيِّبَ مِنَ النِّسَاءِ .

وَالطَّيِّبُ هُوَ الْجَيِّدُ الْحَسَنُ الْمَرْغُوبُ الْمَطْلُوبُ .

د - ﴿مِنْ﴾ هُنَا بَيَانِيَةٌ : بَيَّنَّتْ أَنَّ الطَّيِّبَ هُنَا هُوَ مِنَ النِّسَاءِ الْمَرْغُوبِ فِي نِكَاحِهِنَّ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ «الطَّيِّبَ» قَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْأَشْخَاصِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْكَارِ . فَاحْتِجَ هُنَا إِلَى ﴿مِنْ﴾ الْبَيَانِيَّةِ ، لِتَبَيِّنِ أَنَّ الطَّيِّبَ هُنَا مِنَ النِّسَاءِ .

ه - ﴿النِّسَاءِ﴾ : جَمْعٌ مَعْرَفٌ بِأَلْ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْعُمُومِ ، لَكِنَّهُ هُنَا يُرَادُ بِهِ نِسَاءٌ مَخْصُوصَاتٌ ، فَهُوَ عَامٌّ يُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ ، وَهُوَ النِّسَاءُ الْمُبَاحُ نِكَاحُهُنَّ مِنْ غَيْرِ الْيَتِيمَاتِ الْقَرِيبَاتِ ، وَيَخْرُجُ بِهَذَا التَّخْصِيسِ النِّسَاءُ الْمُحَرَّمَاتُ ، كَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ ، وَالنِّسَاءُ الْمُتَزَوِّجَاتِ عَلَى عَصْمَةِ أَزْوَاجِهِنَّ ، وَالنِّسَاءُ الْيَتِيمَاتِ الْقَرِيبَاتِ ، اللَّوَاتِي نَزَلَتْ فِيهِنَّ الْآيَةُ ، فَفِي هَذَا الْعُمُومِ ﴿النِّسَاءِ﴾ ثَلَاثَةٌ تَخْصِيسَاتٌ !! .

ه - ﴿النِّسَاءِ﴾ : جَمْعٌ لَا مَفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ ، وَمَفْرَدُهُ «امْرَأَةٌ» ، وَهِيَ لَا جَمْعَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ «النَّسِي» ، وَهُوَ التَّرْكُ . تَقُولُ فِي

المفرد: امرأة. وتقول في المثني: «امرأتان». وتقول في الجمع: نساء ونسوة. و«نساء» جمع كثرة، و«نسوة» جمع قلة. إن أردت عدداً قليلاً قلت: «نسوة» كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَهَلْهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٣٠]، وإن أردت عدداً أكثر قلت: «نساء» كما في هذه الآية: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾.

ز - الأضل في اسم الوصول ﴿ مَا ﴾ استعماله لغير العاقل، واستعمال الاسم الموصول (من) للعاقل، ولكنه جاء وصفاً للعاقل في الآية حسب الظاهر: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾.

﴿ مَا ﴾ ليس وصفاً للنساء في الحقيقة، فلو أراد وصف النساء لقال: فانكحوا من طابت لكم من النساء... إن ﴿ مَا ﴾ وصف يراد به النوع أو الصنف، بدلالة صلة الموصول في الجملة: ﴿ طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ والتقدير: انكحوا الصنف الطيب من النساء.

إن الحديث في الجملة عن الصنف الطيب من أصناف الزواج، وليس عن النساء الطيبات. ولو أراد التركيز على النساء الطيبات لقال: فانكحوا من طابت لكم من النساء.. وفرق بين قولك: انكحوا الصنف الطيب لكم من النساء، وبين قولك: انكحوا النساء الطيبات. إنك في الجملة الأولى تتحدث عن أصناف النكاح، وتدعو إلى اختيار الصنف والنوع الطيب، وبما أن هذا معنوي وليس مادياً حياً عاقلاً، فإنك تختار له اسم الموصول «ما»: انكح ما طاب لك من أصناف النكاح.. وهذا هو المقصود في الجملة.

٣ - قوله تعالى: ﴿ مَثْنَى وَثُلَّةَ وَرُبْعَ ﴾:

هذه الكلمات الثلاث بياناً للطيب من النساء في الجملة السابقة: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَّةَ وَرُبْعَ ﴾.

أي أن النساء المباح نكاحهن وتعددهن قد يكن مثنى، وقد يكن ثلاثاً، وقد يكن رباعاً.

وفي هذه الكلمات الإشارات التالية:

أ - ﴿ مَثْنَى ﴾: حال منصوب بالفتحة المقدرة على الألف المقصورة، منع

من ظهورها التعذر. وصاحبُ الحال هو ﴿مَا طَابَ﴾؛ أي: انكحوا النكاح الطيب، تكنن نساؤكم مثنى وثلاث ورباع.

وهذا الوصفُ على وَزْنِ «مَفْعَل». مشتق من الثلاثي «ثنى». والثَّنيُّ هو الإعادةُ والتكرار.

و﴿مَثْنِي﴾ هنا ممنوعٌ من الصَّرْفِ، والراجحُ أَنَّ سببَ منعه من الصَّرْفِ هو: الوصفُ والعدْلُ؛ فهو وَصْفٌ للنساءِ المباحِ تَعَدُّدُهُنَّ زَوْجَاتٍ.

والعدْلُ بمعنى العُدول، وهو التغيُّرُ والانتقالُ والصَّرْفُ؛ أي أَنَّ ﴿مَثْنِي﴾ مصروفةٌ عن العددِ المكرَّرِ إلى الوصفِ. فصفة «مثنى» بمعنى «اثنتين». والأصلُ: انكحوا ما طابَ لكم من النساءِ اثنتين اثنتين.. فعدَلَّ عن تكرارِ العددِ مرتين إلى الصفة، وقال: ﴿مَثْنِي﴾.

ب - ﴿وَتِلْكَ﴾: حالٌ آخرٌ للموصولِ ﴿مَا طَابَ﴾، معطوفٌ على الحالِ السابقِ ﴿مَثْنِي﴾. وهو وَصْفٌ على وَزْنِ «فَعَال». وهو ممنوعٌ من الصَّرْفِ للوصفِ والعدْلِ؛ لأنَّ الوصفَ ﴿وَتِلْكَ﴾ معدولٌ عن العددِ المكرَّرِ: ثلاث. ثلاث.

ج - ﴿وَرُبْعٌ﴾: حالٌ ثالثٌ للموصولِ ﴿مَا طَابَ﴾. معطوفٌ على ما قبله، على وَزْنِ «فَعَال»، ممنوعٌ من الصَّرْفِ للوصفِ والعدْلِ، عدَلَّ به عن تكرارِ العددِ: أربع، أربع.

إِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنِي وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾: تزوجوا الزواجَ الطيبَ، ويباحُ لكم تزوجُ الزوجاتِ: اثنتين اثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً.

وستنحدثُ فيما بعد عن الأعدادِ وأسماءِ الأعدادِ، وعن دلالةِ الواوِ في ﴿مَثْنِي وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾، وستناقشُ دعوى التناوبِ، ونَعْتَمِدُ مبدأً التضمينِ في الآية، لكنْ بعد الانتهاء من تحليلنا لباقي جُمْلَتِهَا بعونِ الله.

٤ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾:

هذه جملةٌ شرطيةٌ معطوفةٌ على الجملةِ الشرطيةِ السابقة؛ فالجملةُ السابقةُ

أرشدت الذين يخشون عدم العدل مع اليتامى القربيات إلى الزواج من غيرهن من النساء ، مثنى وثلاث ورباع .

وهذه الجملة الشرطية أرشدت الذين يخشون عدم العدل بين الزوجات عند التعدد إلى ترك التعدد ، والاكتفاء بزوجة واحدة .

أ - الفاء في ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ : حرف عطف ، عطفت جملة : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا ﴾ على جملة ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ . و ﴿ إِنْ ﴾ : حرف شرط . وجملة ﴿ خِفْتُمْ ﴾ : فعل ماضٍ وفاعله . و ﴿ أَنْ ﴾ حرف مصدرى ونصب . و ﴿ لا ﴾ : حرف نفي . و ﴿ نَعْدِلُوا ﴾ : مضارع منصوب بحذف حرف العلة . والمصدر المنفي : ﴿ أَلَّا نَعْدِلُوا ﴾ في محل نصب مفعول به . والتقدير : إِنْ خِفْتُمْ عَدَمَ العدل .

ب - ما تعلق به فعل ﴿ أَلَّا نَعْدِلُوا ﴾ محذوف ، مفهوم من السياق ، لأن الجملة السابقة أباحَت تعدد الزوجات ، وهذه الجملة ذكرت الحل للذين يخافون عدم العدل . فتقدير ما تعلق به الفعل هو : في النساء . والتقدير : إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِي النِّسَاءِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِنَّ .

ج - جملة ﴿ خِفْتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا ﴾ : فعل الشرط . وجواب الشرط محذوف والتقدير : فلا تنكحوا مثنى وثلاث ورباع . ويكون معنى الجملة : إِنْ خِفْتُمْ عَدَمَ العدلِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ عِنْدَ تَعَدُّدِهِنَّ ، وَلَا تَنْكَحُوا مَثْنَى وَثَلَاثَ وَرَبَاعٍ .

ه - قوله تعالى : ﴿ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ :

هذه الجملة معطوفة على جواب الشرط المحذوف فهي مرتبطة مع الجملة السابقة ارتباطاً مباشراً . والتقدير : إِنْ خِفْتُمْ عَدَمَ العدلِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ ، فَلَا تَعْدُدُوا ، وَانكحوا امرأة واحدة .

أ - ﴿ واحدة ﴾ : مفعول به لفعل محذوف ، والتقدير : انكحوا واحدة . وهي صفة لموصوف محذوف . والتقدير : فانكحوا امرأة واحدة .

واللطف أن الجملة السابقة التي أباحَت التعدد ذكرت أسماء الأعداد ، وليس الأعداد نفسها ، فقالت : ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا ﴾ ولم تقل : اثنتين وثلاثاً

وأربعاً.. أمّا هذه الجملة فلم تذكر اسمَ العَدَدِ ، وإنما ذكرت العَدَدَ نفسَه ، فلم تُقَلِّ: أحاداً ، وإنما قالت: واحدة.. وهذا الاختلافُ في التعبير بين الجملتين مقصود! .

ب - ﴿أو﴾: حرفٌ عطفٍ يدلُّ على التخيير ، فالرجلُ مخيَّرٌ بينَ فعلٍ ما قبلها وفعلٍ ما بعدها.. أي: له أن يكتفيَ بامرأةٍ واحدةٍ حرّةٍ ، فإن لم يستطع الزواجَ منها فيمكنهُ الزواجُ من أمةٍ جاريةٍ .

ج - ﴿ما﴾: اسمٌ موصولٌ في محلِّ نَصْبٍ ، لأنه معطوفٌ على المنصوب قبله ، والراجحُ أنه معطوفٌ على ﴿واحدة﴾ ، و﴿مَلَكَتْ﴾: فعلٌ ماضٍ . والتاءُ: حرفٌ للتأنيث . و﴿أَيْمَنُكُمْ﴾: فاعل . والجملةُ الفعليةُ صلةُ الموصول . والتقدير: انكحوا واحدةً حرّةً ، أو أمةً هي ملكُ اليمين .

د - ما قلنا عن اختيار «ما» بدلَ «من» في الجملة السابقة: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ يصلحُ أن يُقالَ هنا . فقالت الجملة: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ واختارت «ما» على «من» المستعملة في العاقل؛ لأنَّ الكلامَ ليس على النساءِ العاقلات ، سواء كنَّ حرائرَ أو إماءً ، إنما الكلامُ على أصنافِ وأنواعِ النساءِ: صنفِ الزوجاتِ الحرائرِ ، وصنفِ الزوجاتِ الجوّاري .

هـ - هذا التعبير ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ في القرآن يُطلَقُ على العبيد من الرجال ، والجوّاري الإماء من النساء . و«أيمان» جمعُ «يمين» ، والمرادُ باليمينِ هنا اليدُ اليمُنَى ، المقابلةُ لليدِ اليسرى ، واليدُ اليمنى أشرفُ من اليدِ اليسرى .

و«ملكُ اليمين» هو العبدُ والأمةُ ، لأنَّهما ليسا حرّين ، فهما مملوكان لسيدهما .

ومن إطلاقِ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ في القرآن على النساءِ الجوّاري ما وردَ في هذه الآية ، وما وردَ في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] .

ومن إطلاقها على العبيد من الرجال قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣] .

ومن شمولها للجنسين قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨].

و - عَطْفُ ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ على ﴿ واحدة ﴾ من بابِ عطفِ التصنيفِ والتنويع ، لأنَّ ملك اليمين من النساءِ مقابل للحرَّاتِ منهن .

ويجوزُ للرجلِ الذي لا يستطيع الزواجَ من الحرَّةِ ، أن يتزوجَ من امرأةٍ أمةٍ جاريةٍ عند غيره ، بمعنى أن تكون مملوكةً لغيره لأنَّ الزواجَ منها قد يكونُ أقلَّ تكلفةً ونفقةً من الزواجِ من الحرَّةِ . فإن وافقَ سيدها على تزويجها لهذا الرجلِ حرَّمت عليه لأنها أصبحت زوجاً لغيره ، فلا يجوزُ له أن يُعاشِرَها . والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنِيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ يَفْجَشْنَ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشَى الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٥] .

٦ - قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ لَا تَعُولُونَ ﴾ :

هذه الجملةُ تعليلٌ للأحكامِ والتوجيهاتِ والرُّخصِ ، التي قررتها الجملُ السابقة ، وكأنها جوابٌ على تساؤلٍ قد يتبادرُ للذهن: لماذا أباح اللهُ التعدُّدَ لمن خافَ ظلمَ قريبته؟ ولماذا دعا الرجلَ إلى الاقتصارِ على زوجةٍ واحدةٍ إذا خشيَ ظلمَ زوجاته؟ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ : اسمُ إشارةٍ في محلِّ رفعٍ مبتدأ . و ﴿ أَذَىٰ ﴾ : خبرٌ مرفوعٌ بضميةٍ مقدَّرةٍ على الألفِ المقصورة . و ﴿ أَنْ ﴾ : حرفٌ مصدريٌّ ونصبٌ . و ﴿ لا ﴾ : حرفٌ نفي . و ﴿ تَعُولُونَ ﴾ : مضارعٌ منصوبٌ بحذفِ التَّوْنِ ، والواوُ فاعلٌ . والمصدر: ﴿ لَا تَعُولُونَ ﴾ في محلِّ جرٍّ بحرفٍ مُقدَّر ، تقديره «إلى» ، متعلقٌ بأفعلِ التفضيلِ ﴿ أَذَىٰ ﴾ . والتقدير: ذلك أذىٌ إلى عدمِ العولِ .

أ - المشارُ إليه هو الحُكْمُ الذي قرَّره جملُ الآية؛ مثلُ: رخصةِ تعدُّدِ الزوجات ، والاكتفاءِ بواحدةٍ عند خشيةِ الظلمِ .

والمشارُ إليه المفهومُ من الجملِ السابقةِ بَدَلٌ من اسمِ الإشارةِ ﴿ ذَلِك ﴾ ،
فَيَقْدَرُ بعده لِيَحْسَنَ فَهَمُ المعنى ، والتقديرُ :

- ذلك الحكمُ في إباحةِ تعدُّدِ الزوجاتِ من غيرِ القريباتِ ، أدنى أَلَّا تعولوا
اليتماتِ القريباتِ . وذلك الحكمُ في الاكتفاءِ بواحدةٍ أو ملكِ اليمينِ عند
خشيةِ عَدَمِ العدلِ ، أدنى أَلَّا تعولوا الزوجاتِ المتعدّداتِ !! .

ب - أَفْعَلُ التفضيلِ ﴿ أَذْنَى ﴾ بمعنى أَقْرَبُ ؛ وهو مشتقٌّ من «دنا» بمعنى :
قَرُبَ . تقول : دنا ، يدنو ، دُنُوًّا ، وهو أدنى . أي : قَرُبَ ، يَقْرُبُ ، فهو أَقْرَبُ .

ج - ﴿ تَعُولُوا ﴾ : بمعنى : تظلموا وتجوروا . وفعله الماضي ثلاثي :
«عال» . وجذره الثلاثيُّ «عَوَلُ» بالواو . والعَوَلُ هو الظلمُ والجورُ
والانحرافُ ، وعدمُ العدلِ والقسطِ .

ولم تَرِدْ هذه المادَّةُ «عَوَلُ» في غيرِ هذا الموضعِ من القرآنِ .

د - ما تعلقَ به الفعلُ ﴿ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ محذوفٌ للعلمِ به ، لأنَّه مفهومٌ من
الجملِ السابقةِ ، ويمكنُ أَنْ يكونَ تقديرُه : أدنى أَنْ لا تعولوا نساءكم . أو :
أدنى أَنْ لا تعولوا في تصرفاتكم وأعمالكم .

هـ - من اللطيفِ تفرقةُ القرآنِ بين المادَّتينِ القريبتينِ في الحروفِ : العَوَلُ
والعَيْلُ :

- العَوَلُ بالواو : هو الظلمُ والجورُ والميلُ والانحرافُ ، ووردَ فقط في
قوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ ؛ تقول : عال ، يعول ، عَوْلًا .

- العَيْلُ بالياء : هو الفقرُ والحاجةُ ؛ يقال : عال فلانٌ ، أي : صارَ فقيرًا ،
تقول : عال ، يعيلُ ، عَيْلًا ، فهو عائلٌ ؛ أي : أفْتَقَرَ .

والذي وَرَدَ في القرآنِ من مادَّةِ «عَيْلُ» - بالياء - كلمتانِ فقط :

- المصدرُ : ﴿ عَيْلَةً ﴾ الذي هو بمعنى الفقرِ ، وذلك في قوله تعالى :
﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةَ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] .

- اسمُ الفاعلِ : «عائلٌ» ، وهو الفقيرُ ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَاعْتَنَى ﴾ [الضحى : ٨] ، أي : وَجَدَكَ فقيرًا فأعناكَ .

وبعض المفسرين لم يفرّقوا بين هاتين الكلمتين ، ففسّروا جملة ﴿ ذَلِكْ أَذَقَ الْأَتَعُولُوا ﴾ : هذا أقرب إلى أن لا تكثُر عيالكم ؛ أي : أبناؤكم ؛ أي : الزواج بواحدة بدّل أربع نساءً أقرب إلى أن لا تكثُر عيالكم !! .

وهذا فهمٌ مردودٌ ، لا يتفق مع حروفِ الكلمة ولا معناها ، ولا مع معنى الآية .

لو كان المعنى : الزواج بواحدة أقرب إلى أن لا تكثُر عيالكم ؛ لكان الفعل بضمّ أوّله وليس بفتحِهِ . ويقال : ذلك أدنى أن لا تُعيلوا .

يُقَالُ : أَعَالَ الرَّجُلُ غَيْرَهُ ، أَي : أَنْفَقَ عَلَيْهِ . وتقولُ في المضارع : يُعِيلُهُ ؛ أَي : يُنْفِقُ عَلَيْهِ . وتقولُ : أَعَالَ الرَّجُلُ ؛ أَي : كَثُرَتْ عِيَالُهُ وَزَادَتْ نَفَقَاتُهُ .

والكلامُ في الآية ليس عن العَيْلَةِ والنَّفَقَةِ ، ولا عن العِيَالِ والأَوْلَادِ ، وإنما هو عن العدلِ بين الزوجاتِ ، وعدمِ العولِ والجورِ والظلمِ والميلِ في العلاقةِ معهن .

ويدلُّ هذا التعليلُ على حرصِ القرآنِ على منعِ عولِ الزوجاتِ وظلمِهن ، ولذلك قرر من الإشاراتِ والتوجيهاتِ ما يحققُ ذلك .

بين الأعدادِ الأصولِ والأعدادِ المعدولة:

نَقَفُ الْآنَ أَمَامَ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ : ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا ﴾ : فما حكمة مجيئها على هذه الصيغة ؟ وما الفرقُ بينها وبين : اثنتين وثلاثاً وأربعاً ؟ .

علينا أن نُفَرِّقَ بين شيئين : الأعداد ، وأسماءِ الأعداد .

الأعدادِ الأصولِ : هي التي يُرادُ بها العَدَدُ ، وتقبلُ التكرارَ والجَمْعَ ، وهي من واحدٍ إلى عَشْرَةٍ . تقولُ : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة . وتقولُ : ثلاثةٌ وأربعةٌ يساوي : سبعة .

ومن وُرُودِ الأعدادِ مجموعةً في القرآنِ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِمَّا مِثَلَتْ رَبِّهِ أَزْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

وأسماء الأعداد: هي الأعداد المعدولة عن العدديّة إلى الوصفية، ولا يُرادُ بها العدُّ أو الجَمْع ، وإنما يُرادُ بها مجردُ الوصف . ولذلك لا تقبلُ التكرارَ ولا الجَمْع .

وأسماء الأعدادِ عشرة على الراجح ، وهي: أحادُ ، ومثنى ، وثلاثُ ، ورُباعُ ، وخماسُ ، وسُداسُ ، وسُبَاعُ ، وثُمانُ ، وتُسعُ ، وعُشارُ .

ولا تقبلُ الجَمْع ، فلا تقول: ثلاثُ ورُباعُ يُساوي سُبَاعُ ، كما تقول في ثلاثَةٌ وأربعةٌ يُساوي سَبعةٌ .

وأسماء الأعدادِ ممنوعةٌ من الصَّرْفِ للوصفية والعدُل ، لأنه يُرادُ بها الوصف ، ولأنها معدولةٌ مصروفةٌ عن العدديّة إلى الوصف .

والذي ذُكِرَ في القرآنِ من أسماء الأعدادِ العشرةِ ثلاثة، مذكورةٌ معاً ، هي: ﴿ مَثْنَى وَثُلَّةٌ وَرُبْعٌ ﴾ . وقد ذكرت مرتين في القرآن الكريم :

المرّة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَأَنكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَّةً وَرُبْعٌ ﴾ وهو موضوع حديثنا .

المرّة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَّةً وَرُبْعٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ١] .

أخبر الله في هذه الآية أنه خلق الملائكة أُولى أجنحة ، وأنهم مُتفاوتون في ذلك؛ فمنهم أولو أجنحة مثنى ، ومنهم أولو أجنحة ثلاث ، ومنهم أولو أجنحة رباع ، ومنهم أولو أجنحة أكثر من ذلك .

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أَنَّ الله جعلَ لجبريلَ عليه السلام ستمئةَ جناح ، وأنه رآه على صورته الحقيقية بهذا العدد الكبير من الأجنحة مرتين .

إنَّ التعبيرَ في رخصة التعدد بأسماء الأعداد ، وليس بالأعدادِ نفسها ، ليقرّر الوصفَ وليس العدَدَ .

لم تقل الآية: انكحوا ما طاب لكم من النساء: اثنتين وثلاثاً وأربعاً ، لثلاث يُظنُّ أَنَّ المراد بذلك جمعُ الأعدادِ الثلاثة ، وأنه يجوزُ للرجل الجمعُ بين تسع نساء ، إنما المقصودُ بالرخصة ﴿ مَثْنَى وَثُلَّةً وَرُبْعٌ ﴾ هو ذكْرُ أصنافِ وأقسامِ

وأنواع الرجال بالنسبة للتعُدُّد: فهناك مَنْ تَزَوَّجَ مَثْنَى ، وهناك مَنْ تَزَوَّجَ ثَلَاثَ ، وهناك مَنْ تَزَوَّجَ رُبَاعًا ! .

وبهذا ندرك الفرق بين : اثنتَيْنِ وثلاثاً وأربعاً ، وبين : مَثْنَى وثلاثَ ورُبَاعَ .
وبهذا نوقنُ أَنَّ عُدُولَ الْقُرْآنِ عن الصيغَةِ الأولى إلى الصيغَةِ الثانية مقصود ،
وأنه لا تَرَادُفَ في كلماتِ الْقُرْآنِ ! .

رخصة التعدد بين التناوب والتضمين:

نقفُ أمامَ جملةٍ ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا ﴾ وقفةً أخرى ، ننظرُ في حكمةِ عطفِ
أسماءِ الأعدادِ بالواو وليس بحرفِ «أَوْ» .

إِنَّ الآيَةَ تَخَيَّرُ الرِّجَالَ عندَ التعدُّدِ بينَ ثلاثِ خِيَارَاتٍ: إمَّا مَثْنَى ،
وإمَّا ثَلَاثَ ، وإمَّا رُبَاعَ . ولذلك كانَ المَتَوَقَّعُ أَنَّ تُعْطَفَ الكَلِمَاتُ بحرفِ «أَوْ»
الدَّالُّ على التَّخْيِيرِ ، فما حِكْمَةُ العُدُولِ عن «أَوْ» إلى الواو؟ وما الفرقُ بين
هذَيْنِ الحَرْفَيْنِ في العطفِ؟ .

اختلفت أقوال الناظرين في هذه الواو في : ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا ﴾ :

١- أَخَذَ بَعْضُهُمُ الْوَاوَ على ظاهرها ، وهو مطلق الجمع : فجمعوا الأعداد
الثلاثة ، وقالوا: تُبَيِّحُ الآيَةُ لِلرِّجَالِ الجَمْعَ بينَ تِسْعِ نِسَاءٍ ، لِأَنَّ هَذَا حَاصِلُ
جَمْعِ ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا ﴾ .

وهذا فَهْمٌ خَاطِئٌ لِلآيَةِ ، تَرُدُّهُ صِيَائِغُهَا ، كما يَرُدُّهُ هَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

لو أرادت الآيَةُ الجَمْعَ لَذَكَرَتْ الأَعْدَادَ وليس أسماء الأعداد ، ولقالت :
انكحوا ما طاب لكم من النساء ، اثنتَيْنِ وثلاثاً وأربعاً . إِنَّ أَسْمَاءَ الأَعْدَادِ :
﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا ﴾ لا تَقْبَلُ الجَمْعَ ، فلا يُقَالُ : إِنَّ حَاصِلَ جَمْعِهَا تُسَاعُ ! .

وهذا الجَمْعُ يَتَنَاقَضُ مع توجيهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ فقد أَسْلَمَ غِيْلَانُ بن سَلْمَةَ
رضي الله عنه وعنده عَشْرُ نِسَاءٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَمْسِكْ أَرْبَعًا ، وَفَارِقْ
سَائِرَهُنَّ» ! .

٢ - وقال آخرون: إِنَّ الْوَاوَ نَابَتْ عَنْ «أَوْ»: وَفَسَّرُوهَا عَلَى مَعْنَى «أَوْ» ، وقالوا: معنى الجملة: انكحوا ما طاب لكم من النساء؛ مثنى أو ثلاث أو رُباع .

و«التَّنَابُؤُ» فِي حُرُوفِ الْجَرِّ أَنْ يَكُونَ الْحَرْفُ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ لَيْسَ مُرَاداً لِدَاتِهِ ، لِأَنَّهُ «نَابَ» عَنْ حَرْفٍ آخَرَ . . . وَيَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ الْآيَةُ عَلَى ذَلِكَ الْحَرْفِ غَيْرِ الْمَذْكُورِ ! .

ومن الأمثلة على التناوب بين حُرُوفِ الْجَرِّ - عند القائلين به -:

- نَابَ حَرْفُ الْبَاءِ عَنْ حَرْفِ «عَلَى» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠] ، أَي: إِذَا مَرُّوا عَلَيْهِمْ يَتَغَامَرُونَ .

- نَابَ حَرْفُ اللَّامِ عَنْ حَرْفِ «عَلَى» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنِ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧] ؛ أَي: إِذَا أَسَأْتُمْ فَعَلَيْهَا .

وَنَحْنُ لَسْنَا مِنْ أَنْصَارِ الْقَوْلِ بِالتَّنَابُؤِ ، وَتَرَى أَنَّ الْحَرْفَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ مَقْصُودٌ لِدَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْإِلْغَاءُ مَعْنَاهُ ، وَاعْتِبَارُهُ نَائِباً عَنْ حَرْفٍ آخَرَ ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ الْحَرْفَ الْآخَرَ لَذَكَرَهُ .

وَلَا يَجُوزُ اعْتِبَارُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ مَثْنٍ وَثُلَّةٍ وَرِيعٍ ﴾ نَائِبَةً عَنْ «أَوْ» ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْجُمْلَةِ: مَثْنِي أَوْ ثَلَاثٌ أَوْ رُبَاعٌ !! .

إِنَّ «أَوْ» تَدُلُّ عَلَى التَّخْيِيرِ الْمَلْزَمِ ، الَّذِي لَا يَجُوزُ الْإِنْتِقَالُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ . . وَهَذَا لَيْسَ مَقْصُودَ الْآيَةِ ، وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْنَاهَا .

تَدُلُّ «أَوْ» عَلَى أَنَّ الرِّجَالَ مُخَيَّرُونَ فِي التَّعَدُّدِ ، لَكِنْ هَذَا التَّخْيِيرَ مَلْزَمٌ لَهُمْ ، بِمَعْنَى أَنَّ أَمَامَهُمْ ثَلَاثُ خِيَارَاتٍ: إِنَّ الرِّجَلَ إِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ ثَلَاثًا ، وَإِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ أَرْبَعًا . . وَالتَّخْيِيرُ مَلْزَمٌ لَهُ ، بِمَعْنَى أَنَّهُ إِذَا اخْتَارَ الزَّوْجَ بَاثْنَتَيْنِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَزَوَّجَ ثَلَاثًا! وَإِذَا اخْتَارَ الزَّوْجَ بِثَلَاثِ حَرَمٍ عَلَيْهِ الزَّوْجُ بِرَابِعَةٍ !! .

وَالْآيَةُ لَا تَقُولُ بِذَلِكَ ، فَإِنَّهَا تَجْعَلُ الرَّجُلَ مَخِيرًا تَخْيِيرًا مَفْتُوحًا وَلَيْسَ مَلْزَمًا . . بِمَعْنَى أَنَّهُ إِنْ اخْتَارَ الزَّوْجَ بَاثْنَتَيْنِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الزَّوْجُ بِثَلَاثَةٍ ، وَإِذَا اخْتَارَ الزَّوْجَ بِثَلَاثِ جَازَ لَهُ الزَّوْجُ بِرَابِعَةٍ .

وهذا التخييرُ غيرُ الملزمِ يَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ نَائِبَةً عَنِ «أَوْ» .

٣- وَذَهَبَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّضْمِينِ ، عَلَى أَنَّ الْوَاوَ فِي الْجُمْلَةِ ﴿ مَثْنِيٌّ وَثَلَاثٌ وَرُبْعٌ ﴾ ضُمِّنَتْ مَعْنَى «أَوْ» .

و«التَّضْمِينُ» أُسْلُوبٌ بَيَانِيٌّ رَفِيعٌ ، مَوْجُودٌ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُوَ : أَنْ يُضْمَنَ الْحَرْفُ الْمَذْكُورُ حَرْفًا آخَرَ غَيْرَ مَذْكُورٍ ، فَيَدُلُّ عَلَى مَعْنَى الْحَرْفِ غَيْرِ الْمَذْكُورِ أَوَّلًا ، ثُمَّ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَاهُ ثَانِيًا . وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ وَلَطَائِفِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ .

وَيَتِمُّ إِجْرَاءُ التَّضْمِينِ بِفَهْمِ الْآيَةِ عَلَى الْحَرْفِ غَيْرِ الْمَذْكُورِ أَوَّلًا ، ثُمَّ فَهْمِهَا عَلَى الْحَرْفِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ الْجَمْعِ بَيْنَ الْحَرْفَيْنِ ، وَكَأَنَّا أَمَامَ آيَتَيْنِ بِمَعْنَيْنِ ! . وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ ، فَالْوَاوُ فِي الْآيَةِ ضُمِّنَتْ «أَوْ» . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ نَفْهَمَ الْآيَةِ عَلَى مَعْنَى «أَوْ» ثُمَّ نَفْهَمُهَا عَلَى مَعْنَى الْوَاوِ .

● نَفْهَمُ الْآيَةَ عَلَى مَعْنَى «أَوْ» :

تُبَيِّحُ الْآيَةُ لِلرِّجَالِ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ ، وَتُحَيِّرُ الْوَاحِدَ مِنْهُمُ فِي أَيِّ عَدَدٍ أَرَادَ ، بِشَرْطِ الْعَدْلِ ؛ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ بِوَاحِدَةٍ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ بِاثْنَتَيْنِ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ بِثَلَاثٍ ، وَإِمَّا أَنْ يَتَزَوَّجَ بِأَرْبَعٍ . . وَيَجُوزُ لِمَنْ تَزَوَّجَ بِاثْنَتَيْنِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِثَالِثَةٍ ، وَلِمَنْ تَزَوَّجَ بِثَلَاثٍ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِرَابِعَةٍ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى أَسْمَاءِ الْأَعْدَادِ : مَثْنِيٌّ أَوْ ثَلَاثٌ أَوْ رُبْعٌ .

● ثُمَّ نَنْتَقِلُ لِنَفْهَمِ الْآيَةَ عَلَى مَعْنَى الْوَاوِ :

الْوَاوُ تَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ ؛ فَالْآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَصْنَافِ الرِّجَالِ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّعَدُّدِ ، وَتُبَيِّنُ أَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ ، مَعْطُوفٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِحَرْفِ الْوَاوِ .

هَنَّاكَ مَنْ يَتَزَوَّجُونَ مَثْنِيٌّ مِنَ النِّسَاءِ ؛ «و» هَنَّاكَ مِنْ يَتَزَوَّجُونَ ثَلَاثًا مِنَ النِّسَاءِ ، «و» هَنَّاكَ مَنْ يَتَزَوَّجُونَ رُبَاعًا مِنَ النِّسَاءِ . فَكُلُّ رَجُلٍ يُرِيدُ التَّعَدُّدَ يَأْخُذُ مَا أَرَادَ مِنْ ذَلِكَ التَّعَدُّدِ : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنِيٌّ وَثَلَاثٌ وَرُبْعٌ ﴾ .

وَخِلَاصَةُ الْقَوْلِ : تُبَيِّنُ الْآيَةُ أَنَّ الرِّجَالَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزَّوْجِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ :

الصَّنْفُ الْأَوَّلُ : رَجُلٌ يَتَزَوَّجُ أَرْبَعَ نِسَاءً .

الصف الثاني: رجلٌ يتزوجُ ثلاثَ نساء.

الصف الثالث: رجلٌ يتزوجُ امرأتين.

الصف الرابع: رجلٌ يتزوجُ امرأةً واحدة.

الصف الخامس: رجلٌ يتزوجُ أمةً ملك اليمين.

الصف السادس: رجلٌ يبقى بدونِ زواج!

بين العدل المثبت والعدل المنفي:

نتنقل في وقتنا أمام آية إباحة التعدد إلى الجمع بين آيتين تتحدّثان عن نفس الموضوع ، في سورة واحدة هي سورة النساء ، يبدو بينهما تعارضٌ في الظاهر ، لنجمع بينهما ، ونزيل التعارض الظاهري بينهما .

الآية الأولى: التي نتحدّث عنها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ؛ إنها تبيح التعدد بشرط العدل بين الزوجات ، فإن لم يتحقق العدل كان التعدد حراماً ، ويجب على الرجل الاكتفاء بواحدة: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلِّقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩] .

هناك مَنْ يتعلّون على القرآن ، ويرفضون من أحكامه وتوجيهاته ما لا يتفق مع أهوائهم وشهواتهم ، ويسئون الكلام عنها ، ويحرّفون معانيها .

إنهم في موضوعنا يُحاربون رخصة تعدد الزوجات ، لأنهم متأثرون بالحياة الغربية التي تمنع تعدد الزوجات ، وتبيح تعدد العشيقات والخيلات ! .

وهم يجعلون الآية الثانية ناسخة للآية الأولى ، ويتعلّمون على الآيتين قائلين: أباح الله تعدد الزوجات بشرط العدل ، فإن لم يتحقق العدل كان التعدد حراماً ، لقوله: ﴿ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴿١٢٩﴾ . ولكنَّ اللهَ بَيَّنَّ أَنَّ العَدْلَ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ مُسْتَحِيلٌ ، بِنَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ . وبِمَا أَنَّ العَدْلَ بَيْنَهُنَّ مُسْتَحِيلٌ ، فَإِنَّ التَّعَدُّدَ يَكُونُ حَرَامًا !! فَالآيَةُ (١٢٩) عِنْدَهُمْ نَاسِخَةٌ لِلآيَةِ الثَّلَاثَةِ .

وَيَجِبُ حَسَنَ النِّظَرِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَحَسْنَ الْجَمْعِ بَيْنَ آيَاتٍ تَبْدُو مُتَعَارِضَةً فِي الظَّاهِرِ ، وَإِزَالَةَ التَّعَارُضِ الظَّاهِرِيِّ بَيْنَهَا ، وَيَجِبُ إِغَاءُ الْمَزَاجِيَةِ وَالهُوَى بَيْنَهَا .

مِنَ غَيْرِ الْمَقْبُولِ أَنْ تُبِيحَ آيَةُ التَّعَدُّدِ بِشَرْطِ العَدْلِ ، ثُمَّ تُحَرِّمَ آيَةٌ أُخْرَى التَّعَدُّدَ لِأَنَّ العَدْلَ مُسْتَحِيلٌ ! وَالْقُرْآنُ لَا يَتَلَاعَبُ بِالْأَحْكَامِ ! .

العَدْلُ عَدْلَانِ : عَدْلٌ وَاجِبٌ ، وَشَرْطٌ لِتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ . وَعَدْلٌ آخَرٌ مُسْتَحِيلٌ ، وَلَا يَمْنَعُ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ .

العَدْلُ الْوَاجِبُ : الَّذِي يَقْدَرُ عَلَيْهِ كُلُّ رَجُلٍ هُوَ العَدْلُ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ فِي الْأُمُورِ الْمَادِيَةِ الظَّاهِرِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ ، وَهُوَ الْمَتَمَثِّلُ فِي العَدْلِ فِي النِّفَقَةِ وَالْمَعَاشَرَةِ ، وَالْمَعَامَلَاتِ وَالسَّلُوكِيَّاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ ، وَالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، بِأَنْ يُعْطِيَ الرَّجُلُ كُلَّ وَاحِدَةٍ لِيَلْتَمَسَهَا ، وَيُسَاوِي بَيْنَهُنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْإِبْتِسَامَةِ وَبِشَاشَةِ الْوَجْهِ . . فَإِنَّ لِمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ كَانَ أَثِمًا ، وَكَانَ ظَالِمًا ، وَكَانَ مُؤَاخِذًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَعَلَى هَذَا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَتَيْنِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقَّةُ مَائِلٍ » .

وَالعَدْلُ الْمُسْتَحِيلُ : هُوَ الَّذِي تَحَدَّثَتْ عَنْهُ الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ، وَبِمَا أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ فَلَمْ يَكْلِفِ اللهُ بِهِ الرِّجَالَ .

وَهَذَا العَدْلُ قَائِمٌ عَلَى الْمَشَاعِرِ وَالْعَوَاطِفِ ، وَالانْفِعَالَاتِ وَالْأَحَاسِيْسِ ، وَالْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَهَذِهِ أُمُورٌ لَا إِرَادِيَّةَ ، لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ أَعْفَاهُ اللهُ مِنْهَا .

وَهَذَا العَدْلُ مَنْفِيٌّ ، بِمَعْنَى أَنَّ مَحَبَّةَ الزَّوْجِ لِإِحْدَى زَوْجَتَيْهِ قَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ ، وَرَغْبَتَهُ فِيهَا قَدْ تَكُونُ أَكْثَرَ ، وَمِيلَهُ إِلَيْهَا قَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ ، وَأَنْسَهُ بِهَا قَدْ

يكونُ أكثر. . ولا يوجبُ اللهُ عليه العدلَ والمساواةَ في هذا الجانبِ بين الزوجاتِ .

وكان رسولُ اللهِ ﷺ يقصدُ هذا المعنى عندما كان يعدلُ العدلَ الماديَّ الواجبَ بين نسائه ، ويعترفُ بعجزه عن العدلِ الثاني ، ولذلك كان يدعو اللهُ قائلاً: «اللهمَّ هذا قسَمي فيما أمْلِكُ ، فلا تُؤاخِذني في ما لا أمْلِكُ» .

ومع استحالةِ هذا النوعِ اللّإِرادِيّ من العَدْلِ ، ومع إباحةِ القرآنِ للرجلِ أَنْ يَمِيلَ إلى إحدى نساته أكثرَ من الأخرى ، إلّا أَنَّهُ طالَبَهُ أَنْ لا يَمِيلَ عن الأخرى كُلِّ المَيْلِ ، بحيثُ يُؤدِّي ذلكَ إلى وقوعه في الظلمِ المادي: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ .

من أحكام ودلالات الآية:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْوًى وَتِلْكَ وَرَبْعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا﴾ .

يُمكنُ الإشارةُ إلى أهمِّ أحكامِ الآيةِ ودلالاتِها وتوجيهاتها:

١ - الأصلُ أَنَّ يكونَ زواجُ الرجلِ المرأةَ لرغبةٍ فيها هي نفسها ، أي أَنَّ يكونَ الزواجُ لأجلِ الزواجِ ، وهذا من بابِ احترامِ المرأةِ وتكريمها ، وحسنِ اختيارها على غيرها ، لأنها في نظرِ زوجها أنسبُ من غيرها لتكونِ امرأته .

٢ - الزواجُ المصلحيُّ القائمُ على المصلحةِ والمنفعةِ يكرهه الإسلامُ ، ويُتفرَّ منه ، فبعضُ الرجالِ قد لا تكونُ له رغبةٌ في المرأةِ لشخصها ، ولكنه يتزوجها طمَعاً في مالها ، أو في مركزها ووظيفتها ، أو في نَسبِها وأهلها! وهذا الزواجُ النفعيُّ المصلحيُّ لا يُحققُ حكمةَ الإسلامِ من الحثِّ على الزواجِ ، ويُضَيِّعُ إنسانيةَ المرأةِ ومشاعرها وسَطَ الأموالِ والمصالحِ ! .

٣ - النفوسُ تميلُ إلى المالِ ، وتُحِبُّه ، وتُؤثِّره وتفضُّله على غيره ، مهما ارتقت النفوسُ في عالمِ الفضلِ والاستقامةِ والتزكيةِ ، فهؤلاءُ الصحابةُ الذين ربّاهم رسولُ اللهُ ﷺ على عينه ، وُجِدَ منهم مَنْ يُريدُ الزواجَ بقريبتِهِ اليتيمةِ ليس رغبةً فيها ، وإنما طمَعاً في مالها ، فنهاهم اللهُ عن ذلكِ .

٤ - الأَصْلُ فِي الْآيَةِ أَنْ «تُحَرَّرَ» مِنْ قَيْدِ التَّخْصِصِ بِسَبَبِ النُّزُولِ أَوْ زَمَانِهِ ، وَأَنْ تَبْقَى تَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ الْحَالَاتِ الْمَشَابِهَةِ ، الَّتِي تَشْمَلُهَا كَلِمَاتُهَا ، حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَهَذَا مَا قَرَّرَهُ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ فِي قَوْلِهِمْ عَنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ : الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ .

فَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا جَوْزٌ وَسَبَبٌ لِلنُّزُولِ وَصَحَّتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِابْنِ أُخْتِهَا عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ خَاصَّةً بِذَلِكَ السَّبَبِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَنْهَى عَنِ الزَّوْجِ الْمَصْلُحِيِّ ، حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ .

٥ - كَانَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ فِي التَّفْسِيرِ ، وَمَعَ عِلْمِهِ الْغَزِيرِ التَّبَسُّعِ عَلَيْهِ فَهَمُّ الْآيَةِ ، فَلَجَأَ إِلَى خَالَتِهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لِتُزِيلَ اللَّبْسَ .

وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَهْمِيَّةِ مَعْرِفَةِ سَبَبِ وَجْزِ النُّزُولِ ، وَهَذَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَاشُوا وَعَاشُوا نُزُولَ الْآيَاتِ . كَمَا يَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَى الْآيَةِ أَنْ يَسْأَلَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ بِهَا ، وَأَنَّ كِبَارَ الْعُلَمَاءِ قَدْ تَخْفَى عَلَيْهِمْ بَعْضُ الْمَعَانِي وَالْحَقَائِقِ . وَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَتَوَاضَعَ وَيُوقِنَ بِأَنَّهُ لَمْ يُؤْتِ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

٦ - عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْرَصَ عَلَى الْعَدْلِ فِي أَعْقَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَأَنْ يَتَّعَدَّ عَنِ الظُّلْمِ ، وَأَنْ يَبْقَى خَائِفًا مَتَحَرِّجًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الظُّلْمِ ، لِأَنَّهُ إِنْ ظَلَمَ غَيْرَهُ يُهْلِكُ نَفْسَهُ ، وَإِنَّ الظُّلْمَ ظَلَمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

٧ - وَجَّهَ الرِّجَالُ إِلَى أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ : ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ . وَوَصَفُ النِّكَاحِ بِالطَّيِّبِ مَقْصُودٌ ؛ فَالنِّكَاحُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ مَرْغُوبٌ مَطْلُوبٌ ، يَتَوَافَقُ مَعَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا ، وَلَا يَطْلُبُهُ إِلَّا الطَّيِّبُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ . . وَعَكْسُ النِّكَاحِ الطَّيِّبِ هُوَ الْمَعَاشِرَةُ الْمَحْرَمَةُ وَالزَّوْنِي الْخَبِيثُ ، وَتَصْرِيفُ الشَّهْوَةِ عَنْ طَرِيقِ غَيْرِ طَيِّبٍ ، وَلَا يَخْتَارُ الزَّوْنِي الْخَبِيثُ إِلَّا الْخَبِيثَاتُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ .

٨ - الْأَمْرُ فِي ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ﴾ لَيْسَ لِلْوُجُوبِ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلْإِشْرَادِ وَالتَّوْجِيهِ . وَالْأَصْلُ أَنْ لَا يَكُونَ النِّكَاحُ وَاجِبًا ، لِأَنَّ الرِّجُلَ السُّوَيَّْ الْقَادِرَ

لا يَحْتَاجُ إِلَى تَكْلِيفٍ فِيهِ وَإِجَابٍ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ بِفَطْرَتِهِ .
وَيَكُونُ النِّكَاحُ وَاجِبًا لِمَنْ تَيَسَّرَتْ لَهُ سُبُلُ الْفَاحِشَةِ ، وَخَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ
الْوُقُوعَ فِيهَا ، وَعِنْدَهُ قُدْرَةٌ عَلَى النِّكَاحِ .

٩ - الْآيَةُ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى
وَتِلْكَتَ وَرَبْعًا ﴾ . وَتَدُلُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَى أَنَّ التَّعَدُّدَ رُخْصَةٌ ، وَلَيْسَ وَاجِبًا .
وَبِمَا أَنَّ اللَّهَ أَبَاحَ التَّعَدُّدَ فَلَا دَاعِيَ لِأَنَّ نَبِيَّكَ عَنْ مَبْرَرَاتٍ وَمَسْوَغَاتٍ لَهُ ، لِأَنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، شَرَعَ لَنَا مَا فِيهِ مَصْلَحَتُنَا ، وَلَا خَطَأٌ فِي أَحْكَامِهِ سُبْحَانَهُ .
وَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَوْ مُسْلِمَةٍ أَنْ يَتَعَالَمَا عَلَى اللَّهِ ، أَوْ يَتَفَلَسَفَا عَلَى كَلَامِهِ ،
أَوْ يَنْتَقِدَا وَيُخَطِّئَا أَحْكَامَهُ .

١٠ - يَبْقَى الْحُكْمُ مُسْتَمِرًّا حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ : يُبَاحُ لِلرَّجُلِ تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ ،
بِدُونِ أَيِّ سَبَبٍ ، وَهُوَ لَيْسَ مُتَّهَمًا لِيُدَافِعَ عَنِ نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا أَوْ
خَطَأً ، وَلَا يُقَالُ لَهُ : مَا السَّبَبُ الَّذِي أَلْجَأَكَ إِلَى التَّعَدُّدِ؟ وَمَا بِالْأَمْرَاتِكَ؟
وَمَا الْعَيْبُ فِيهَا؟ .

كُلُّ مَنْ عِنْدَهُ رَغْبَةٌ فِي التَّعَدُّدِ فَلْيُحَقِّقْهَا ، وَلَا يُلَامُ عَلَى ذَلِكَ . وَالْإِسْلَامُ
لَا يَشْتَرُطُ عَلَيْهِ إِلَّا شَرْطًا وَاحِدًا ، هُوَ أَنْ يَعْدَلَ الْعَدْلَ الظَّاهِرِيَّ بَيْنَ نِسَائِهِ ،
وَأَنْ لَا يَظْلِمَهُنَّ ! .

١١ - تَعَدُّدُ الزَّوْجَاتِ مَحْصُورٌ فِي حَدِّهِ الْأَعْلَى : ﴿ مَثْنَى وَتِلْكَتَ وَرَبْعًا ﴾ ،
بِمَعْنَى أَنَّهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَرْبَعِ نِسَاءٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَلَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى
ذَلِكَ ، وَدَلِيلُ الْحَصْرِ بِأَرْبَعِ ظَاهِرُ الْآيَةِ ، وَهَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ
لِغِيْلَانَ بْنِ سَلَمَةَ ، الَّذِي أَسْلَمَ وَعِنْدَهُ عَشْرُ نِسَاءٍ : « اخْتَرْ أَرْبَعًا مِنْهُنَّ » .

١٢ - الْمُسْلِمُ ضَعِيفٌ ، وَمَهْمَا حَاوَلَ الْإِسْتِقَامَةَ وَعَدَمَ الْوُقُوعَ فِي الْخَطَأِ ،
فَسَوْفَ يَقَعُ فِيهِ ، وَعُذْرُهُ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ ذَلِكَ ، وَعَلَيْهِ الْمَسَارَعَةُ بِالنَّدَمِ
وَالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ .

وَمَهْمَا حَرَصَ الزَّوْجُ عَلَى عَدَمِ الْخَطَأِ وَالظُّلْمِ فَلَنْ يَبْقَى عَلَى ذَلِكَ ،
وَسَيَقَعُ فِي الْمَخَالَفَةِ ، وَعَلَيْهِ التَّخَلِّيُّ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعَوْدَةُ إِلَى الْعَدْلِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ
يَبْقَى مَتَحَرِّجًا مَتَبَهًا مَتِيْقًا ! .

١٣- البديل لمن خشى عدم العدل مع الزوجات أن لا يُعَدَّدَ ، وأن يكتفي بواحدة: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ . وكلُّ إنسانٍ أدرى بقدرته ومشاعره وعواطفه ، ويعرف هل يمكنه العدل بين الزوجات أم لا؟ وقد وكلت الآية إلى كلِّ إنسانٍ تقديرَ الموقف! .

١٤- توجه الآية الرجال إلى التصرف المناسب عند خوفهم وخشيتهم ، وعند توقعهم حصول الظلم ، ولا تنتظر حتى يقع الظلم فعلاً ، وهذا من حيوية التوجيه القرآني . . إنه يدعو إلى اتخاذ خطوات عملية لمنع وقوع المشكلة ، وهذا أهمُّ في معالجتها . . عند توقع الرجال عدم القسط مع القريبات فليتوقفوا عن الزواج منهن ، وعند توقعهم عدم العدل عند التعدد فليتوقفوا عنه . . وهكذا نجح القرآن في تقرير أحكامه وتوجيهاته ، وحلَّ المشكلات الاجتماعية!! .

١٥- الزواج من الأمة «ملك اليمين» ، لمن عجز عن الزواج من الحرّة ، والذي ورد في جملة: ﴿ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أصبح في هذا العصر مسألة نظرية ثقافية تاريخية ، ولم يعد مسألة عملية واقعية قائمة ، لأنَّ نظام «الرق» واتخاذ الأرقاء من العبيد والإماء كان وضعاً عاماً عالمياً في ذلك الزمان ، ولذلك وردت أحكام كثيرة تتعلق بهذا النظام في الكتاب والسنة والتراث العلمي الإسلامي .

وهذا النظام غير موجود في هذا العصر ، لأنَّ دَوْلَ العالم اتفقت على منع الرق والاسترقاق ، والإسلام يُباركُ تحريرَ العبيد ، والاتفاق على إلغاء هذا النظام .

ولذلك هذا الحكم في قوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ موقوف في هذا الزمان . فإذا عاد المسلمون للجهاد ، وأخذوا العبيد والسبأيا من الأعداء المقاتلين ، ورأى الإمام أنَّ من مصلحة المسلمين العودة إلى نظام الرق عادوا إليه ، وإلا فلا!! .

١٦- ظاهر الآية أنَّ الأصل في الزواج هو التعدد ، وأنَّ الاكتفاء بواحدة خلاف الأصل ، وأنَّ الرجل لا يلجأ إليه إلا لسبب شرعي ، وهو عدم العدل

بين نسائه: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ .

فَبَدَأَ بِالْأُصْلِ وَهُوَ التَّعَدُّدُ ، وَعِنْدَ الْخَوْفِ مِنْ عَدَمِ الْعَدْلِ عِنْدَ التَّعَدُّدِ يَكْتَفِي الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ الْوَاحِدَةِ .

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ : ﴿فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ عَلَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَخَفِ الْأَزْوَاجُ الظُّلْمَ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَبْتَقُوا عَلَى الْأُصْلِ ، وَهُوَ التَّعَدُّدُ .

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْأُصْلَ أَنْ لَا يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَنْ سَبَبِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْأُصْلُ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَبْرِيرٍ وَدِفَاعٍ ، إِنَّمَا يُسْأَلُ الرَّجُلُ الْمَكْتَفِي بَوَاحِدَةٍ : لِمَ اكْتَفَيْتَ بَوَاحِدَةٍ؟ هَلْ تَخْشَى عَدَمَ الْعَدْلِ عِنْدَ التَّعَدُّدِ؟ فَإِن وَجَدَ قُدْرَةً مَالِيَةً وَنَفْسِيَّةً وَجِنْسِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً وَلَمْ يُعَدِّدِ الزَّوْجَاتِ اسْتَحَقَّ الْمَسَاءَلَةَ وَالْعِتَابَ!! .

١٧- الْقُرْآنُ حَرِيصٌ عَلَى تَعْلِيلِ تَوْجِيهَاتِهِ ، وَذَكَرَ حِكْمَ أَحْكَامِهِ . . فَلَمَّا قَدَّمَتِ الْآيَةُ تَوْجِيهَهَا بِالنِّسْبَةِ لِلتَّعَدُّدِ وَالِاكْتِفَاءِ بَوَاحِدَةٍ ، عُلِّقَتْ ذَلِكَ فِي آخِرِ جُمْلَةٍ فِيهَا : ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ .

وَعَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ هَذِهِ الْإِشَارَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَنْ نُبَيِّنَ الْحَكْمَ الَّتِي تَبْدُو لَنَا مِنَ التَّشْرِيعَاتِ وَالتَّوْجِيهَاتِ ، لِتَزْدَادَ قَنَاعَةَ النَّاسِ بِهَا ، وَتَنْفِذُهُمْ لَهَا .

١٨- إِنَّ مَحَارِبَةَ الظُّلْمِ وَتَحْقِيقَ الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ ، مَقْصِدٌ أَسَاسِيٌّ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ ، سِوَاهُ عَلَى مَسْتَوَى الْفَرْدِ أَوْ مَسْتَوَى الْأُسْرَةِ أَوْ مَسْتَوَى الدَّوْلَةِ .

الظُّلْمُ ظُلْمٌ مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهُ ، وَمَهْمَا كَانَ مَجَالُهُ ، وَمَهْمَا كَانَ بَاعِثُهُ ، وَهُوَ حَرَامٌ لِحُطُورَتِهِ وَأَثَارِهِ ، وَهُوَ ظُلْمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَلَا يُقَرَّرُ الْقُرْآنُ الظُّلْمَ مَهْمَا كَانَتْ مَبْرَرَاتُهُ ، إِنَّهُ لَا يُجِيزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَظْلِمَ امْرَأَتَهُ ، أَوْ أَنْ يَظْلِمَ نِسَاءَهُ إِذَا أَخَذَ بِرِخْصَةِ التَّعَدُّدِ . . وَيَتَّخِذُ الْقُرْآنُ الْإِجْرَاءَاتِ الْكُفَيْلَةَ بِمَحَارِبَةِ الظُّلْمِ : ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ .

وَالْقُرْآنُ الَّذِي يَلْتَفِتُ لِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَيَتَدَخَّلُ لِمَنْعِ ظُلْمِ الرَّجُلِ لِمَرْأَتِهِ أَوْ نِسَائِهِ ، وَيَهْتَمُّ بِهَذِهِ الدَّائِرَةِ الْمَصْغَرَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ . . يَتَدَخَّلُ فِي الدَّائِرَةِ الْأَشْمَلِ وَالْأَوْسَعِ ، وَيُنْهَى عَنِ الظُّلْمِ بَيْنَ

أفراد المجتمع ، ويوجبُ على كلِّ فردٍ فيه مهما كانت مسؤوليته ودرجته تحقيقَ القسطِ والعدلِ فيه .

من لطائف الآية:

مرّت بنا فيما مضى بعضُ اللطائفِ البيانيةِ في الآية ، لكننا نُلخصُ هنا أهمَّ هذه اللطائفِ :

١- ذُكرت الآيةُ خوفين ، كُلُّ منهما بمعنى الخشية والتوقُّع ، لكنَّ الخطابَ اختلف ، والخائفونَ اختلفوا ، والمخوفُ منه اختلفَ :

الخوفُ الأوَّلُ في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ ؛ الخائفونَ هم أوصياءُ اليتيمات الغنّيات ، والمخوفُ منه هو عدمُ القسطِ في نكاحِ يتيماَتِهِمْ .

والخوفُ الثاني في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ؛ الخائفونَ هم الرجالُ الراغبون في التعدُّد ، والمخوفُ منه هو عدمُ العدلِ مع الزوجات .

٢- من لطائفِ الحذفِ في الآية التناسُقُ في الحذفِ في الجملتين الشرطيَّتين ، اللتين تتحدَّثان عن الخوفِ ؛ حيثُ حُذِفَ جوابُ الشرطِ في كلِّ منهما ، كما بيَّنا ذلك في التحليل :

- وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَلَا تَنْكِحُوهُنَّ ، وَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرَهُنَّ .

- وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِي النِّسَاءِ الزَّوْجَاتِ فَلَا تَعْدُدُوهُنَّ ، وَانْكَحُوا وَاحِدَةً فَقَطْ .

٣- نوَّعت الآيةُ في حديثها عن المخوفِ منه :

كَانَ الْمَخُوفُ مِنْهُ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى عَدَمَ الْقِسْطِ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ .

وَكَانَ الْمَخُوفُ مِنْهُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ عَدَمَ الْعَدْلِ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

فما حكمه ذُكِرَ عدمُ القسطِ مع اليتامى ، وعدمُ العدلِ مع التعدُّدِ؟ .

صحيحٌ أَنَّ القسْطَ قَريبٌ من العَدْلِ ، لكنهما ليسا مترادفين ، أَي أَنَّ القسْطَ ليس هو العدل ، وليس معنى عدم القسْطِ عدمَ العَدْلِ ، ولا بُدَّ من ملاحظة الفروقِ الدقيقَةِ بين الكلمتين :

العدلُ هو المساواةُ بين المتساويين . والقِسْطُ هو التقسيمُ والتجزئةُ .

يُقَالُ : عَدَلَ بَيْنَ الطَرَفَيْنِ . أَي : ساوى بينهما .

ويلاحظُ أَنَّ الفعلَ «يَعْدِلُ» يتعدى إلى ما بعده بظرفِ المكانِ «بَيْنَ» ، ليدلَّ على وجودِ طرفين لا بُدَّ من العدلِ والمساواةِ بينهما . قال تعالى : ﴿ وَقُلْ ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى : ١٥] .

أما القسْطُ فهو حُسْنُ التقسيمِ ؛ يُقالُ : أقسَطَ في تعاملِهِ مع الناسِ . أَي : أعطى كلَّ ذي حقٍّ حَقَّهُ كاملاً ، ونصيبهَ وافيًا . ففيه معنى التقسيمِ وإخراجِ الحقِّ والنصيبِ .

ويتعدى فعلُ «يقسطُ» إلى ما بعده بحرفِ «في» ، ليدلَّ على إعطاءِ النصيبِ كاملاً ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ . وقد يتعدى بحرفِ «إلى» ليدلَّ على حسنِ المعاملةِ وإعطاءِ الحقوقِ ، قال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة : ٨] .

بعدَ معرفةِ الفرقِ الدقيقِ بين العَدْلِ والقِسْطِ نعرفُ حكمةَ استعمالِ الخوفِ من عدمِ القسْطِ في نكاحِ اليتامى ، والخوفِ من عدمِ العدلِ بين الزوجاتِ .

لا توجدُ مساواةٌ في نكاحِ اليتيمة ، إنما هو إعطاؤها حَقَّها ونصيبها ، وهذا الإعطاءُ يناسبه التعبيرُ بالقِسْطِ في التعاملِ معها ؛ ولذلك جاء التعبيرُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ .

أما في تعدُّدِ الزوجاتِ فهناك أطرافٌ متعدِّدةٌ ، هناك زوجةٌ وزوجةٌ وزوجةٌ ، وهذا لا يناسبه القِسْطُ ، إنما يناسبه العدلُ بينهن ، بمعنى المساواةِ بينهن ، ولذلك جاء التعبيرُ بالعدلِ وليس بالقِسْطِ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ .

وتعدى الفعل إلى ما بعده بالظرف في قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

واللطيف في التعبير القرآني أنه جمع بين القسط والعدل في آية واحدة ، هي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَقَّ تَقْوَىٰ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

أي: اعدلوا وساووا بينهما في الصلح ، وأقسطوا فيهما عندما تعطونهما نصيبهما .

٤- اللطيف أنه عندما تكلمت الآية عن القسط ذكرت متعلق الفعل ، فقالت: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ ﴾ . وعندما تكلمت عن العدل حذف متعلق الفعل ، فقالت: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ .

لقد ذكرت ما تعلق به القسط ، لأنه لم يسبق له ذكر فلزم بيانه . أما العدل فقد سبقت الإشارة إلى الأطراف التي لا بُدَّ أن يعدلَ بينها: ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَّةً وَرُبُعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ؛ أي: فإن خفتُم أَلَّا تُعْدِلُوا بين النساء فلا تعددوهنَّ واكتفوا بواحدة .

فذكر ما تعلق به القسط مقصود ، وحذف ما تعلق به العدل مقصود ، والقرآن يوازن موازنةً دقيقةً بين ما يذكره وما يحذفه ، وهو معجزٌ في ذكره وفي حذفه .

٥- في الآية ثلاث فاءات ، كلُّ منها حرفُ عطف ، لكن اختلف المعطوف عليه :

الفاء الأولى: في قوله تعالى: ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ حيث عطفت ما بعدها على جواب شرط محذوف ، ولذلك جاءت بمعنى الواو . والتقدير: إن خفتُم أَلَّا تقسطوا في اليتامى فلا تنكحوهن ، وانكحوا ما طاب لكم من النساء .

والفاء الثانية: في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعْدِلُوا ﴾ عطفت ما بعدها على

ما قبلها مباشرة ، فهي على ظاهرها: انكحوا ما طاب لكم من النساء، فإن خفتم . . .

والفاء الثالثة: في قوله تعالى: ﴿فَوَاحِشَةً﴾ دخلت على مفعول به منصوب لفعل محذوف، تقديره: «فانكحوا واحدة»، وعطف هذه الجملة على جواب شرط محذوف. والتقدير: إن خفتم ألا تعدلوا بينهم فلا تنكحوهن وانكحوا امرأة واحدة.

ويلاحظ أن القرآن يُنوع في الجمل التي استخدم فيها هذه «الفاءات» ، فمع أنها كلها للعطف ، إلا أن صياغة الجمل الواردة فيها اختلفت .

٦- «أن» التي هي حرف مصدري ونصب مذكورة في الآية ثلاث مرات:

﴿الآنفسطوا في اليمنى﴾ ، و﴿الآنعدلوا﴾ ، و﴿الآنقولوا﴾ .

واللطيف أنها داخلة على جمل ثلاث منفية ، وأن المصدر المسبوك منها منفي: وإن خفتم عدم القسط ، وإن خفتم عدم العدل ، ذلك أذنى إلى عدم العول .

بينما ذكرت «إن» التي هي حرف شرط مرتين ، كان فيهما فعل الشرط مذكوراً ، وكان فيهما جواب الشرط محذوفاً .

٧- ذكرت «ما» التي هي اسم موصول مرتين ، وأريد بها الصنف والنوع ، وكانت في الموضعين منصوبة .

إنها في الموضع الأول منصوبة على أنها مفعول به: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ .

وفي الموضع الثاني منصوبة لأنها معطوفة على مفعول به منصوب: ﴿فوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ . أي: انكحوا حرة واحدة ، أو أمة ملك اليمين .

٨- «أو» التي هي حرف عطف يدل على التخيير مذكورة في الآية مرتين:

في المرة الأولى لم تذكر صريحة ، إلا أنها دخلت ضمن الواو ، وضممتها الواو تضميناً ، كما وضخنا ذلك ، وذلك في قوله: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ﴾ .

وفي المرة الثانية ذُكرت صراحة ، وأريدَ بها التخييرُ الصريحُ الملزم ،
وذلك في قوله : ﴿ فَوَجِدْهُ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ . أي أنه مَنْ عَجَزَ عن الزواجِ
بالْحُرَّةِ ، فإنه يَجِبُ عليه الانتقالُ للخيارِ الثاني ، وهو الزواجُ بملكِ اليمينِ .

٩- بين العَدْلُ والعَوْلُ جناسٌ في اللفظ ، لكن بينهما تَصَادُفٌ في المعنى ،
فالْعَدْلُ هو القِسْطُ ، والعَوْلُ هو الجَوْرُ والظلمُ والميلُ .

إنهما حالتان متقابلتان لا تَجْتَمِعَانِ ، وإنهما خَطَأَنِ مُتْقَابِلَانِ مُتَوَازِيَانِ
لا يلتقيان ، فإمَّا عَدْلٌ وَإِمَّا عَوْلٌ .

والقرآنُ يريدُ نَفْيَ العَوْلِ : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ ، وَلَنْ يُنْفِيَ العَوْلُ
إِلَّا بِتَحْقِيقِ العَدْلِ ، فإذا لم يَتَّصِفْ بِتَصَرُّفِ المسلمِ بالعَدْلِ فقد وَقَعَ في
العولِ .

١٠- في الآيةِ مجموعةٌ من مظاهرِ الحذفِ اللطيفِ ، وهي كما يلي :

أ - حَذْفُ المضافِ في قوله : ﴿ فِي أَلْيَنَيْهِ ﴾ . والتقديرُ : في نكاحِ اليتامى .
ب - حَذْفُ جوابِ شرطٍ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ . والتقديرُ :
فلا تَنكحُوهُنَّ . أي : إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا في نكاحِ اليتامى فلا تَنكحُوهُنَّ
وانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ .

ج - حَذْفُ صفةِ «النساء» في قوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . أي :
فانكحوا ما طابَ لكم من النساءِ غيرِ اليتامى ؛ لأنَّ المرادَ بالنساءِ غيرِ اليتيماتِ
اللاتي يخافونَ عَدَمَ القسطِ فيهنَّ .

د - الصفاتُ الثلاثةُ : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَّةَ وَرِيعٌ ﴾ صفاتٌ معدولةٌ عن العددِ
والتكرارِ ؛ فكلُّ واحدةٍ منها بدلٌ عن كلمتينِ محذوفتينِ ، ومعنى قوله :
﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَّةَ وَرِيعٌ ﴾ : انكحوا النساءِ : اثنتينِ اثنتينِ ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً
أربعاً .

هـ - حَذْفُ ما تعلقَ به فعلٌ ﴿ أَلَّا لَعَلُّوا ﴾ . والتقديرُ : أَلَّا تعدلوا بينَ
نساءِكُمْ .

و - حَذَفُ جَوَابِ شَرْطٍ: ﴿فَإِنْ خَفَّتُمْ أَلَّا نَعْدِلُوا﴾. والتقدير: إِنْ خَفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا بَيْنَهُمْ فَلَا تَنْكُحُوهُمْ.

ز - حَذَفُ الْفَعْلِ وَالْفَاعِلِ وَإِبْقَاءُ الْمَفْعُولِ «فَوَاحِدَةً». والتقدير: فَانكحوا امرأةً حرةً واحدةً.

ح - حَذَفُ الْبَدَلِ مِنْ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَلِكَ﴾ بَعْدَهُ. والتقدير: ذَلِكَ الْحَكْمُ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَنْ لَا تَعُولُوا.

ط - حَذَفُ حَرْفِ «إِلَى» الدَاخِلِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمَصْدَرِيَّةِ: «أَلَّا تَعُولُوا». والتقدير: ذَلِكَ أَدْنَى إِلَيَّ أَنْ لَا تَعُولُوا.



الفصل الثاني

﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ ﴾

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِي أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

تتحدث الآية عن الخيـث والطيب ، وتُقرِّر عدم تساويهما في ميزان الله ، فالطيب هو الحسن ، وإن كان قليلاً ، والخيـث هو السيئ ، وإن كان كثيراً ، وكثرتُه قد تُعجبُ بعضَ الناس ، فيختارونه ويفضّلونه ، لكنّها لا تُعجبُ المسلمَ البصيرَ الواعي ، فيبقى مع الطيبِ القليل . وبما أنه لا يعرفُ هذه الحقيقة القرآنية إلا أولو الألباب وأصحابُ العقول الكبيرة ، فقد خاطبتهم الآية وحدهم ، وطالبتهم بتقوى الله والبقاء مع شرعه ومنهاجه ، لأنَّ هذا وحده طريقُ الفلاح والنور .

والخيـثُ والطيبُ أمرانِ مُتقابلان مُتمايزان ، ومُختلفان متضادان ، لا يُمكنُ أن يجتمعا معاً في الشيء الواحد ، في الوقت الواحد ، بمعنى أنه لا يُمكنُ أن يكونَ الشيءُ طيباً وخبثاً في الزمانِ الواحدِ والمكانِ الواحدِ ، لأنهما متناقضان ، ومعلومٌ أنَّ النقيضين لا يجتمعان!! .

و«الخيـثُ» و«الطيبُ» صِفَتان ، تُطلَقان على كُلِّ شيءٍ ، من الأقوالِ والأفعالِ ، والمبادئِ والأفكارِ ، والممارساتِ والتصرفاتِ . . .

«الخيـثُ» صفةٌ مشبَّهة ، على وزنِ «فَعِيل» ، مشتقةٌ من الفعلِ الماضي الثلاثي: «خَبِثَ» . تقول: خَبِثُ ، يَخْبِثُ ، خُبْثًا ، فهو خَبِيثٌ . ومعنى قولك: خَبِثَ الشيءُ: صارَ فاسداً رديئاً مَكْرُوهاً .

قَالَ الْإِمَامُ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «الْخُبْتُ وَالْخَيْثُ: مَا يُكْرَهُ رَدَاءَةٌ وَخَسَاسَةٌ، مَحْسُوسًا كَانَ أَوْ مَعْقُولًا، وَأَصْلُهُ الرَّدِيءُ الدُّخْلَةُ، الْجَارِي مَجْزِي خَبَثِ الْحَدِيدِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

سَبَكْنَاهُ وَنَحَسْبُهُ لُجَيْنًا فَأَبْدَى الْكَبِيرُ عَن خَبَثِ الْحَدِيدِ
وَذَلِكَ يَتَنَاوَلُ الْبَاطِلَ فِي الْإِعْتِقَادِ، وَالْكَذِبَ فِي الْمَقَالِ، وَالْقَبِيحَ فِي الْفِعَالِ»^(١).

أَيُّ أَنَّ الْخَيْثَ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ رَدِيءٍ خَسِيسٍ مَكْرُوهٍ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْخَيْثُ شَيْئًا مَادِيًّا مَحْسُوسًا مَجَسَّمًا، كَطَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ، وَقَدْ يَكُونُ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا مَعْقُولًا، كَمَبْدَأٍ أَوْ تَصَوُّرٍ أَوْ فِكْرَةٍ.

وَاعْتَبَرَ الْإِمَامُ الرَّاعِبُ الْخَيْثَ شَامِلًا لِثَلَاثَةِ جَوَانِبٍ: اعْتِقَادَ بَاطِلٍ، أَوْ قَوْلَ كَاذِبٍ، أَوْ فِعْلَ قَبِيحٍ.

وَهَذَا الْخَيْثُ حَرَامٌ، حَرَّمَهُ اللَّهُ، وَدَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْإِمْتِنَاعِ عَنْهُ، لِرَدَاءَتِهِ وَخِسَّتِهِ وَسُوِّئِهِ وَفَسَادِهِ.

و«الطَّيِّبُ» فِي مِقَابِلِ الْخَيْثِ؛ وَهُوَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ عَلَى وَزْنِ «فَيْعِلٌ»، مُشْتَقٌّ مِنَ الْفِعْلِ الثَّلَاثِيِّ «طَابَ»؛ تَقُولُ: طَابَ، يَطِيبُ، طَيِّبًا، فَهُوَ طَيِّبٌ؛ أَيُّ: زَكَا وَطَهَّرَ، وَجَادَ وَحَسَّنَ، وَلَدَّدَ وَأَمْتَعَ، وَصَارَ حَلَالًا.

جَاءَ فِي الْمَعْجَمِ الْوَسِيطِ عَنِ الطَّيِّبِ: «الطَّيِّبُ: مَا يُطَيَّبُ بِهِ مِنْ عِطْرِ وَنَحْوِهِ.. وَكُلُّ مَا تَسْتَلِدُّهُ الْحَوَاسُّ أَوْ النَفْسُ، وَكُلُّ مَا خَلَا مِنَ الْأَذَى وَالْخُبَثِ، وَكُلُّ مَنْ تَخَلَّى عَنِ الرَّذَائِلِ، وَتَخَلَّى بِالْفَضَائِلِ»^(٢).

وَقَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: «أَصْلُ الطَّيِّبِ: مَا تَسْتَلِدُّهُ الْحَوَاسُّ، وَمَا تَسْتَلِدُّهُ النَفْسُ.. وَالطَّعَامُ الطَّيِّبُ فِي الشَّرْعِ: مَا كَانَ مُتَنَاوِلًا مِنْ حَيْثُ مَا يَجُوزُ، وَمِنْ الْمَكَانِ الَّذِي يَجُوزُ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ كَذَلِكَ كَانَ طَيِّبًا عَاجِلًا وَآجِلًا... وَالطَّيِّبُ مِنَ الْإِنْسَانِ: مَنْ تَعَرَّى مِنْ نَجَاسَةِ الْجَهْلِ وَالْفِسْقِ وَقَبَائِحِ

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٢٧٢.

(٢) المعجم الوسيط، ص ٥٧٣.

الأعمال ، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال»^(١) .
الطيبُّ هو كلُّ ما كانَ حَسَنًا مَرْغوبًا لذيذًا مطلوبًا ، خاليًا من الأذى والضَّرر ، والمفاسدِ والخبائثِ والقبايحِ .

والطيبُّ قد يكونُ ماديًّا مَحسوسًا ، كالطعامِ والشرابِ واللباسِ والعِطْرِ ، وقد يكونُ معنويًّا كالأفكارِ والمبادئِ ، والأقوالِ والكلماتِ . . وقد ينتقلُ من الأفكارِ والأقوالِ والأفعالِ إلى أصحابها . فيقال : هذا مسلمٌ طيبٌ ، وهو الذي اتَّصَفَ بالطيبِ من الاعتقادِ أو القولِ أو الفعلِ .

بعدَ معرفةِ معنى «الطيبِّ» و«الخبِيثِ» ، نَقَفُ مع جُمَلِ الآيةِ ، التي قرَّرتْ عدمَ استوائهما .

تتكوَّنُ الآيةُ من الجُمَلِ التاليةِ :

١ - قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ :

﴿ قُلْ ﴾ : فعلٌ أمرٌ . والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُهُ «أنت» .

الأمرُ هو الله سبحانه وتعالى ، والمأمورُ - وهو الفاعلُ - عامٌّ ، ينصرفُ في المقامِ الأوَّلِ إلى رسولِ الله ﷺ ، أي : قُلْ يا محمدُ للناسِ : لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ والطيبُ .

ولكنَّهُ ليس خاصًّا بالرسولِ ﷺ ، وإنما هو عامٌّ ، يشمَلُ كلَّ مسلمٍ من بعده ، من العلماءِ والدعاةِ والخطباءِ ، الذين يمكنُ أن يقولوا . فاللهُ يأمرُ كلَّ عالمٍ وداعيةٍ وخطيبٍ قائلًا له : قُلْ للناسِ من حولك : لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ والطيبُ .

وفي عمليةِ «القولِ» أطرافٌ ثلاثةٌ : القائلُ ، والمَقولُ له ، والقولُ نفسه .

القائلُ : هو الرسولُ ﷺ ، وكلُّ مسلمٍ قائلٍ داعيةٍ من بعده .

المَقولُ له : هو الطرفُ الآخرُ الذي يوجَّهُ له القولُ ، وهو كلُّ إنسانٍ يُمكنُ أن يَسْمَعَ القولَ ، وهو محذوفٌ في الآيةِ . والتقديرُ : قُلْ «لَهُ» . أي : قُلْ لأَيِّ إنسانٍ . وحكمةُ حذفِهِ هي العمومُ والشمولُ ، ليدخلَ فيه كلُّ إنسانٍ .

(١) مفردات ألفاظ القرآن ، ص ٥٢٧ .

القول: وهو الجملة التي يجب أن يقولها ، وهي المذكورة في الآية: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ .

ما هي الحقيقة القاطعة الصادقة ، التي يجب أن يقولها كل قائلٍ واعٍ بصيرٍ؟ .

إنها عدم استواء الخبيث والطيب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ .

﴿يَسْتَوِي﴾: فعلٌ مضارع. الماضي منه خُماسِي: «استوى» ، وهو مزيدٌ بحرفين: الهمزة وتاء الافتعال. الثلاثي منه: سَوَى .

تقول: سَوَى الشيء. أي: استقام وصلح.

وإذا استعمل الخماسي «استوى» في طرفين ، كان بمعنى التساوي والمساواة ؛ تقول: استوى فلانٌ وفلانٌ في الطول ؛ أي: تساويا في الطول ، وكانا على طولٍ واحد .

والطرفان اللذان لا يستويان ولا يتساويان هما: الخبيث والطيب .

الخبيث هو المكروه المرذول الفاسد الرديء الخسيس ، من الأفكار والأقوال والأفعال والأشخاص . والطيب هو المحبوب المرغوب المطلوب الحسن الممتع المستلذ ، من الأفكار والأقوال والأفعال والأشخاص .

إنهما متضادان متقابلان ، ومختلفان متناقضان ، لا يمكن أن يلتقيا ، ولا أن يجتمعا ، ولا أن يستويا أو يتساويا! .

لماذا لا يستوي ولا يتساوى الخبيث والطيب؟ .

لأنَّ الخير لا يتساوى مع الشر ، والحق لا يتساوى مع الباطل ، والهدى لا يتساوى مع الضلال ، والإيمان لا يتساوى مع الكفر ، والمؤمن لا يتساوى مع الكافر ، والمُحسن لا يتساوى مع المسيء . . وهكذا كلُّ طرفين متقابلين من الأفكار والأقوال والأفعال .

الطيب: شريفٌ عالٍ سام ، عزيزٌ كريمٌ طاهر . . والخبيث: هابطٌ سافلٌ متدنٍّ ، ذليلٌ هينٌ ساقط . . وكلما زاد الطيبُ سُمُوًّا وارتفاعاً ، زاد الخبيثُ هبوطاً وسقوطاً . . وكلما زاد الطيبُ طهارةً وزكاةً وإشراقاً ، زاد الخبيثُ

رجساً ونجاسةً وظلاماً.. فكيف يتساويان عند سليم القلب ، كبير العقل ، طاهر الفطرة؟

هل لا يستوي الخبيث والطيب عند كل الناس؟

الجواب بالنفي . إنهما لا يتويان عند فريقٍ مخصوصٍ من الناس ، وهم المؤمنون أولو الألباب ، المستقيمون على شرع الله .

ولكنَّ الخبيث والطيب يتويان عند فريقٍ آخرٍ من الناس ؛ وهم الذين اختلَّت نظراتهم ، وفسدت موازينهم ، فتساوى عندهم الخيرُ والشرُّ .

والمصيبةُ عند فريقٍ ثالثٍ من الناس ، الذين انقلبت عندهم الأشياءُ ، فصارَ الخبيثُ عندهم هو الأفضل ، وصارَ الطيبُ هو الأسوأ ، واختاروا الخبيث ، وتركوا الطيب .

إنَّ الناسَ بالنسبةِ للخبيثِ والطيبِ ثلاثةُ أصنافٍ :

الصف الأول : المؤمنون الصالحون أولو الألباب : لم يتساو عندهم الخبيثُ والطيبُ ، لكرمِ الطيبِ وشرفه ، وسوءِ الخبيثِ ونجاسته .

الصف الثاني : الذين اضطربت عندهم الحقائقُ والموازن ، فاستوى عندهم الخبيثُ والطيبُ ، وصاروا بدرجةٍ واحدة .

الصف الثالث : المنحرفون الضالون ، المتبعون للأهواء والشهوات ، لم يتساو عندهم الخبيثُ والطيبُ ؛ لأنَّ الخبيثَ هو الأفضلُ المقبولُ المطلوبُ ، ولأنَّ الطيبَ هو السيئُ المرذولُ المهجورُ المتروكُ !! .

ومعنى هذا أنه تختلفُ النظرةُ إلى الطيبِ والخبيثِ ، بحسبِ اختلافِ أصحابها ، الذين يظنونَ بها ، ويختلفُ تقييمُ الطيبِ والخبيثِ ، بحسبِ اختلافِ الميزانِ الذي يوزنُ به كلُّ منهما .

لا يستوي الطيبُ والخبيثُ في ميزانِ الله ، ولا في شرعِ الله ودينه ، ولا عندَ المسلمين الصادقين ، الملتزمين بدينِ الله ، المنطلقين من منهاجِ الله .

أما في الموازين الجاهلية ، وعند أصحابها الجاهليين فإن الطيبَ يتساوى

مع الخبيث!! وكثيراً ما يَسْمُو وَيَعْلُو الخبيث على الطيب ، وَيَفْضُلُ الخبيثُ على الطيبِ عند هؤلاء الجاهليين!! .

وأوضح ما يكون هذا الوضع الجاهلي الشاذُّ وُجوداً في هذا العصر ، الذي أقصي فيه الإسلام عن المجتمعات ، وتَحَكَّمَتْ فيه الجاهلية في العالم ، وانتشرت فيه قِيمٌ وتصرفات الجاهلية في العالم . . حيثُ وَجَدْنَا محاربةً شديدةً للطيب ، ووجدنا انتشاراً واسعاً للخبيث ، وصارَ الطيبُ قليلاً نادراً مُطَارِداً ، وصارَ الخبيثُ عامّاً شامِلاً ، وطوفاناً جارفاً . . .

في هذا الجوّ الجاهليِّ صارَ الخبيثُ أفضلَ وأحسنَ من الطيبِ ، وصارَ هو المرغوبَ المطلوبَ المحبوبَ المقبولَ . . وصارَ الطيبُ مَنبوذاً متروكاً مُحارِباً!! . والله المستعان!! .

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾:

هذه الجملة معطوفة على الجملة الفعلية السابقة ، وداخله ضمنَ القول الذي أَمَرَ أَنْ يَقُولَهُ القائلون للآخرين: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ .

وهي جملة شرطية: ﴿وَلَوْ﴾ : حرفُ شرط . و﴿أَعْجَبَكَ﴾ : فعلٌ ماضٍ والكافُ في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به مقدّم . و﴿كَثْرَةُ﴾ : فاعلٌ مؤخر . و﴿الْخَبِيثِ﴾ : مضافٌ إليه . وجملة: ﴿أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ : فعلُ الشرط . وجوابُ الشرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبله . تقديرُه: لا يَسْتَوِي مع الطيبِ . فتكون الجملة الشرطية هكذا: لو أعجبك كثرةُ الخبيثِ فلا يستوي مع الطيبِ .

والمخاطبُ في ﴿أَعْجَبَكَ﴾ هو أيُّ إنسانٍ مَوْجَه له القول؛ فالرسولُ ﷺ يقولُ لكلِّ إنسانٍ: لا يَسْتَوِي الخبيثُ والطيبُ . . ولو أعجبك كثرةُ الخبيثِ فلن يَسْتَوِي مع الطيبِ . . وكلُّ عالمٍ أو داعيةٍ يقولُ هذا القولَ نفسَه للمقول له في زمانه .

و﴿كَثْرَةُ﴾ : مَصْدَر . فعلُه الماضي «كَثُرَ» . تقول: كَثُرَ ، يَكْثُرُ ، كَثْرَةٌ . والكثرةُ هي الزيادةُ في العَدَد ، والانتشارُ والتوسُّعُ ، يُقابِلُها القَلَّةُ .

وإسنادُ الفعلِ الماضي ﴿أَعْجَبَكَ﴾ إلى ﴿كَثْرَةً﴾ مقصود ، لأنَّ الإعجابَ هو الرِّضا والقبولُ والانخداع ، فإذا أعجبَ الإنسانُ بالشيءِ فإنه يميلُ إليه ويرغبُ فيه ويطلبه .

ولا يكونُ الخبيثُ كثيراً منتشراً ، إلا في عصرٍ اختلالِ الموازين ، وتَحكُّمِ الباطلِ ، وانتفاشِ الجاهليةِ ، وانتشارِ قِيمِها ومبادئها وأعرافها وسلوكياتها . . ولا يكثرُ الخبيثُ وينتشرُ إلا على حسابِ الطيبِ ، الذي يكونُ مُحارَباً مطَّارداً مَقْصِياً ، ويكونُ قليلاً نادراً في هذا الجوّ الفاسدِ الموبوءِ ! .

وتدلُّ هذه الجملةُ ﴿أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ على إشارةٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ ، وهي أَنَّ كثيرينَ يستمدِّون قِيمَهُم وموازينَهُم من المجتمع الذي يعيشون فيه . . فإنَّ عاشوا في مجتمعٍ إسلاميٍّ طاهرٍ كثرَ فيه الطيبُ ، أعجبتهُم كثرةُ الطيبِ ، وأخذوا به وفضَّلوه وأختاروه على الخبيثِ ، وهم لم يأخذوا به لأنه طيبٌ في نفسه ، وإنما لأنه كثيرٌ مشهورٌ منتشرٌ !! وإذا عاشوا في مجتمعٍ جاهليٍّ كثرَ فيه الخبيثُ ، أعجبتهُم كثرةُ الخبيثِ ، وأختاروه على الطيبِ وفعلوه ، لأنه منتشرٌ مشهورٌ !! فتغيَّرَ نظره هؤلاء للطيبِ والخبيثِ حسبَ العُرفِ العامِّ ؛ بالأمرِ يفعلون الطيبَ لأنه منتشرٌ ، واليومَ يفعلون الخبيثَ لأنه منتشرٌ !! وبذلك يفعلون في تناقضٍ مرذولٍ .

هؤلاء مذمومون ، كلُّ واحدٍ منهم «إمعة» ! ونهى رسولُ الله ﷺ كلَّ مسلمٍ أن يكونَ مثله ، وذلك في قوله : «لا يَكُنْ أحدكم إمعة ، يقولُ : أنا مع الناسِ ، إن أحسنَ النَّاسُ أحسنت ، وإن أساؤوا أسأتُ . . ولكن واطنوا أنفسكم ، إن أحسنَ النَّاسُ أن تُحسِنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتَهُم» !! .

وقد فسَّرَ الحديثُ الإمعةَ بأنه الذي مع الناسِ : «لا يَكُنْ أحدكم إمعة ، يقولُ : أنا مع الناسِ» . أي : أن «إمعة» اختصارُ جملةٍ : «أنا معه» !! .

الخطابُ في جملةٍ : ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ للإنسانِ الواعي البصيرِ ، الذي لا يتأثرُ بكثرةِ الخبيثِ ، ولو أعجبتهُ كثرتهُ .

إنَّ الذي لا يتأثرُ بكثرةِ الخبيثِ وانتشاره بين الناسِ ، هو المؤمنُ الملتزمُ بالقرآنِ ، الذي يَرِنُ كُلُّ شيءٍ بميزانِ الله ، ويُعطي الأشياءَ وزنها وقيمتها من

ميزانِ الله ومنهاجه! الطَّيِّبُ عنده يَتَّقَى طَيِّباً ، ولو هَجَرَه كُلُّ النَّاسِ ، وَالْخَبِيثُ عنده يَتَّقَى خَبِيثاً مَتْرُوكاً مَهْجُوراً ، ولو فعله كُلُّ النَّاسِ . إِنَّه ثَابِتٌ عَلَى الْحَقِّ لِأَنَّهُ يَنْطَلِقُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى فِي الْآيَةِ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ .

وفي الجملة: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ إشارةٌ أُخْرَى ، هِيَ أَنَّ كَثْرَةَ الْخَبِيثِ وِانتِشَارَهُ تُعْجِبُ كَثِيرِينَ مِنَ النَّاسِ ، وَتُؤَثِّرُ فِي نِظَرَاتِهِمْ وَسُلُوكِيَاتِهِمْ وَقَرَارَاتِهِمْ ، وَتَخْدَعُهُمْ وَتُلَبِّسُ الْأُمُورَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا يَنْجُو مِنْ هَذَا الْمَرَضِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ .

٣ - قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ :

هذه الجملة نتيجةٌ للجملتين السابقتين ، وجاءَ فيها التوجيهُ من الله للمؤمنين في الوقتِ المناسبِ ، فَإِذَا كَانَ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ ، وَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ يَتَّقَى تَارِكاً لِلْخَبِيثِ حَتَّى لَوْ انْتَشَرَ وَأَعْجَبَتْ كَثْرَتُهُ كَثِيرِينَ ، فَعَلَى أُولِي الْأَلْبَابِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ ، وَيَثْبُتُوا عَلَى الْحَقِّ ، لِيُفْلِحُوا وَيَفُوزُوا .

الفاء في جملة: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تُسَمَّى «فَاءَ الْفَصِيحَةِ» ؛ وَهِيَ الْفَاءُ الَّتِي تُفْصَحُ عَنْ جُمْلَةٍ مُقَدَّرَةٍ ، وَتُرْشَدُ إِلَيْهَا ، وَالْجُمْلَةُ الْمُقَدَّرَةُ فَعَلُ شَرْطٍ ، لِأَدَاةِ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ ، وَالْفَاءُ الْفَصِيحَةُ دَاخِلَةٌ عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ . وَالتَّقْدِيرُ: إِذَا عَرَفْتُمْ هَذَا فَالْتَزِمُوا بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ .

وَاللَّافَتْ لِلنَّظَرِ أَنْ تَوْجِيهَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ كَانَ أَمْرًا لَهُمْ بِتَقْوَاهِ ، فَمَا هِيَ الصَّلَةُ بَيْنَ التَّقْوَى وَبَيْنَ عَدَمِ تَسَاوِيِ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ؟ فَعَدَمُ تَسَاوِيِهِمَا مَسْأَلَةٌ فِكْرِيَّةٌ نِظْرِيَّةٌ تَصَوْرِيَّةٌ ، وَالتَّقْوَى حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ ، يَنْتُجُ عَنْهَا سُلُوكٌ عَمَلِيٌّ! فَمَا هِيَ الصَّلَةُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ؟ .

إِنَّ الصَّلَةَ هِيَ الْارْتِبَاطُ بَيْنَ الْأَفْكَارِ وَالتَّصَوُّرَاتِ ، وَبَيْنَ السُّلُوكِيَّاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ ، عَلَى أَنَّ الْأَفْكَارَ النَّظْرِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَقْوَدَ إِلَى السُّلُوكِيَّاتِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَتُوجِّهَ التَّصَرُّفَاتِ وَالْأَقْوَالَ وَالْأَفْعَالَ .

إِنَّ الْإِعْتِقَادَ الْجَازِمَ بِعَدَمِ تَسَاوِيِ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ ، يَدْفَعُ الْمُؤْمِنَ إِلَى عَدَمِ الْإِعْجَابِ وَالتَّأَثُّرِ بِالْخَبِيثِ ، مَهْمَا كَثُرَ وَانْتَشَرَ ، وَإِلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ مَهْمَا قَلَّ أَنْصَارُهُ . . وَالَّذِي يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ ، وَحُسْنُ مِرَاقَبَتِهِ ،

والحرصُ على فعلٍ ما يُرضيه ، وتَرْكُ ما يُسخطه! ولذلك جاءَ التوجيهُ الربانيُّ
أمرًا للمؤمنين بتقوى الله .

والمأمورونَ بالتقوى هم المؤمنون الصالحون ، وقد ناداهم الله واصفًا
إياهم بصفة لطيفة ذات دلالة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

﴿ يَا ﴾ : حرفُ نداء . و﴿ أُولِي ﴾ : منادى منصوبٌ لأنه مضاف .
و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ : مضافٌ إليه . وجملةُ النداءِ ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ جملةٌ
معتزلة ، بينَ جملةٍ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، وجملةٍ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ .

و﴿ أُولِي ﴾ : بمعنى أصحاب . وهي لفظٌ ملحقٌ بجمع المذكر السالم ،
فِيْرْفَعُ بالواو ، وَيُنْصَبُ وَيَجْرُ بالياء . وهو لا مُفْرَدَ له من لفظه ، فلا يُسْتَعْمَلُ
إِلَّا جَمْعًا ، وإذا أُريدَ المفردُ جيءَ بلفظِ «ذو» ، الذي هو بمعنى «صاحب» ،
وهو من الأسماء الخمسة . فالمفردُ «ذو» لا جمع له من لفظه ، والجمعُ
«أولو» لا مفرد له من لفظه .

و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ جمعُ «لُبِّ» ، وهو العقلُ ، و«لُبِّ» الشيء : داخله ،
والعقلُ «لُبٌّ» لهذا الاعتبار .

قال الإمامُ الراغب : «اللُّبُّ : العقلُ الخالصُ من الشوائب ، وسُمِّيَ بذلك
لكونه خالصًا ما في الإنسان من معانيه ، كاللُّبابِ واللُّبِّ من الشيء . . . وقيل :
هو ما زكا من العقل ، فكلُّ لُبِّ عَقْلٌ ، وليسَ كلُّ عَقْلٍ لُبًّا ، ولهذا علقَ الله
الأحكامَ التي لا تُدرِكُها إلاَّ العقولُ الزكيةُ بأولي الألباب»^(١) .

و﴿ الْأَلْبَابِ ﴾ لم ترد في القرآن إلاَّ جمعًا .

وحكمةُ ذكرِ الجملةِ المعتزلةِ ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، ونداءُ المؤمنين
المتقين بها الإشارةُ إلى دَوْرِ الألبابِ والعقولِ الزكيةِ في تقوى الله ، والثباتِ
على الحقِّ ، وعدمِ الانخداعِ بالخبيثِ الكثيرِ .

أَيَّ أَنَّ عَدَمَ تساوي الخبيثِ والطيبِ يَحْتَاجُ إِلَى لُبِّ زَكِيٍّ ، وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ ،
ووعْيٍ بَصِيرٍ ، لِأَنَّ هَذَا اللَّبُّ وَالوَعْيُ هُوَ الَّذِي يُحَسِّنُ المِقَارَنَةَ بَيْنَ الخَبِيثِ

(١) المفردات ، ص ٧٣٣ .

والطيب ، وهو لا يُمكنُ أَنْ يَخْتَارَ الخبيثَ وَإِنْ كَانَ كثيراً . . . فالمسألةُ لا تُحسِنُ فَهَمَهَا إِلَّا الألبابُ والعقولُ والبصائر ، ولذلك نادى الله المؤمنين بهذه الصفة .

وجملة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : تعليلٌ للأمر بالتقوى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ . . . لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . . .

أَيَّ أَنَّ اللهَ أَمَرَنَا بتقواه كي نُفْلِحَ ونَنْجَحَ ونَفُوزَ . . . ومعنى هذا أنه لا يمكنُ للمؤمنِ أَنْ يَصَلَ إلى الفلاحِ إِلَّا عن طريقِ التقوى . فالذين يَتَّقُونَ اللهَ وَيُتَّبِعُونَ على الحَقِّ يُفْلِحُونَ ، والذين لا يَتَّقُونَ اللهَ لا يُفْلِحُونَ .

والفلاحُ هو النجاحُ وتحقيقُ الغاية ، والظفرُ بالمطلوب .

والأصلُ في «لَعَلَّ» أنها للتَّرَجِّي ، تقول : ادرسْ لَعَلَّكَ تَنْجَحَ . فأنتَ تَرجو له النجاحَ ، ولكنك لا تَجزمُ به ، لأنك لا تعلمُ المستقبل .

فإذا دخلت «لَعَلَّ» على جملةٍ أخبرَ بها الله ، فإنها لا تدلُّ على التَّرَجِّي ، وإنما تدلُّ على الجزمِ واليقين ، لأنَّ اللهَ لا يَرجو ولا يتوقَّع ، وإنما هو يَجزمُ جزماً ، لأنه أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً ، في الماضي والحاضرِ والمستقبل .

من لطائف الآية :

من أروع اللطائفِ التي يُمكنُ أَنْ تُؤخَذَ من الآية :

١- الفعلُ المضارعُ ﴿ يَسْتَوِي ﴾ بمعنى «يَسَاوِي» . والماضي من الأولِ خُماسي : «اسْتَوَى» ، على وَزْنِ «افْتَعَلَ» ، والتاءُ فيه تُسَمَّى «تاءَ الافتعال» . والماضي من الثاني خُماسي : «تَسَاوَى» ، على وَزْنِ «تَفَاعَلَ» ، والألفُ فيه تُسَمَّى «ألفَ المفاعلة» .

وأوثرَ ﴿ يَسْتَوِي ﴾ على «يَسَاوَى» لما فيه من تاءِ الافتعال ، الدالَّةُ على الحيويةِ والتفاعل ، وهذا أبلغُ في هذا المقامِ من أَلِفِ المفاعلة ، لأنَّ أَلِفَ المفاعلةِ تدلُّ على المسابقةِ والمشاركة ، وهذا غيرُ مُرادٍ هنا ، إنما المرادُ أَنَّ الخبيثَ لا يَسْتَوِي ولا يَزْتَقِي إلى مستوى الطيبِ ، فمهما كَثَرَ الخبيثُ وانتشر فإنه لا يَسْتَوِي إلى مستوى الطيبِ الرفيعِ السامي !! .

٢- في الآية خطابان للمفرد: خطابٌ لفاعلِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ ، وخطابٌ للمفعولِ به في ﴿أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ . والخطابانِ لَيْسَا مترادفينِ ، لا في المخاطبِ ، ولا في المخاطبِ .

المخاطبُ في ﴿قُلْ﴾ هو الله الأمرُ . والمخاطبُ هو الرسولُ ﷺ ، وكُلُّ عالمٍ من بعده ، وهو المأمورُ بأن يقولَ ذلك القولِ .

أما المخاطبُ في ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فهو الرسولُ ﷺ ومن بعده ، والمخاطبُ هو كُلُّ مَنْ يُمكنُ أَنْ يُوَجَّهَ له الخطابُ .

واللَّطِيفُ أَنَّ المخاطبَ في الجملةِ الأولى صارَ مخاطباً في الجملةِ الثانيةِ . وتحوَّلَ مَنْ مُكَلِّفٍ بالخطابِ إلى مُبَلِّغٍ لما كُلفَ به ، ومُنْفَذٍ لما أمرَ به .

٣- يجمعُ بينَ الكلمتينِ ﴿الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ﴾ أَنَّ كِلَاً منهما صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ ، والصفةُ المُشَبَّهَةُ هي الصفةُ الملازمةُ للموصوفِ ، بحيثُ لا تُفارقُه ولا تَنفَكُ عنه ، وللصفةِ المُشَبَّهَةِ عِدَّةٌ أوزانُ .

واللَّطِيفُ أَنَّ كُلَّ واحدةٍ من الكلمتينِ على وَزْنٍ خاصٍّ من أوزانِ الصفةِ المُشَبَّهَةِ :

﴿الْخَبِيثِ﴾ على وَزْنِ «فَعِيل» . ﴿وَالطَّيِّبِ﴾ على وَزْنِ «فَعِيل» .

«فَعِيلٌ» أَبلِغٌ وآكَدٌ من «فَعِيلٍ» ، والكلمةُ التي على وزنها أَبلِغٌ وآكَدٌ .

واللَّطِيفُ في الآيةِ أَنَّها أوردتِ «الطَّيِّبِ» على وَزْنِ أَبلِغٌ وآكَدٌ وأفضَلَ من وَزْنِ «الْخَبِيثِ» . أَي أَنَّ «الْخَبِيثِ» لا يَسْتَوِي مع «الطَّيِّبِ» في كُلِّ شيءٍ ، حتى في «مِيزَانِهِ الصَّرْفِيَّ» ! إِنَّ «الطَّيِّبِ» ارتَقَى وتسامى حتى في مِيزَانِهِ «فَعِيلٌ» ، وبَقِيَ «الْخَبِيثِ» دونَه في كُلِّ شيءٍ ، حتى في مِيزَانِهِ «فَعِيلٌ» !! .

٤- في الآيةِ حذفانِ لطيفانِ :

الحذفُ الأوَّلُ: حَذَفُ جوابِ الشرطِ ، في جملةِ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ ، والتقديرُ: ولو أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيثِ فلا يَسْتَوِي مع الطَّيِّبِ .

الحذفُ الثاني: حَذَفُ فعلِ الشرطِ ، الذي أشارتْ له الفاءُ الفصيحةُ :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ . والتقديرُ: إذا عرفتم عدم استواء الخبيث والطيب فاتقوا الله
وألزموا الطيب .

واللطف أن الحذفين في جملتين شرطيتين متجاوزتين: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ
الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

واللطف أن بين الحذفين «تناوباً» ؛ فوقع الحذف على جواب الشرط في
الجملة الأولى ، ثم انتقل هذا الحذف إلى فعل الشرط في الجملة الثانية !!

٥ - وقعت الفاء الفصيحة في الآية في موقعها اللطيف ، حيث أدخلت
على جواب الشرط ، وأفصحت عن فعل شرط محذوف ، وأشارت إليه .

٦ - في الآية انتقال لطيف من الفرد إلى الجماعة في الخطاب :

القسم الأول من الآية خطاب للمفرد: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ
أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ .

القسم الثاني من الآية خطاب للجماعة: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴾ .

وفي هذا الانتقال إلى الجماعة إشارة إلى الطبيعة الجماعية لهذا الدين .

٧ - في الآية صيغتا جمع لا مفرد لهما في القرآن: ﴿ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ ،
واجتمعاً معاً ، وأضيف أولهما إلى ثانيهما ، وهذا من لطائف المجاورة
والإضافة .

٨ - في الآية فعلان ماضيهما خماسي :

الأول: ﴿ يَسْتَوِي ﴾ . ماضيه «استوى» بقاء الافتعال ، على وزن «افتعل» .

الثاني: الأمر ﴿ فَاتَّقُوا ﴾ . ماضيه «اتقى» ، بقاء الافتعال ، على وزن
«افتعل» لأن ثلاثيته «وقى» ، وأصل ماضيه: «أوتقى» ، ولما أدمغت الواو في
التاء صار «اتقى» .

واللطف أن الفعل الأول خبري منفي: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ ﴾ . والفعل
الثاني طلبي مثبت: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

من أهم دلالات الآية:

١- الطيبُ والخبيثُ في الآية لفظان عامان ، شاملان لكل المعاني التي يدلان عليها ، والواجبُ عدمُ صرْفهما عن هذا العموم والشمول ، لعدم وجود دليل على ذلك . إنهما يتطبقان على كل طيبٍ وخبيثٍ ، من الأفكارِ والأقوالِ والأعمالِ والأشخاصِ .

٢- الخبيثُ يدلُّ على معناه ، بحروفه وجزسه وإيقاعه ؛ إنه الرديءُ الفاسدُ الكريهُ الحَسيسُ ، تمثّل فيه السوءُ بكلِّ جوانبه ؛ فالخبيثُ هو السيِّئُ .

والطيبُ يدلُّ على معناه ، بحروفه وجزسه وإيقاعه ، وهو المرغوبُ المطلوبُ اللذيذُ ، الخالي من الأذى والضّررِ ، تمثّل فيه الحَسَنُ بكلِّ جوانبه ، فالطيبُ هو الحَسَنُ .

٣- الخبيثُ والطيبُ أمرانِ متقابلان ، وهما مُختلفان متضادان ، وخطّانِ مُتمايزان مُفترقان ، لا يُمكنُ أن يلتقيا في منتصفِ الطريقِ ، ولا يُمكنُ أن يجتمعا معاً ليكونا صفتين لموصوفٍ واحدٍ ؛ أي أنه يستحيلُ أن يكونَ الشيءُ أو الشخصُ خبيثاً وطيباً في الوقت نفسه .

٤- الحقيقةُ القرآنيةُ القاطعةُ أنّ الخبيثَ مهما كثرَ وانتشر ، فإنه لا يُمكنُ أن يرتقي إلى مُستوى الطيبِ ، ولا يُمكنُ أن يستوي معه في منزلةٍ واحدة .

وبما أنه لا يستوي معه في ميزانِ الله ، فلا يجوزُ أن يستوي معه في تصوُّرِ المسلمِ ؛ أي أنّ الطيبَ عند المسلمِ يجبُ أن يكونَ في المنزلةِ الأعلى ، والخبيثَ لا بدُّ أن يكونَ في الحضيضِ .

٥- الذين يُخالفونَ منهجَ الله يقعون في خطأ النظرِ والوزنِ والتقويمِ والاختيارِ ، فمنهم من يخلطُ الخبيثَ بالطيبِ ، ومنهم من يُساوي الخبيثَ بالطيبِ ، والأقبحُ منهم هو الذي يرفعُ ويُفضّلُ الخبيثَ ، ويطرَحُ ويُذني الطيبَ ! وتفضيلُ الخبيثِ على الطيبِ من أهمِّ صفاتِ هذا الزمانِ ، الذي تحكمت فيه الجاهليةُ .

٦- غالباً ما يكونُ الخبيثُ أكثرَ من الطيبِ في حياةِ البشرية ، على مستوى الأفكارِ والأقوالِ والأفعالِ والأشخاصِ ، ويكونُ الطيبُ من هذه الأصنافِ

قليلاً نادراً. وذلك بسبب الصفة العامة للبشرية ، التي تُفَضَّلُ - في عمومها - الخبيثَ والسَيِّئَ ، والانحرافَ والضلالَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] .

فلا غرابة أن يكثر الخبيثُ ويقلَّ الطيبُ في هذه البيئة ، ووسطَ هذه الأَكْثَرِيَّةِ .

٧- معظمُ الناسِ مُعْجَبُونَ بالخبيثِ ، لأنه أكثرُ من الطيبِ ، ومقياسُ النظرِ عندهم هو العمومُ والكثرةُ ، والانتشارُ والتوسُّعُ ، فهم لا يُلْحَظُونَ ما فيه من خبثِ كَرِيهِ ، وسوءِ رَدِيءٍ ، إنما يُلْحَظُونَ انتشاره ، وإقبالَ أَكْثَرِيَّةِ الناسِ عليه .

إن هؤلاء خاضعون لمنطق الأغلبيَّةِ والأَكْثَرِيَّةِ ، ويتأثرون بما عليه الغالبيةُ ، ويرضون بما عليه الأَكْثَرِيَّةِ ولا يُهَمُّهم بعدَ ذلك أن يكونَ هذا خبيثاً أو طيباً!

٨- المؤمنون المتَّقون ثابتون على الحَقِّ رَغْمَ انتفاشِ الباطلِ ، وهم مع الطيبِ رَغْمَ قِلَّتِهِ وندرتِهِ ، وهم تاركون للخبيثِ ، كارهون له رَغْمَ انتشاره .

وهذا موقفٌ عظيمٌ لهم ، يُحْمَدُونَ عليه ، فهم لا يَخْضَعُونَ في نظراتِهِم واختياراتِهِم للعرفِ أو العادةِ ، أو رأيِ الأغلبيَّةِ والأَكْثَرِيَّةِ ، إنما هم يَخْضَعُونَ لحكمِ اللهِ وشرعِهِ ومنهاجِهِ ، فما وافقَهُ فهو الحَقُّ والطيبُ ، وهم معه ، وما خالفَهُ فهو الباطلُ والخبيثُ ، وهم يَهْجُرُونَهُ وَيُحَارِبُونَهُ .

٩- الميزانُ الصحيحُ لوزنِ الأفكارِ والأعمالِ والأشخاصِ ، هو ما كانَ صادقاً عالماً خبيراً عادلاً ، وهذا لا يتوفَّرُ إلا في «مِيزانِ الله» ، الذي جعله الله في كتابِهِ الكَرِيمِ وسنةِ رسوله العَظِيمِ ﷺ . فهذا المِيزانُ الإلهيُّ يُعْطِيكَ الوزنَ الحَقِيقِيَّ الصَّحِيحَ العَادِلَ ، بدونِ زيادةٍ أو نقصانٍ! وغيرُهُ من الموازينِ أَرْضِيَّةٌ باطلةٌ ، وتقومُ على الهوى والمزاجِ ، والظلمِ والعُدوانِ ، وتُعْطِيكَ النَّتَائِجَ الظَّالِمَةَ الخاطئةَ .

والمؤمنون لا يَرِنُونَ الخبيثَ والطيبَ إلا في ميزانِ الله الصحيحِ .

١٠- لا يُحسِنُ فهمَ وفقهَ الحقائقِ القرآنيةِ المذكورةِ في هذه الآيةِ إلا أولو الألبابِ ، ولذلك خَصَّتْهُمُ الآيةُ بالنداءِ ، في جملةٍ معترضةٍ ، عندما أمرت المؤمنين بتقوى الله . . . والتركيزُ على الألبابِ الواعيةِ ، والعقولِ الزاكيةِ ، والبصائرِ النافذةِ ، لإحسانِ النظرِ ، ودقَّةِ الوزنِ ، وصحةِ التقويمِ . . . ومن لم يكونوا من أولي الألبابِ وأصحابِ البصائرِ ، فلن يُدركوا معنى ودقَّةَ وصحة الحقائقِ القرآنيةِ بشأنِ الخبيثِ والطيبِ .



الفصل الثالث

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾

قال الله عز وجل: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

تتحدث الآية الكريمة عن عظمة الله ، وتُخبرُ أَنَّ الْأَبْصَارَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَهَ ، بينما هو يدركُها سبحانه ، لأنه لطيفٌ خبيرٌ .

وفيما يلي وقفنا التحليلية مع جُمَلِ الآية :

١ - قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾:

هذه جملة فعلية خبرية منفية ، أخبر الله فيها أَنَّ أَبْصَارَ المخلوقين لَا يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَهَ اللهُ .

﴿ لا ﴾ : حرف نفي . و﴿ تُدْرِكُ ﴾ : فعل مضارع مرفوع . و«الهاء» : ضمير متصل في محل نصب مفعول به مقدم ، يعود على لفظ الجلالة المذكور في الآية السابقة : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... ﴾ . و﴿ الْأَبْصَارُ ﴾ : فاعل مؤخر مرفوع .

والماضي : «أَدْرَكَ» . تقول : أدرك ، يُدْرِكُ ، إدراكاً .

وإدراك الشيء هو : اللحاق به ، والوصول إليه ، والإحاطة به .

والأبصار جمع «بصر» . وهي العيون التي تبصر وترى وتُدْرِكُ المرئي .

والمعنى : أبصار المخلوقين لَا يُمْكِنُ أَنْ تُدْرِكَهَ اللهُ ، ولا أَنْ تُحِيطُ به .

والدليل على أَنَّ الإدراك هو اللحوق والوصول والإحاطة قوله تعالى

عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠] فالغرق أدرك فرعون ؛ أي وصل إليه وأحاط به من كل جانب .

وقوله تعالى: ﴿ آتِنَا تَكُونُوا يَدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] . وقال تعالى في الإدراك المنفي: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] . أي أنّ الشمس لا يمكن أن تلتحق بالقمر ، ولا أن تصل إليه ، لاختلاف مسار وطريق ومجرى كل منهما .

والإدراك قد يكون بالعين ، وما فيها من قوة الإبصار ؛ تقول: أدركت الشيء بعيني ؛ أي: رأيته . وقد يكون بالوصول إليه بالجسم ؛ تقول: أدركته بيدي ؛ أي: وصلت إليه ، وأمسكته بيدي .

وقد يكون الإدراك عملية عقلية معنوية ، وليست مادية محسوسة ؛ تقول: أدركت المسألة بعقلي ؛ أي: فهمتها واستوعبتها ، فكأنني وصلت إليها وحصلت عليها .

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾:

هذه جملة خبرية اسمية مثبتة ، معطوفة على الجملة المنفية قبلها .

﴿ هُوَ ﴾ : ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ، يعود على الله .
 ﴿ يُدْرِكُ ﴾ : فعل مضارع مرفوع . والفاعل تقديره «هو» يعود على الله .
 ﴿ الْأَبْصَارَ ﴾ : مفعول به . والجملة الفعلية ﴿ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ في محل رفع خبر . والتقدير: الله مدرك الأبصار .

والمعنى: الله يعلم الأبصار وأصحابها ، ويراها ويتصرف فيها ، فهو قد أحاط بها علماً وبصراً وإدراكاً ، ولا يخفى عليه سبحانه شيء منها .

٣ - قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾:

هذه جملة خبرية تعليلية ، تعلل الجملتين قبلها ، وتصف الله بأنه لطيف خبير . و﴿ اللَّطِيفُ ﴾ : صفة مشبهة ، على وزن: «فعليل» .

وَاللُّطْفُ فِي الْاِشْتِقَاقِ اللَّغَوِيِّ مَادَّتَانِ :

الأولى : لُطْفَ ، يَلُطِّفُ ، لُطْفًا وَلَطَافَةً ، فَهُوَ لَطِيفٌ . وَيَكُونُ اللَّطْفُ صِفَةً ذَاتَ ، وَيَكُونُ مَعْنَى «لُطْفَ» : رَقٌّ وَدَقٌّ وَخَفِيٌّ ، تَقُولُ : الْهَوَاءُ لَطِيفٌ فَهُوَ رَقِيقٌ خَفِيٌّ ، وَلِذَلِكَ لَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ ، كَمَا يَرَى الْأَشْيَاءَ الْكثِيفَةَ الْمَجْسَمَةَ الْمَرْتَبَةَ .

الثانية : لَطْفَ ، يَلُطِّفُ ، لُطْفًا ، فَهُوَ لَطِيفٌ . وَيَكُونُ اللَّطْفُ صِفَةً فِعْلًا ، بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ : «لَا لَطْفَ» . وَيَكُونُ اللَّطْفُ بِمَعْنَى الرَّأْفَةِ وَالرَّفْقِ وَالْإِحْسَانِ وَالْإِكْرَامِ ؛ تَقُولُ : أَنْتَ لَطَفْتَ بِي : أَيُّ : رَفَقْتَ بِي وَأَحْسَنْتَ إِلَيَّ ^(١) .
وَتَكُونُ صِفَةً الْفِعْلِ مَبْنِيَّةً عَلَى صِفَةِ الذَّاتِ .

وَاللَّطِيفُ فِي اللَّغَةِ أَنَّ الطَّاءَ - الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْكَلِمَةِ - مَضْمُومَةٌ فِي لُطْفِ الذَّاتِ ، وَ : لُطْفَ ، يَلُطِّفُ ، مِنْ بَابِ «عَظَّمَ ، يَعْظُمُ» . بَيْنَمَا هِيَ مَفْتُوحَةٌ فِي لُطْفِ الْفِعْلِ ، وَ : لَطْفَ ، يَلُطِّفُ ، مِنْ بَابِ «نَصَرَ ، يَنْصُرُ» .

وَاللَّطِيفُ أَنَّ الْمَعْنِيَيْنِ اللَّغَوِيَّيْنِ يَتَحَقَّقَانِ فِي وَصْفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِأَنَّهُ لَطِيفٌ ، فَلُطْفُ اللَّهِ قَدْ يَكُونُ لُطْفَ ذَاتٍ ، وَقَدْ يَكُونُ لُطْفَ فِعْلٍ .
إِذَا أَرَدْتَ وَصْفَ اللَّهِ بِأَنَّهُ لَطِيفٌ ، يَكُونُ فِعْلُهُ الْمَاضِي مَضْمُومَ الطَّاءِ . تَقُولُ : لَطَفَ اللَّهُ فِي ذَاتِهِ ، فَهُوَ لَطِيفٌ .

وَقَدْ وَرَدَتْ الصِّفَةُ الْمَشْبَهَةُ بِمَعْنَى لُطْفِ الذَّاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ، أَيُّ : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، لِأَنَّهُ لَطِيفٌ . وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

وَإِذَا أَرَدْتَ بِاللَّطِيفِ لُطْفَ اللَّهِ بِأَفْعَالِهِ كَانَ الْفِعْلُ الْمَاضِي بِفَتْحِ الطَّاءِ ، وَكَانَتْ الصِّفَةُ الْمَشْبَهَةُ «لَطِيفٌ» بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ «لَا لَطْفَ» . فَمَعْنَى قَوْلِكَ : اللَّهُ لَطِيفٌ فِي فِعْلِهِ : اللَّهُ يَرَأْفُ بِعِبَادِهِ ، وَيَرْفُقُ بِهِمْ ، وَيُكْرِمُهُمْ وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ وَبِأَحْوَالِهِمْ . وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ

(١) انظر : المعجم الوسيط ، ص ٨٢٦ .

أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿﴾
[الملك: ١٣-١٤].

وعندما توصفُ أفعالُ الله باللطف ، فإنَّ ﴿ اللطيف ﴾ يتعدى إلى ما بعده بحرفِ الباء ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ١٩].

وقد يتعدى إلى ما بعده بحرفِ اللام ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿ الخبير ﴾ : صفةٌ مُشَبَّهَةٌ أُخرى على وَزْنِ «فعليل» ، مشتقةٌ من الفعل الماضي الثلاثي «خَبِرَ» . تقول : خَبَرَ الرجلُ خُبْرًا ؛ أَي : عَلِمَ بالأشياء اللطيفة الدقيقة اللطيفة ، فالخبيرُ هو العالمُ بما دَقَّ وَخَفِيَ وَلُطْفَ ، وهو بهذا يكونُ أدقَّ في المعنى من العالم .

وكثيراً ما يقترنُ اللطيفُ بالخبير في الآيات التي تَحَدَّثَتْ عن لُطْفِ الله وخبرته وعلمه : فتكون ﴿ الخبير ﴾ تفسيراً لـ ﴿ اللطيف ﴾ ، وبياناً لحسن معناها .

من لطائف الآية:

تتكوّنُ الآيةُ الكريمةُ من ثلاثِ جُمَلٍ ، مترابطة ، مليئةٌ باللطائفِ البيانية ، ومنها :

١ - الجملةُ الأولى جملةٌ فعليةٌ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ ﴾ . والجملةُ الثانيةُ اسميةٌ : ﴿ وَهُوَ يَدْرِكُ ﴾ .

٢ - الجملةُ الأولى منفيةٌ بحرفِ ﴿ لَا ﴾ . والجملةُ الثانيةُ مثبتةٌ .

٣ - عطفُ الجملةِ الثانيةِ على الجملةِ الأولى بحرفِ الواو ؛ أَي : عطفُ الجملةِ الاسميةِ المثبتةِ على الجملةِ الفعليةِ المنفيةِ ؛ وهذا عطفٌ لطيفٌ .

٤ - ذَكَرَ الفعلُ المضارعُ مرتين ، لكنّه لم يكنْ فيهما مُكْرَرًا ، إذ كانتْ هناك فروقٌ لطيفةٌ بين ذِكْرِهِ في المرتين ، من هذه الفروق :

أ - كَانَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى بِالتَّاءِ: ﴿تُدْرِكُهُ﴾ ، وَكَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِالْيَاءِ: ﴿يُدْرِكُ﴾ .

ب - أُسْنَدَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى إِلَى فَاعِلٍ صَرِيحٍ ، هُوَ ﴿الْأَبْصَرُ﴾ ، بَيْنَمَا أُسْنَدَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِلَى فَاعِلٍ مُسْتَتِرٍ ، تَقْدِيرُهُ «هُوَ» ، يَعُودُ عَلَى اللَّهِ .

ج - اتَّصَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى بِالضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ هَاءَ الْغَائِبِ: ﴿تُدْرِكُهُ﴾ . وَجَاءَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ مُجَرَّدًا: ﴿يُدْرِكُ﴾ .

د - فَاعَلُهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى جَمْعٌ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ﴾ . وَفَاعَلَهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ ضَمِيرٌ مُفْرَدٌ «هُوَ» .

هـ - جَاءَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى جُمْلَةٌ فَعْلِيَّةٌ أَصْلِيَّةٌ ، وَجَاءَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ فِي مَحَلِّ رَفْعِ خَبَرٍ ، وَأُسْنَدَ فِيهَا إِلَى الْمُبْتَدَأِ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ .

٥ - بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْأُولَى وَالْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ «تَنَاقُوبٌ» بَيَانِيٌّ رَائِعٌ ، وَمِنْ مَظَاهِرِهِ:

أ - الْفَاعِلُ فِي الْأُولَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ﴾ صَارَ مَفْعُولًا بِهِ فِي الثَّانِيَةِ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ .

ب - الْمَفْعُولُ بِهِ فِي الْأُولَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ صَارَ فَاعِلًا فِي الثَّانِيَةِ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ﴾ .

ج - الْفِعْلُ الْمَنْفِيُّ فِي الْأُولَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ﴾ صَارَ مُثَبَّتًا فِي الثَّانِيَةِ: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ﴾ .

٦ - ﴿الْأَبْصَرُ﴾: مَذْكُورَةٌ مَرَّتَيْنِ ، فِي الْجُمْلَتَيْنِ الْمُتَتَابِعَتَيْنِ ، لَكِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ؛ فَالْكَلِمَةُ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى فَاعِلٌ مَرْفُوعٌ ، بَيْنَمَا هِيَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ مَفْعُولٌ بِهِ مَنْصُوبٌ . وَهِيَ مَنْفِيَّةٌ فِي الْأُولَى ، مُثَبَّتَةٌ فِي الثَّانِيَةِ .

٧ - ضَمِيرُ الْغَائِبِ مَذْكُورٌ فِي الْجُمْلَتَيْنِ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ الْفُرُوقِ بَيْنَهُمَا:

أ - كَانَ فِي الْأُولَى ضَمِيرًا مُتَّصِلًا: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ ، وَفِي الثَّانِيَةِ ضَمِيرًا مُنْفَصِلًا: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ﴾ .

ب - كَانَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٍ بِهِ ، وَكَانَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأً .

٨ - بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ «طَبَاقٌ» بِلَاغِيٍّ لَطِيفٍ ؛ حَيْثُ جَمَعَ فِيهِمَا بَيْنَ الضَّدَّيْنِ :
الإِدْرَاكِ الْمَنْفِي وَالِإِدْرَاكِ الْمَثْبُتِ ! حَيْثُ نَفَتْ الْجُمْلَةُ الْأُولَى إِدْرَاكَ الْأَبْصَارِ
لِلَّهِ ، وَأَثْبَتَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ إِدْرَاكَ اللَّهِ لِلْأَبْصَارِ .

٩ - الْوَاوُ فِي الْآيَةِ حَرْفٌ عَطْفٌ ، وَقَدْ ذُكِرَتْ مَرَّتَيْنِ :

أ - فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى : عَطَفَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةَ عَلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ ﴾ .

ب - فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ : عَطَفَتِ الْجُمْلَةُ الثَّلَاثَةَ عَلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ . . . وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

١٠ - ذُكِرَ الضَّمِيرُ الْمَنْفَصَلُ «هُوَ» مَرَّتَيْنِ ، كَانَ فِيهِمَا فِي مَحَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأً .
لَكِنَّ خَبْرَهُ مُخْتَلَفٌ :

أ - خَبْرُهُ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ ﴾ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ .

ب - خَبْرُهُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ اسْمٌ صَرِيحٌ .

١١ - جَاءَتِ الْجُمْلَةُ الثَّلَاثَةُ تَعْلِيلًا لِلْجُمْلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ ، فَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِهِمَا
إِرْتِبَاطًا مُحْكَمًا وَثِيقًا .

١٢ - فِي الْجُمْلَةِ الثَّلَاثَةِ اسْمَانِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ : ﴿ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ،
كِلَاهُمَا عَلَى وَزْنِ : «فَعِيلٌ» . وَالْمُرَادُ بِهِمَا اسْمُ الْفَاعِلِ : لِاطِفٌ خَابِرٌ .

١٣ - الرَّائِعُ أَنَّ تَرْتِيبَ الْأَسْمَانِ ﴿ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ مُتَنَاسِقٌ مَعَ تَرْتِيبِ
الْجُمْلَتَيْنِ ، وَكَأَنَّ كِلَاهُمَا تَعْلِيلٌ لِجُمْلَتِهِ ، وَجَوَابٌ عَلَى سُؤَالٍ يُثَارُ حَوْلَهَا :

أ - لِمَاذَا لَا تُدْرِكُ الْأَبْصَارُ اللَّهِ؟ لِأَنَّهُ لَطِيفٌ لَا يُدْرِكُ ! .

ب - لِمَاذَا اللَّهُ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ؟ لِأَنَّهُ خَبِيرٌ عَالِمٌ بِهَا ! .

بَيْنَ الْإِدْرَاكِ الْمَنْفِي وَالرُّؤْيَا الْمَثْبُتَةِ :

تَوَقَّفَ الْمَفْسَّرُونَ أَثْنَاءَ تَفْسِيرِهِمْ لِهَذِهِ الْآيَةِ أَمَامَ رُؤْيَا اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي

الآخرة ، لأنها تتحدث عن نفي إدراك الأبصارِ لله ، ومعظم مَنْ تكلموا على هذا الموضوع لم يُحَسِّنوا التوفيقَ بين النصوص ، ولا التفريقَ بين الإدراك والرؤية ، وستكلمُ عن هذا الموضوعِ بمنتهاى الإيجازِ ، المتناسبِ مع موضوعِ الآية .

انقسم المسلمون في موضوعِ رؤيةِ الله إلى ثلاثِ طوائف :

● الطائفة الأولى : نفوا رؤيةَ الله في الدنيا وفي الآخرة ؛ ومنهم المعتزلةُ والشيعةُ الإمامية . واعتمدوا في هذا النفي على آيتين :

الآية الأولى : التي نتكلمُ عنها : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ . واعتبروا الإدراكَ بمعنى الرؤية ، وسحبوه على الدنيا والآخرة . وقالوا : إذ رأت الأبصارُ الله فقد أدركته ، وتنفي الآية إدراكَ الأبصارِ له .

الآية الثانية : قوله تعالى عن موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

طلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه ، فأخبره بأنه لن يراه ، وعلق ذلك على الجبل ، فإن تحمّل الجبل تجلّى الله أمكن لموسى أن يراه ، ولكن الجبل لم يتحمّل التجلّي ، فلما تجلّى الله للجبل جعله دكاً ، وخرّ موسى صعيقاً ، وعرف أنه لا يمكن أن يرى الله .

الشاهد في الآية قوله : ﴿ لَنْ نَرِنِّي ﴾ ، وقد عمّمها المعتزلةُ والشيعةُ على الدنيا والآخرة فنفوا الرؤية في الدنيا والآخرة .

● الطائفة الثانية : كانوا على النقيض من الطائفة الأولى ؛ فقالوا : الله يُمكن أن يرى في الدنيا وفي الآخرة ! ومنهم الصوفية .

واعتمدوا في إثباتِ رؤيةِ الله في الدنيا على حادثة المعراج ، وقالوا : رأى رسولُ الله ﷺ ربه ليلة المعراج ، وأخبر الله عن ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۖ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم : ٨-١٠] .

واستدلّ لهم بهذه الآياتِ مزودود ، لأنها لا تتحدّثُ عن رؤية الرسول ﷺ لربّه ليلة المعراج ، وإنما تتحدّثُ عن نزولِ جبريلَ عليه السلام بالوحي ، وتصفُ ذلك بالتفصيل ، والضمائرُ في الآياتِ تعودُ على جبريلَ عليه السلام وليس على الله !! قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٦﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٧﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١٠﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١٢﴾ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَأَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ٥-١٥].

وهذا ما فهمه الصحابةُ من الآيات :

١ - روى البخاريُّ ، عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه : أنه قال في معنى قوله تعالى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾﴾ : رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ ، له سُمُتَةٌ جناح (١) .

٢ - وروى مسلمٌ ، عن مسروق ، قال : قلتُ لعائشةَ رضي الله عنها : فأين قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿١٠﴾﴾ ؟ قالت : إنما ذلك جبريلُ عليه السلام ، كان يأتيه في صورةِ الرجال ، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته ، التي هي صورته ، فسَدَّ أفقَ السماء (٢) .

٣ - وروى مسلمٌ ، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه في معنى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٤﴾﴾ قال : رأى جبريلَ .

ولقد كان رسولُ الله ﷺ صريحاً في نفي رؤيتهِ لله ليلةَ المعراج .

٤ - روى البخاريُّ ومسلمٌ ، عن مسروق ، قال : قلتُ لعائشةَ رضي الله عنها : يا أُمَّتاهُ ! هل رأى محمدٌ ﷺ ربّه ؟ .

فقالَتْ : لقد قَفَّ شَعْرِي مما قلتُ ! أَيْنَ أَنْتِ من ثلاث ، مَنْ حَدَّثَكِهِنَّ فَقَدْ كَذَبَ : مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ، ثُمَّ قَرَأَتْ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣] ،

(١) البخاري ، برقم (٤٨٥٧) .

(٢) مسلم ، برقم (١٧٧) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١].. (١).

٥ - وروى مسلمٌ ، عن مسروق ، قال : كنتُ متكئاً عند عائشة رضي الله عنها ، فقالت : يا أبا عائشة ! ثلاثٌ مَنْ تكلمَ بواحدةٍ منهنَّ فقد أعظمَ على الله الفرية . قلتُ : ما هنَّ ؟ قالتُ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ محمداً ﷺ رأى ربَّه فقد أعظمَ على الله الفرية ! قال : وكنتُ متكئاً فجلستُ ، فقلتُ : يا أمَّ المؤمنين ! أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمِيمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٣] ، و ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم: ١٣] .

فقلتُ : أنا أوَّلُ هذه الأمة سألَ عن ذلك رسولَ الله ﷺ ، فقال : «إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غيرَ هاتينِ المرتينِ ، رأيتُهُ مُنْهَبِطاً من السماء ، ساداً عظماً خَلِقَهُ ما بين السماء والأرض» .

ثم قالتُ : أو لم تسمع أَنَّ الله يقول : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟! أو لم تسمع أَنَّ الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٥١]؟! (٢) .

٦ - وروى مسلمٌ ، عن عبد الله بن شقيق ، قال : قلتُ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه : لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسألتُه ، فقال : عن أيِّ شيء كنتَ تسأله؟ قلتُ : كنتُ أسأله : هل رأيتَ ربك؟ قال أبو ذرٍّ : أنا سألتُه ، فقال ﷺ : «رأيتُ نوراً» .

وقال في روايةٍ أُخرى : «نورٌ أتى أراه» (٣) .

تدلُّ هذه الأحاديثُ على أَنَّ الرسولَ ﷺ لم يَرِ رَبَّه ليلةَ المعراج .

● الطائفةُ الثالثةُ : قالوا : الله لا يُمكنُ أَنْ يَرى في الدنيا ، أمّا في الآخرة

(١) البخاري ، برقم (٤٨٥٥) ؛ ومسلم ، برقم (١٧٧) .

(٢) مسلم ، برقم (١٧٧) .

(٣) مسلم ، برقم (١٧٨) .

فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرُونَهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَهَمَّ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ السَّلْفِ وَالْخَلْفِ ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ .

قالوا: إِنَّ اللَّهَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَى فِي الدُّنْيَا ، لِعَدَمِ وُجُودِ آيَةِ صَرِيحَةٍ تُثَبِّتُ ذَلِكَ ، وَعَدَمِ وُجُودِ حَدِيثٍ صَحِيحٍ صَرِيحٍ يُقَرِّرُ ذَلِكَ .

بَلِ إِنَّ الْآيَاتِ تَنْفِي ذَلِكَ ، وَمِنْ أَشْهَرِهَا آيَتَانِ :

الأولى : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] .

الثانية : قَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ لَنْ تَرِنِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ أَخْبَرَتِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرُونَ رَبَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ ، مِنْهَا :

١ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] ، اِكْتَسَبَتْ وَجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ النُّضْرَةَ وَالْإِشْرَاقَ وَالْبَهَاءَ مِنْ نَظَرِهَا إِلَىٰ رَبِّهَا ، وَرَوَّيْتَهَا لَهُ .

٢ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] .

أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُكْرَمُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحْسِنِينَ ، وَيُوْتِيهِمُ الْحُسْنَى ، وَيَزِيدُهُمْ عَلَيْهَا . وَالْمَرَادُ بِالْحُسْنَى : الْجَنَّةُ ، وَمَا فِيهَا مِنْ نَعِيمٍ ، وَالْمَرَادُ بِالزِّيَادَةِ : النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَلَقَدْ فَسَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزِّيَادَةَ بِالرُّؤْيَا .

رَوَى مُسْلِمٌ ، عَنْ صَهْبِ بْنِ الرَّومِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَرِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ » . ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] .^(١)

٣ - رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ

(١) مُسْلِمٌ ، بِرَقْمِ (١٨١) .

رسول الله ﷺ ، قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «نعم.. هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صَحْواً ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صَحْواً ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فإنكم ترونه كذلك»^(١).

٤ - روى البخاري ومسلم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال: «جَتَّانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آتِيَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَتَّانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكَبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدَنَ»^(٢).

٥ - روى البخاري ومسلم ، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه ، قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَقَالَ: «إِنْكُمْ سَتَرُونَ رَبِّكُمْ ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا».

يَعْنِي الْفَجْرَ وَالْعَصْرَ.. ثُمَّ قَرَأَ جَرِيرٌ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩]^(٣).

والراجح هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من السلف والخلف ، من أَنَّ اللَّهَ لَا يُمَكَّنُ أَنْ يُرَى فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرُونَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَسْرُونَ وَيَفْرَحُونَ ، وَتَكُونُ وَجُوهُهُمْ نَاصِرَةً مَشْرِقَةً.. وَرَجَّحْنَا هَذَا الْقَوْلَ اعْتِمَاداً عَلَى النُّصُوصِ الَّتِي تَنْفِي الرُّؤْيَا فِي الدُّنْيَا ، وَتَثْبِتُهَا فِي الْجَنَّةِ.

لا تدركه الأبصار حتى في الجنة:

بقيت في هذا الموضوع مسألة ، وهي: هل أبصار المؤمنين تُدرك الله في الجنة ، عندما تراه وتُنظر إليه؟.

الجواب بالنفي ، فأبصار المؤمنين ترى الله في الجنة ، لكنها لا تدركه. وهذا يدعوننا إلى أن نفرِّق بين الإدراك والرؤية.

(١) البخاري ، برقم (٨٠٦) ؛ ومسلم ، برقم (١٨٣).

(٢) البخاري ، برقم (٤٨٧٨) ؛ ومسلم ، برقم (١٨٠).

(٣) البخاري ، برقم (٥٥٤) ؛ ومسلم ، برقم (٦٣٣).

الرؤية تكونُ بإبصارٍ ومشاهدةِ الشيء المرئيِّ المُشاهد ، وقد يرى الناظرُ الشيءَ البعيدَ ، لكنّه لا يدركُه . فالمؤمنونَ يرونَ ربّهم في الجنة ، لكنّ أبصارَهم لا تُدرِكُه سبحانه .

إنّ الإدراكَ - كما قرّنا - هو اللّحاقُ والإحاطةُ والوصول . وليس كلُّ شيءٍ تراه تُحيط به معرفةٌ وعِلماً ، وتعرف تفاصيله وجزئياته ، فكثيرٌ من الأشياءِ تَراها ولكنك لا تُدرِكُها ، فأنت ترى الشمسَ والقمرَ والكواكبَ والسماءَ ، لكنك لا تُدرِكُها ، ولا تعرف تفاصيلَ أجزائها ، ولا تُحيطُ علماً بها .

والمؤمنونَ يرونَ ربّهم في الجنة ، لكنّهم لا يدركونه ، ولا يُحيطونَ به علماً . . ولذلك كان الرسولُ ﷺ حكيماً عندما شبّه رؤيةَ الله برؤيةِ الشمسِ والقمرِ ، وَوَجْهُ الشَّيْءِ بينهما هو وُضوح الرؤيةِ وسهولتُها ، وعدمُ المشقّةِ فيها ، كما وَرَدَ في الحديث : « لا تُضامون في رؤيته » . ووجهُ الشبهِ أيضاً هو عَدَمُ إدراكِ المرئيِّ ، وعدمُ الإحاطةِ به .

ومعنى هذا أنّ هذه الآية مستمرةٌ في معناها ، في الدنيا وفي الآخرة : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ . وأبصارُ المؤمنين التي ترى الله في الجنة ، سَتَراه من بعيد ، دون أن تُدرِكَه أو تُحيطَ به !! .



الفصل الرابع

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾

قال الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِنًا يَعْغِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَجْرِهِنَّ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠ - ١٢١].

هاتان الآيتان في سياق آيات من سورة التوبة ، تتحدث عن الجهاد ، وتحث المؤمنين عليه ، وتنتهي عن التثاقل عنه ، وتمدح المسارعين إلى الجهاد ، وتعددهم بجزيل الأجر عند الله .

يُخبرُ اللهُ أنه لا يُمكنُ لأهل المدينة - على ساكنها الصلاة والسلام - من المهاجرين والأنصار ، ولا للأعراب المقيمين حول المدينة ، المؤمنين الصادقين ، المتحمسين للجهاد ، أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ ، وأن يتركوه يخرج وحده مجاهداً في سبيل الله ، وأن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ويؤثروا الراحة والسلامة والأمان... إنهم لن يفعلوا ذلك ، لأن قوة إيمانهم والتزامهم تمنعهم من هذه المخالفة .

وإذا كانوا لا يرضون بالتخلف وإيثار السلامة ، فإنهم سيتسابقون للخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ ، ويتطلعون إلى نيل الأجر الجزيل من الله . وقد وعدهم الله أن يأجرهم على كل ما يفعلونه في حركتهم الجهادية

الصادقة ، سيأجرهم سبحانه على كل ما يُصيبهم من ظمأ وعطش ، ومن نَصَبٍ وتعب ، ومن مَحْمَصَةٍ وجوع ، وسيأجرهم على كل موطنٍ يطؤونه يغيظ الكفار ، وعلى كل ما ينالونه من العدو ، كما أنه سبحانه سيأجرهم على كل نفقة يُنفقونها على الجهاد ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، وعلى كل خطوة يخطونها أثناء الخروج للجهاد ، وعلى كل وادٍ يقطعونه .

وبعد معرفة المعنى الإجمالي لهاتين الآيتين ، نفقُ وقفاتنا التحليلية مع جُمَلهما :

١ - قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ :

نفى الله عن أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب التخلف عن رسوله ﷺ ، عندما يخرج للجهاد ، وجاء هذا النفي بأبلغ صيغة ، ليدل على أن من غير المقبول منهم التخلف ؛ تقول: ما كان لك أن تفعل ذلك ؛ أي: لا يقبل منك ولا يتوقع منك أن تفعل ذلك .

وأهل المدينة هم الأنصار من الأوس والخزرج ، والمهاجرون الذين أتوا من مكة وغيرها ، وهم السابقون الأولون الذين نصرُوا الإسلام ، والقاعدة الصلبة التي ربّاهَا النبي ﷺ بيده ، وأنشأها على عينيهِ . إن هؤلاء المهاجرين والأنصار هم أهل المدينة الحقيقيون ، لأنهم مؤمنون مجاهدون ، وهذا معناه أن المؤمنين هم الجديرون بأن يكونوا أهل البلاد ، أما الكفار فهم غرباء طارئون ، ليسوا أهلاً لبلد ، ولا مالكين لأرض ! قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

والأعراب الذين حول المدينة هم القبائل العربية المقيمة حول المدينة ، الذين كانوا من السابقين إلى الإسلام ونصرته ، مثل: غفار ، وأشجع ، ومزينة .

أثنى الله على هذين الفريقين من المؤمنين المجاهدين: أهل المدينة ، ومن حولهم من الأعراب ؛ بأنهم سالمون من الفعل القبيح ، وهو التخلف

عن رسول الله ﷺ ، في حياته وحركته ، وسيره وتنقله ، وخروجه ودعوته ،
وجهاده وغزوه .

يُقال: تَخَلَّفَ فلانٌ عن الخارج: أي: بقيَ قاعداً في مكانه بعدَ خروج
الشخصِ الذي كانَ مَعَهُ. والتخلفُ يَرُدُّ في سياقِ الذَّمِّ ، لأنَّه قعودٌ في
المكان ، وعدمُ خروجٍ للجهادِ في سبيلِ الله .

إنهما فعلان متضادان عند التكليف بالجهاد: الفعلُ الأوَّلُ: هو تلبيةُ
الدعوة ، والاستجابةُ للتَّنْفِيرِ ، والخروجُ للجهاد . . والفعلُ الثاني: نقيضُه؛
وهو القعودُ والتخلفُ وإيثارُ السلامةِ والراحة . وإذا كانَ الفعلُ الثاني المذمومُ
يصدُرُ عن ضِعافِ الإيمانِ ومشلولي الهِمَمِ والعزائمِ ، فإنَّ الفعلَ الأوَّلَ
العظيمَ يصدُرُ عن أصحابِ الهِمَمِ والعزائمِ من المجاهدينِ الشجعانِ ، وفي
مقدمَتِهِم: أهلُ المدينة ، ومَن حولهم من الأعراب .

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾:

بعدَ أنْ نفى عن هؤلاء المجاهدينِ سوءَ التخلفِ عن رسولِ الله ﷺ ،
الخارجِ للجهادِ ، نفى عنهم خُلُقاً أَكْثَرَ سوءاً وقُبْحاً وذمّاً ، وهو أنْ يَخْتاروا
السلامةَ والراحةَ ، ويتركوا الرسولَ ﷺ عُرْضَةً للهلاكِ؛ فقال: ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا
بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

وهذه الجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ السابقةِ ، والتقدير: ما كانَ من خُلُقِ
أهلِ المدينةِ ومَن حولهم من الأعرابِ التخلفُ عن رسولِ الله ﷺ الخارجِ
للجهادِ ، ولا الرغبةُ بأنفسِهِم عن نفسه!! .

وأعادَ حرفَ النفيِ «لا» مع الجملةِ الثانيةِ ، ليؤكدَ على نفيِ اتصافِهِم بهذا
الخلقِ المذمومِ ، فلم يَعْطَفْ فعلُ ﴿ يَرْغَبُوا ﴾ على فعلِ ﴿ يَتَخَلَّفُوا ﴾ . إنما
عَطَفَ «لا» النافيةِ على «لا» النافيةِ: ما كانَ لهم التخلفُ ولا الرغبةُ بأنفسِهِم ،
وذلك ليعطيَ الجملةَ الثانيةَ نفيّاً خاصّاً مستقلاً ، وللإشارةِ إلى أنَّ الفعلَ الثاني
لا يمكنُ أنْ يصدُرَ منهم! .

واللافتُ للنظرِ أنْ فعلَ ﴿ يَرْغَبُوا ﴾ تعدى إلى اسمينِ بعده ، وكانت تعديتهُ

إِلَى كُلِّ اسْمٍ مِنْهُمَا بِحَرْفِ جَرٍّ ، غَيْرِ الْحَرْفِ الَّذِي تَعَدَّى بِهِ إِلَى الْآخِرِ : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ .

فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ وَ ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ؟ وَلِمَاذَا أَدْخَلَ الْبَاءَ عَلَى ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، وَأَدْخَلَ «عَنْ» عَلَى ﴿ نَفْسِهِ ﴾ ! وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْبَاءِ وَ «عَنْ» هُنَا؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِكَ : رَغِبْتُ فِيهِ ، وَقَوْلِكَ : رَغِبْتُ عَنْهُ؟ .

الْبَاءُ فِي ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ لِلْمَلَابَسَةِ ، وَهِيَ بِمَعْنَى التَّلْبَسِ وَالْمَصَاحِبَةِ ، وَعَدَمِ التَّرِكِ وَالْإِنْفِكَاكِ .

وَ ﴿ عَنْ ﴾ فِي ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ لِلتَّجَاوُزِ وَالتَّرْكِ ؛ يُقَالُ : رَغِبَ عَنْهُ ؛ أَي : تَرَكَهُ وَتَجَاوَزَ عَنْهُ . وَفَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِكَ : رَغِبْتُ فِي الشَّيْءِ ، وَقَوْلِكَ : رَغِبْتُ عَنْ الشَّيْءِ .

مَعْنَى قَوْلِكَ : رَغِبْتُ فِي الشَّيْءِ : حَرَصْتُ عَلَيْهِ ، وَأَحْبَبْتُ أَخْذَهُ وَالْحَصُولَ عَلَيْهِ . . أَمَّا مَعْنَى قَوْلِكَ : رَغِبْتُ عَنْ الشَّيْءِ ، فَهُوَ : تَرَكَتُهُ وَلَمْ أُرِدْهُ ، وَزَهَدْتُ فِيهِ . فَصَارَتِ الْجَمَلَتَانِ مُتَضَادَّتَيْنِ : رَغِبْتُ فِيهِ : أُرِدْتُهُ . وَرَغِبْتُ عَنْهُ : تَرَكَتُهُ . فَالثَّانِيَةُ نَقِيضُ الْأُولَى ، مَعَ أَنَّ الْفِعْلَ فِي الْجَمَلَتَيْنِ وَاحِدًا ! وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَةِ حُرُوفِ الْجَرِّ وَمَعَانِيهَا .

لَا يُمَكِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَجَاهِدِينَ أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسَيِّرَ عَلَيْهِمْ مَحَبَّتَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَتَتِمَّكَنَ مِنْهُمْ ، بِحَيْثُ تَتَلَبَّسُ بِهِمْ وَلَا تَفَارِقُهُمْ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَتْرَكُونَ فِيهِ حَبِيبَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عُرْضَةً لِلْخَطَرِ وَالْهَلَاكِ .

الْمُؤْمِنُونَ الْمَجَاهِدُونَ يُحِبُّونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَيُحِبُّونَ مَا أَحَبَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَيَخْتَارُونَ مَا اخْتَارَهُ ، وَيَتْرَكُونَ هَوَاهِمَ إِذَا تَعَارَضَ مَعَ اخْتِيَارِهِ ﷺ ، وَيُؤَثِّرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

يُمَثِّلُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عِنْدَمَا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي ! فَقَالَ لَهُ ﷺ : « لَنْ تُؤْمِنَ يَا عَمْرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ! » فَفَكَرَّ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ

عنه لحظة ، ثم قال : والله لأنت يا رسول الله ! أَحَبُّ إِلَيَّ حَتَّى مِنْ نَفْسِي ! قال :
«الآن يا عمر!» أي : الآن حَقَّقَتْ كَمَالَ إِيمَانِكَ ! .

ولم يكن عمر رضي الله عنه وحده هكذا ، وإنما كان الصحابة كُلُّهم
هكذا ؛ فمن كانت محبتهم لرسول الله ﷺ على هذا المستوى ، لا يمكن أن
يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﷺ .

اختارت نفس الرسول العظيمة ﷺ الجهاد ، فاختاروا ما اختاره ،
وتحمّلوا ما تحمّله ، من الشدائد والمشقات ، وتقرّبوا بذلك إلى الله .

والأصل في كل مسلم صادق أن يكون هكذا ، مهما كان زمانه أو مكانه أو
علمه ، فيؤثر الرسول ﷺ على نفسه ، ولا يرغب بنفسه عن نفس حبيبه ﷺ ! .

٣ - قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ :

هذه الجملة تعليل لما قبلها ، فعندما يعجب القارئ لموقف أهل المدينة
ومن حولهم من الأعراب في الخروج مجاهدين مع رسول الله ﷺ ، وعدم
تخلفهم عنه وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه ، قد يسأل : لماذا ينفر هؤلاء
الصادقون للجهاد؟ ولماذا يتحمّلون مشاق الجهاد؟ وماذا لا يؤثرون
السّلامة؟ .

تجيبه هذه الجملة وما بعدها على سؤاله ، وتعلّل له موقفهم العظيم ،
وتدلّه على الباعث الذي يبعثهم ويحركهم : إنه حرصهم على إرضاء الله ،
وفي الحصول على جزيل الأجر منه .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ : اسم إشارة . والمشار إليه هو : عدم تخلفهم عن رسول الله
ﷺ ، وعدم رغبتهم بأنفسهم عن نفسه . والتقدير : ذلك الخروج وعدم
التخلف بسبب كذا وكذا .

والباء في ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ : باء السببية ؛ أي : بسبب أنهم لا يصيبهم .

واللطف في التعبير القرآني هنا ورود الباء التي هي حرف جرّ في جملتين
متجاورتين : ﴿ وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ... ﴾ : الجملة الأولى

منفيّة ، تنفي عنهم ذلك الفعل ، والجملّة الثانیة مُثَبَّتة ، تُثَبَّتْ لهم هذا الفعل الطيّب . والباءُ في الجملّة الأولى باءُ الملايسة كما قلنا ، بينما الباءُ في الجملّة الثانیة باءُ السببية .

ومعنى ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ : يَصِلُ إِلَيْهِمْ ، وَيَنَالُهُمْ ، وَيَقَعُ بِهِمْ .

و«الظَّمَا» : العَطَشُ الَّذِي يُصِيبُهُمْ بِسَبَبِ مَسِيرِهِمْ وَحَرَكَتِهِمْ وَسَفَرِهِمْ ، وَقَطْعِهِمُ الْمَسَافَاتِ وَصُعُودِهِمُ الْمَرْتَفَعَاتِ .

و﴿ظَلَمًا﴾ : فَاعِلٌ مُؤَخَّرٌ مَرْفُوعٌ ، وَالضَّمِيرُ الْمَتَّصِلُ فِي ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى الْخَارِجِينَ لِلجِهَادِ ، فِي مَحَلِّ نَصْبِ مَفْعُولٍ بِهِ مُقَدَّمٌ .

وحكمةُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ بِهِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَأَثَّرَ بِالْإِصَابَةِ ؛ أَيُّ : أَنَّ الظَّمَا أَثَّرَ فِي أَبْدَانِهِمْ ، فَتَعَبُوا مِنَ الْعَطَشِ وَتَأَلَّمُوا . . . وَلِذَلِكَ أُلْصِقَ الْمَفْعُولُ بِهِ بِالْفِعْلِ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي تَضَرَّرَ مِنَ الْفِعْلِ ، وَأُخِّرَ الْفَاعِلُ لِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ! .

و﴿ظَلَمًا﴾ : نَكْرَةٌ ، وَالتَّنْكِيرُ وَالتَّنْوِينُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ وَالشَّمُولِ ، وَذَلِكَ لِيَشْمَلَ أَقَلَّ دَرَجَاتِ الظَّمَا وَأَكْثَرَهَا ، فَأَيُّ نَسْبَةِ ظَمًا أَصَابَتْهُمْ يُوجِرُونَ عَلَيْهَا ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ بِنَسْبَةِ وَاحِدٍ بِالمِثَّةِ . أَيُّ : لَوْ كَانَتْ مَجْرَدَ جَفَافِ شَفْتَيْنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجِرُهُمْ عَلَيْهَا . وَكَلِمَا زَادَتْ حِدَّةُ الظَّمَا زَادَ أَجْرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَكَلِمَا طَالَتْ مُدَّةُ الْعَطَشِ زَادَ أَجْرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ . . . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعِطَشُ إِذَا سَارَ عَشْرَاتِ الْأَمْتَارِ ، فَمَا بِالْكَ بَمَنْ يَقَطُّعُ السُّهُولَ وَالْجِبَالَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! .

و﴿نَصَبٌ﴾ : مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ظَلَمًا﴾ ، مَرْفُوعٌ مِثْلُهُ . وَالنَّصَبُ هُوَ التَّعَبُ ، الَّذِي يُصِيبُ الْإِنْسَانَ ، بِسَبَبِ جُهْدِهِ وَحَرَكَتِهِ . وَتَنْوِينُهُ وَتَنْكِيرُهُ لِلْعُمُومِ وَالشَّمُولِ أَيْضًا ، لِيَشْمَلَ أَقَلَّ دَرَجَاتِ التَّعَبِ وَأَكْثَرَهَا ، وَأَطْوَلَ مُدَّتِهِ وَأَقْصَرَهَا .

و﴿مَخْمَصَةٌ﴾ : مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ظَلَمًا﴾ ، مَرْفُوعٌ مِثْلُهُ . وَالْمَخْمَصَةُ هِيَ الْجُوعُ وَالْحَاجَةُ إِلَى الطَّعَامِ . وَعِنْدَمَا يَتَحَرَّكُ الْإِنْسَانُ وَيَتَنَقَّلُ وَيَقَطُّعُ الْمَسَافَاتِ الطَّوِيلَةَ يَسْتَهْلِكُ مَا فِي مَعِدَّتِهِ مِنْ طَعَامٍ ، وَيَحْرَقُ سُعْرَاتِ حَرَارِيَّةٍ أَكْثَرَ ، وَتَزْدَادُ حَاجَتُهُ إِلَى الطَّعَامِ .

وَتَوَيْنُ ﴿مَخْمَصَةٌ﴾ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ وَالشُّمُولِ ، مِثْلُ تَنْكِيرِ مَا قَبْلَهَا .

وَلَا يُوجِرُ الْإِنْسَانَ عَلَى أَيِّ ظَمًا أَوْ نَصَبٍ أَوْ مَخْمَصَةٍ ، إِنَّمَا يُوجِرُ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ قَيَّدَتِ الْآيَةُ الْإِصَابَاتِ الثَّلَاثَةَ بِشِبهِ الْجُمْلَةِ بَعْدَهَا : ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

وَالسَّبِيلُ هِيَ الطَّرِيقُ ، وَ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْمُؤْمِنُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَيَكُونُ مُخْلِصًا لِلَّهِ ، وَيَصِلُ فِي نَهَائِهَا إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ .

وَأَعْظَمُ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَفْضَلُ طَرِيقٍ تَوْصِلُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ هِيَ : الْجِهَادُ الصَّادِقُ الْمَبْرُورُ الْبَصِيرُ ، وَتَحَمُّلُ مَشَقَّاتِهِ وَتَبَاعَاتِهِ وَتَكَالِفِهِ .

وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْمَجَاهِدَ يَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ كُلَّ مَا يُصِيبُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ لِلْجِهَادِ ، مِنْ عَطَشٍ وَجُوعٍ وَتَعَبٍ ، وَيَجْعَلُ هَذِهِ الْآلَامَ عِبَادَةً وَقُرْبَى ، يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ . وَهَذِهِ الْآلَامُ الْبَدْنِيَّةُ لَا تُقْعَدُ وَلَا تُعَيْقَهُ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُقْعَدُ كَثِيرِينَ مِنْ ضُعْفَاءِ الْهَمَمِ وَالْعَزَائِمِ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى مَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمَجَاهِدُ ، وَلَا يَرْجُونَ مَا يَرْجُوهُ هُوَ مِنْ صَبْرٍ عَلَى الْآلَامِ وَالتَّضَحِيحَاتِ !! .

وَمِنْ لَطَائِفِ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ ذِكْرُ ﴿لَا﴾ النَّافِيَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْجُمْلَةِ : ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . وَهَذَا مَقْصُودٌ وَلَيْسَ مِصَادَفَةٌ ، إِنَّ الْجُمْلَةَ لَمْ تَعْطِفِ النَّصَبَ وَالْمَخْمَصَةَ عَلَى الظَّمَا ، لِأَنَّهَا لَمْ تَقُلْ : لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَنَصَبٌ وَمَخْمَصَةٌ ، فَلَمْ تَعْطِفِ اسْمًا عَلَى اسْمٍ ، وَلَمْ تَجْعَلِ النَّصَبَ وَالْمَخْمَصَةَ مُشْتَرِكِينَ فِي الْإِصَابَةِ ! لِأَنَّهَا لَوْ فَصَلَتْ ذَلِكَ لَقَسَمَتْ الْإِصَابَةَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ، وَأَعْطَتْ كُلَّ قِسْمٍ جُزْأً مِنْهَا : إِصَابَةُ ظَمًا وَنَصَبٍ وَمَخْمَصَةٌ .

إِنَّ الْعَطْفَ فِي الْحَقِيقَةِ عَطْفُ جُمْلَةٍ فَعَلِيَّةٍ عَلَى جُمْلَةٍ فَعَلِيَّةٍ ، وَتَكَرَّرُ ﴿لَا﴾ النَّافِيَةُ يَقْرُرُ هَذَا ، وَلَا بُدَّ أَنْ نُقَدِّرَ الْفِعْلَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ . وَالتَّقْدِيرُ هَكَذَا : ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا ، وَلَا يُصِيبُهُمْ نَصَبٌ ، وَلَا تُصِيبُهُمْ مَخْمَصَةٌ ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ . وَبِذَلِكَ أُعْطِيَ الْجُمْلَةُ كُلَّ مَشَقَّةٍ مِنَ الْمَشَقَّاتِ الثَّلَاثِ إِصَابَةً خَاصَةً ، وَلَمْ تُشْرِكْهَا كُلَّهَا فِي إِصَابَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَذَلِكَ

للإشارة إلى شِدَّةِ أَثَرِ كُلِّ مَشَقَّةٍ عَلَيْهِمْ ، ومع ذلك لم تُفَعِّدْهُمْ ! وهذا من بابِ
الثناءِ عَلَيْهِمْ ، والإشادةِ بِهِمْهُمْ .

٤ - قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَطَّوُّنَ مَوَاطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ :

هذه الجملة معطوفة على الجملة الفعلية السابقة: ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا
نَصَبٌ وَلَا مَحْمَصَةٌ ﴾ ، فهؤلاء المجاهدون مأجورون على كُلِّ مَشَقَّةٍ تُصِيبُهُمْ
أثناء جهادهم ، كما أنهم مأجورون على كُلِّ فِعْلٍ يَقَعْلُونَهُ يُغِيظُ الْكُفَّارَ .

والوَطءُ هو: الدَّوسُ بالأرْجُلِ . يُقال: وَطءَ الرَّجُلُ الأَرْضَ . أي: داسها
برجلَيْهِ . و﴿ مَوَاطِنًا ﴾: مفعولٌ به ، لأنه اسمُ مكانٍ . والتقدير: لا يَطَّوُّونَ مَكَانًا
يَغِيظُ الْكُفَّارَ . ويمكنُ أَنْ يَكُونَ ﴿ مَوَاطِنًا ﴾ مفعولاً مطلقاً ، على أنه مصدرٌ
ميميٌّ ، ولعلَّ هذا هو الأرجح ، لأنه موصوفٌ بالجملة الفعلية بعده:
﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ . والتقدير: لا يَطَّوُّونَ وَطْناً مُغِيظاً الْكُفَّارَ .

و﴿ يَغِيظُ ﴾: فعلٌ مضارع ، ماضيه رباعيٌّ: أَغَظَ . وهو بمعنى
«يُغْضِبُ» ؛ أي: وَطءُ المَجاهدينِ بِلادِ الكُفَّارِ يَغِيظُهُمْ وَيُغْضِبُهُمْ .

وَوَطءُ المَجاهدينِ بِلادِ الكُفَّارِ لا يَكُونُ بالدَّوسِ بالأقْدَامِ فقط ، إنما يَكُونُ
بالتجولِ والتحركِ فيها ، والجوسِ خلالها ، والعملِ على احتلالها والانتشارِ
فيها ، بمختلفِ وسائلِ وأساليبِ الوطاءِ والدَّوسِ ، مثل: أَرْجُلِ
المَجاهدينِ ، وحوافرِ خيولهمِ ، وأخفافِ إبلهمِ ، وعجلاتِ سياراتهمِ
ودباباتهمِ ، وقذائفِ صواريخهمِ ، وقصفِ طائراتهمِ . . وغير ذلك .

وهذا الوطاءُ يَغْنِي احتلالَ المَجاهدينِ لبِلادِ الكُفَّارِ ، كُلِّها أو بعضها ،
وسيطرتهمِ على الجزء الذي وَطئوه .

وهذا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَيُغْضِبُهُمْ ، لأنَّ فيه إِذلالَهُمْ وكَسْرَ شوكتهمِ
وهزيمتَهُمْ . ومعلومٌ أنَّ انتشارَ الجيشِ في بلادِ العدوِّ يَتَّبِعُ عنه إِذلالُ العَدُوِّ
وإِغاظتُهُ وإِغْضابُهُ !! .

ووصفُ الوطاءِ بأنه مُغِيظٌ للكُفَّارِ يُشيرُ إلى أنه على المَجاهدينِ أَنْ يَحْرِصُوا
على إِغَاظَةِ الكُفَّارِ ، ومَلءِ قلوبهمِ بالحقِّ والغضبِ ، وحرَبهمِ في نفوسهمِ

ومعنوياتهم وأعصابهم ، واستفزازهم وتحديهم ، ليستهلك الكفار كثيراً من طاقتهم في الغيظ والغضب والتوتر!! .

كما أنه يشير إلى أهمية الحرب النفسية ، التي قد تكون بمستوى الحرب المادية العسكرية ، إن لم تزد عليها أهمية ، لأن كل طرف يكون حريصاً على تحطيم معنويات الطرف الآخر ، وقتل عزائمه ، واستمرار توتر أعصابه ومشاعره!! .

وعلى المجاهدين أن يقوموا بكل عمل يؤدي إلى إغابة الكفار ، واستمرار إغابتهم! لا أن يحرصوا على إرضائهم ، وهدوء أعصابهم . . إن استمرار إغصاب وإغابة الكفار يجب أن يبقى هدفاً للمجاهدين . وإن الاجتهاد في اختراع كل وسائل إغابتهم هدف للمجاهدين! .

وبعد ما يُغَيظونهم ويستفزونهم يُخاطبونهم بما أمرهم الله أن يُخاطبواهم به ، والذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩] .

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَكَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾:

هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة ، تُخبر عن فعل جديد يصدر عن المجاهدين ضد الأعداء ، وهو نيلهم منهم ، وإصابتهم بالمصائب والرزايا والخسائر .

أخبرت الجملة السابقة عن وطء المجاهدين لبلاد الكافرين ، الذي ينتج عنه إغابتهم ، وأخبرت هذه الجملة عن نيل المجاهدين من الأعداء . والنيل من الأعداء أعم من وطء واحتلال بلادهم ، فالعطف من باب عطف العام على الخاص ، فبعد أن وعدت الجملة السابقة المجاهدين الأجر على كل وطء يطؤون الكفار به ، وعدت هذه الجملة على كل نيل ينالون منهم به! .

﴿وَنِيْلًا﴾: مفعول مطلق ، فهو مصدر فعل ﴿يَنَالُونَ﴾ . تقول: نَالَ ، يَنَالُ ، نِيْلًا . وهو بمعنى الإصابة . تقول: نَالَ الرَّجُلُ مِنْ خُصْمِهِ ، أَي: أَصَابَهُ . وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَا بَعْدَهُ بِحَرْفٍ ﴿مِنْ﴾ كَمَا فِي الْآيَةِ: ﴿يَنَالُونَكَ مِنْ

عَدُوٌّ ﴿ دَلَّ عَلَى إِصَابَةِ الْخَصْمِ بِالْمَصِيبَةِ وَالْأَذَى ، وَإِصَالِ مَا يَكْرَهُهُ وَيَسُوَّهُ إِلَيْهِ .

وتنوين ﴿ نَيْلًا ﴾ وتَنْكِيرُهُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ وَالشُّمُولِ ، فَيَشْمَلُ كُلَّ دَرَجَاتِ وَمَسْتَوِيَاتِ وَحَالَاتِ النَّيْلِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، سِوَاءَ كَانَتْ قَلِيلَةً أَوْ كَثِيرَةً ، مَادِيَةً أَوْ مَعْنَوِيَةً .

وبما أَنَّ أَسَالِيبَ مُوَاجَهَةِ الْكُفَّارِ وَجِهَادِهِمْ عَدِيدَةٌ ، فَإِنَّ كُلَّ أُسْلُوبٍ مِنْهَا يُعْتَبَرُ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ النَّيْلِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّ مَسْتَوَى كُلِّ أُسْلُوبٍ وَدَرَجَتَهُ وَتَأْثِيرَهُ فِي الْأَعْدَاءِ يُعْتَبَرُ نَيْلًا مِنْهُمْ ! .

وهذا معناه تَعْمِيمُ صُورِ وَمَظَاهِرِ النَّيْلِ مِنَ الْأَعْدَاءِ: قِتَالُهُمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَقَتْلُ بَعْضِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَإِصَابَةُ بَعْضِهِمْ بِجِرَاحِ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَاحْتِلَالُ بَعْضِ بِلَادِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَتَدْمِيرُ أُسْلُوحَتِهِمْ وَمَوَارِدِهِمْ وَصِنَاعَاتِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَمَهَاجِمَةُ أَفْكَارِهِمْ وَنَقْدُ مَبَادِيهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَفَضْحُهُمْ وَكَشْفُ مَوَاطِنِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَشَنُّْ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ وَالْإِعْلَامِيَّةِ عَلَيْهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَإِسَاءَةُ وَجْهِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَتَحْطِيمُ مَعْنَوِيَاتِهِمْ وَإِرَادَاتِهِمْ نَيْلٌ مِنْهُمْ وَكُلُّ إِصَابَةٍ تُصِيبُهُمْ فِي هَذِهِ الْجَوَانِبِ وَالْمَجَالَاتِ نَيْلٌ مِنْهُمْ . وَالْمُؤْمِنُونَ الْمُجَاهِدُونَ مَاجُورُونَ عَلَى كُلِّ نَيْلٍ يَنَالُونَ مِنْهُمْ بِهِ فِي كُلِّ هَذِهِ الْجَوَانِبِ! . . فَتَأْمَلُ مَعِيَ عَظْمَةَ الْجَزَاءِ وَالْأَجْرِ الَّذِي يَسْتَحْصِلُونَ عَلَيْهِ فِي هَذَا النَّيْلِ الْعَامِّ الشَّامِلِ! وَتَأْمَلُ فَضْلَ الْجِهَادِ وَقِيَمَتَهُ وَبِرْكَتَهُ ، وَعَظْمَةَ مَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ عِنْدَ اللَّهِ! .

إِنَّ مَهَاجِمَةَ الْكُفَّارِ عِبَادَةً ، وَإِنَّ جِهَادَهُمْ عِبَادَةً ، وَإِنَّ النَّيْلَ مِنْهُمْ عِبَادَةً ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُجَاهِدُونَ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ الْقُرْآنِيَّةَ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُجَاهِدُوا الْأَعْدَاءَ بِهَذِهِ الْجَبْهَةِ الْوَاسِعَةِ ، الشَّامِلَةِ لِلنَّيْلِ الْمَادِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ ، وَالنَّيْلِ الْعَسْكَرِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالْاِقْتِصَادِيِّ ، وَالْاجْتِمَاعِيِّ وَالْإِعْلَامِيِّ وَالْفِكْرِيِّ ، وَالْعِلْمِيِّ وَالْفَنِيِّ ، وَالنَّفْسِيِّ وَالْعَصْبِيِّ . . فَكُلُّ هَذَا نَيْلٌ مُبَارَكٌ عِنْدَ اللَّهِ!! وَاللَّطِيفُ أَنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ الْأَعْدَاءِ فِي الْجَمَلَتَيْنِ مُخْتَلَفٌ: ﴿ وَلَا يَطْفُوتُ مَوْطَأًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ﴾ :

فالأعداء في الجملة الأولى هم: ﴿الْكُفَّارُ﴾ والكلمة جمع تكسير. وهم في الجملة الثانية: ﴿عَدُوٌّ﴾ والكلمة مفرد، وهي مجرورة بحرف ﴿مِنْ﴾ الدال على التبعض والتجزئ، أي: أي جزء من نيل يتألونه من أيّ عَدُوٍّ. وَيَجِبُ وَصْفُ الْأَعْدَاءِ بِالصَّفَتَيْنِ مَعًا؛ فَهَمُ كُفَّارٌ أَعْدَاءٌ. وَالصَّفَةُ الْأُولَى سَبَبٌ لِحَصُولِ الصَّفَةِ الثَّانِيَةِ؛ أَيُّ هُمْ يَعَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ.

وَاللَّطِيفُ أَنَّ الصَّفَةَ الْأُولَى جَمْعٌ: ﴿الْكُفَّارُ﴾، لِأَنَّهَا فِي جُمْلَةٍ تَتَحَدَّثُ عَنْ وَطْءٍ وَدَوْسٍ فِي الْبِلَادِ، وَهَذَا مَعْنَى جَمَاعِي، فَنَاسَبَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْجَمْعِ. أَمَّا الصَّفَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ مَفْرَدٌ: ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ لِأَنَّهَا فِي جُمْلَةٍ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَيِّ نَيْلٍ يُنَالُ مِنَ الْعَدُوِّ. وَ﴿عَدُوٍّ﴾: اسْمُ جِنْسٍ، يَنْطَبِقُ عَلَى الْمَفْرَدِ وَالْمَثْنَى وَالْجَمْعِ. وَالتَّعْبِيرُ بِالْمَفْرَدِ هُنَا يُرَادُ مِنْهُ الْعُمُومُ، لِشِمْلِ كُلِّ عَدُوٍّ.

وَيُفْهَمُ الْعُمُومُ مِنْ أَسْلُوبٍ بَيَانِيٍّ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ ﴿عَدُوٍّ﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النِّفْيِ: ﴿وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ النُّكْرَةَ فِي سِيَاقِ النِّفْيِ تَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ.

فِيَتَحَقَّقُ الْعُمُومُ بِأَسْلُوبَيْنِ: أَسْلُوبِ النُّكْرَةِ فِي سِيَاقِ النِّفْيِ، وَأَسْلُوبِ اسْمِ الْجِنْسِ الَّذِي أُدْخِلَ عَلَيْهِ حَرْفُ ﴿مِنْ﴾!.

٦ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾:

هَذِهِ الْجُمْلَةُ نَتِيجَةُ الْجُمْلَةِ الثَّلَاثِ قَبْلَهَا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾.

وَحَرْفُ الْاسْتِثْنَاءِ هُنَا مُلغَى، لِأَنَّهُ مَسْبُوقٌ بِحَرْفِ ﴿لَا﴾ النَّافِيَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ النِّفْيُ وَالْاسْتِثْنَاءُ أُلغِيَ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ، وَذَلَاً مَعًا عَلَى الْحَصْرِ. وَالْمَعْنَى الْمَحْصُورُ هُنَا كِتَابَةٌ عَمَلٍ صَالِحٍ بِكُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ الْجُمْلَةُ السَّابِقَةُ الْمُنْفِيَةِ، وَإِخْبَارُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَهُمُ الْأَجْرَ عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَ﴿كُتِبَ﴾: فَعْلٌ مَاضٍ مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ. وَ﴿عَمَلٌ﴾: نَائِبٌ فَاعِلٌ. وَ﴿صَالِحٌ﴾ صِفَةٌ. وَالبَاءُ فِي: ﴿بِهِ﴾ لِلْسَّبَبِيَّةِ. وَالهَاءُ تَعَوُّدٌ عَلَى الْأَفْعَالِ

السابقة الصادرة عن المجاهدين أثناء حركتهم الجهادية؛ أي: كُتِبَ لهم عملٌ صالحٌ عند الله بسبب ذلك الفعل .

وجاء الضمير مُفْرَداً مذكراً: ﴿ بِهِ ﴾ لإرادة معنى التفعيل والترغيب والتكريم ، لأنَّ الضمير عادَ على كُلِّ فعلٍ من الأفعال السابقة ، وهي: الظمأ ، والنَّصَبُ ، والمخمصةُ ، والوطءُ ، والنَّيْلُ!! .

واللطيفُ أنْ كُلَّ فعلٍ من الأفعال السابقة معطوفٌ على ما قبله بحرف الواو ، فجعلته مستقلاً بالذکر . وكُلُّ فعلٍ أُدخِلت عليه ﴿ لَا ﴾ النافية يدلُّ على الحَضْر ، وإعادة الضمير المفرد الغائب ﴿ بِهِ ﴾ على كُلِّ فعلٍ منها تدلُّ على التخصص .

والتقديرُ هكذا: لا يُصِيبُ المجاهدين ظمأٌ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، ولا يُصِيبُهُمْ نَصَبٌ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، ولا يُصِيبُهُمْ جوعٌ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، ولا يَطَوُّونَ موطئاً يَغِظُ الكفارَ إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، ولا يَنالونَ من عَدُوِّ نَيْلًا إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ ، فاختصر التعبيرُ القرآنيُّ المعجزُ العبارة ، وَعَطَفَ الأفعال المنفية بحرف الواو ، وأعاد الجملة الحاصرة عليها كلها: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ .

واللطيفُ أنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمجهول ، و﴿ عَمَلٌ ﴾: نائب فاعل ؛ فمن الذي كُتِبَ لهم العملُ الصالحُ؟ إنَّه اللهُ . والتقدير: كُتِبَ اللهُ للمجاهدين عَمَلًا صالحًا بكلِّ فعلٍ يفعلونه .

وليس كُلُّ واحدٍ من الخمسة المذكورة عَمَلًا ، ومع ذلك كُتِبَ اللهُ لصاحبه عَمَلًا صالحًا مأجورًا بسببه . وهو لا يُكْتَبُ له به عَمَلٌ ، إلا إذا اعتبره عَمَلًا!! ومعنى هذا أنَّ ظمأَ المجاهدِ عملٌ مأجورٌ ، وتعبُهُ عملٌ مأجورٌ ، ومخمصتُهُ عملٌ مأجورٌ ، ووطأه في بلادِ الكفارِ عملٌ مأجورٌ ، ونَيْلُهُ من الأعداءِ عملٌ مأجورٌ .

واعتبارُ كُلِّ واحدٍ من الخمسة عَمَلًا فضلٌ من الله على المجاهدين ، وتكريمٌ منه سبحانه لهم ، ولا يكونُ الشيءُ عَمَلًا لصاحبه إلا إذا نواه واجتهدَ به ، وفعلَهُ وكَسَبَهُ ، علماً أنَّ بعضَ الخمسة قد يحصلُ للمجاهدِ بدونِ إرادةٍ

منه ، مثل العطش والتعب والجوع ، لأنَّ الحاجة إلى الطعام والشراب والراحة حاجة بيولوجية ، لا اختيار للإنسان فيها! ومع ذلك اعتبر الله العطش والجوع والتعب اللإرادي عملاً صالحاً يعملُه صاحبه ، وقبله منه ، وأثابه عليه .

ومعنى هذا أنَّ كلَّ ما يصدرُ عن المجاهد منذُ خروجه من بيته للجهاد عملٌ ، وكلُّ ما يُصيبُه من شدائد عملٌ ، وكلُّ ما يشعُرُ به في جهاده عملٌ !! أي: كلُّ لحظة تمرُّ بالمجاهد فهي عملٌ ، وكلُّ ثانية فهي عملٌ ! .

وبعبارة أخرى: كلُّ نفسٍ يتنفَّسه المجاهد من شهيقٍ أو زفيرٍ عملٌ صالح ، وكلُّ نظرة ينظرُها عملٌ صالح ، وكلُّ كلمة طيبة تخرجُ من فمه عملٌ صالح ، وكلُّ خطوة يخطوها عملٌ صالح ، وكلُّ فكرة تمرُّ على خاطره عملٌ صالح ، وكلُّ إحساسٍ بالتعب والتعب في كلِّ ثانية عملٌ صالح ، وكلُّ شعورٍ بالجوع أو العطش عملٌ صالح ، وكلُّ عبادة يؤدِّيها عملٌ صالح ، بل كلُّ ثانية ينأَم فيها عملٌ صالح . . فكم من عملٍ صالح يصدرُ عن هذا المجاهد في الساعة الواحدة؟ وكم يكتبُ الله له من أجرٍ وثوابٍ في يومٍ كاملٍ؟ وتخيَّل ما يكتبُ الله له من أجرٍ إذا أمضى في الجهاد شهراً أو شهرين ، أو سنةً أو سنتين! وإذا كانت حياة المجاهد كلها جهاد - بمفهوم الجهاد الواسع الشامل - فكم سيكتبُ الله له من الأجر؟ وتصورُ عظمة أجره وجزائه إذا أمضى خمسين أو ستين سنةً في الجهاد!! ما أكرم الله ، وما أعظم منزلة المجاهد عند الله!! .

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾:

ختم الله الآية التي رَعِبَتْ في الجهاد بهذه الجملة ، وهي ترغيبٌ في الجهاد وحثٌّ عليه أيضاً . وهذه الخاتمة متناسبة مع موضوع الآية ، وتدلُّ على أنَّ المجاهدين مُحْسِنُونَ ، ولذلك قبلَ الله إحصانهم ، وأثابهم عليه ، ولم يُضَيِّعْ لهم شيئاً منه! .

وهذه الجملة الخاتمة تعليلٌ لما قبلها ، وكأنها جوابٌ على سؤالٍ قد يتبادر للذهن: لماذا كتبَ الله لهؤلاء المجاهدين عملاً صالحاً على كلِّ

ما صدرَ منهم في الجهاد؟ فيأتي الجوابُ في هذه الجملة: لأنهم محسنون في جهادهم وحياتهم ، والله لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين .

والحقيقةُ القرآنيةُ التي تقدمُها هذه الجملةُ أنَّ اللهَ يتقبلُ عملَ المحسنين ، ويكتبُ لهم به الأجرَ والثواب ، ولا يُنقصُ ولا يُضِيعُ منه شيئاً ، ومن ذلك أعمالُ المجاهدين .

وهذه الحقيقةُ مؤكدةٌ في الجملةِ بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي هو للتوكيد . والجملةُ الاسميةُ بعدها ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

و﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ جمعٌ ، مفردُه «مُحْسِنٌ» ، وهو اسمُ فاعلٍ من الرباعي «أَحْسَنَ» ؛ تقول : أحسنَ إحصاناً فهو محسن .

والتعبيرُ باسمِ الفاعلِ هنا مقصودٌ ؛ فمن المعلومِ أنَّ اسمَ الفاعلِ يدلُّ على الثباتِ والاستقرار ، وملازمةِ الصفةِ للموصوف ، ومعنى هذا أنَّ الإحصانَ صفةٌ ثابتةٌ فيهم ، ملازمةٌ لهم ، لا تفارقهم ولا تنفصلُ عنهم .

والإحصانُ نتيجةٌ وثمرَةٌ للأعمالِ السابقةِ التي عملها هؤلاء المجاهدون المحسنون ، وهي : ما أصابهم من ظمأٍ ونصبٍ ومخمصةٍ في سبيلِ الله ، وما وطئوه مما أعاظوا به الكفار ، وما نالوا به من العدوِّ ! أي أنهم محسنون في عطشهم وجوعهم وتعبهم ، ومُحْسِنُونَ في وطئهم البلادَ واحتلالها ، ومُحْسِنُونَ في نيلهم من العدوِّ ؛ ولذلك يأجرهم الله على إحصانهم في هذه الأمورِ الجهاديةِ .

وبما أنهم «محسنون» فإن الله يُحبُّهم لإحصانهم في جهادهم ، لأنَّ المحسنين أحبُّبُ الله ؛ قال تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وجزى الله إحصانهم في جهادهم بإحصانٍ في مضاعفةِ أجرهم ، لأنَّ جزاءَ الإحصانِ إحصانٌ ؛ قال تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

ووصفهم بأنهم محسنون ، في ختامِ الآيةِ التي تحدتت عن بعضِ أعمالهم الجهاديةِ ، وبعضِ ما يُصيبهم أثناءَ الجهادِ مقصودٌ ، الهدفُ منه ووصفُ

الجهاد بأنه إحصان ، وَوَصَفُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ ، وبالجهادِ يُنَالُ الْمُجَاهِدُونَ الْمُحْسِنُونَ مُحِبَةَ اللَّهِ!! .

وهذا رَدُّ عَلَى التَّشْكِكِ فِي الْجِهَادِ ، وَتَشْوِيهِ حَقَائِقِهِ ، وَاتِّهَامِ الْمُجَاهِدِينَ بِاتِّهَامَاتٍ بَاطِلَةٍ ، وَهَذَا ضَمَنَ الْحَرْبِ الْإِعْلَامِيَّةِ الشَّرْسَةِ الَّتِي يَشْتُهَا الْأَعْدَاءُ ضَدَّ الْجِهَادِ وَالْمُجَاهِدِينَ! .

٨- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾:

تُتَابِعُ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ الْكَلَامَ عَلَى أَعْمَالِ الْمُجَاهِدِينَ ، الَّتِي يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُمْ عَلَيْهَا الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

ولذلك عَطَفَتِ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى بِحَرْفِ الْوَاوِ .

وَتَنْتَقِلُ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ أَعْمَالٍ إِرَادِيَّةٍ جِهَادِيَّةٍ مَقْصُودَةٍ ، تَصَدَّرُ عَنِ الْمُجَاهِدِينَ أَثْنَاءَ خُرُوجِهِمْ لِلْجِهَادِ ، بَيْنَمَا تَحَدَّثُ الْآيَةُ السَّابِقَةُ عَنْ أَعْمَالٍ لَا إِرَادِيَّةَ تَصَدَّرُ عَنْهُمْ ، وَعَنْ مَشَقَاتٍ وَشِدَائِدٍ لَا إِرَادِيَّةَ ، تُصِيبُهُمْ أَثْنَاءَ حَرَكَتِهِمُ الْجِهَادِيَّةِ .

﴿لَا﴾: حَرْفُ نَفْيٍ ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْحَضَرِ ، لَوْ قُوعَ حَرْفِ ﴿إِلَّا﴾ فِيمَا بَعْدَ: ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾ ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اجْتِمَاعَ النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ يَدُلُّ عَلَى الْحَضَرِ .

و﴿يُنْفِقُونَ﴾: فَعْلٌ مُضَارِعٌ وَفَاعِلُهُ . و﴿نَفَقَةً﴾: مَفْعُولٌ بِهِ . و﴿صَغِيرَةً﴾: صِفَةٌ مَنْصُوبَةٌ . و﴿كَبِيرَةً﴾: مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿صَغِيرَةً﴾ .

و﴿نَفَقَةً﴾: اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الثَّلَاثِيِّ: «نَفَقَ» ، وَيُطْلَقُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُخْرِجُهُ الْمُؤْمِنُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَبْتَغِي بِهِ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ .

وَغَالِبُ اسْتِعْمَالِ النَّفَقَةِ فِي الْمَالِ ، الَّذِي يُخْرِجُهُ الْمُتَصَدِّقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، سِوَا مَا كَانَ هَذَا الْمَالُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ خَاصَّةً بِإِخْرَاجِ الْمَالِ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَةٌ ، تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يُخْرِجُهُ وَيُنْفِقُهُ الْمُؤْمِنُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَدْخُلُ فِيهَا إِنْفَاقُ الْمَالِ ، وَإِنْفَاقُ الْجُهْدِ وَالنَّشَاطِ ، وَإِنْفَاقُ الْفِكْرِ وَالْعِلْمِ ، وَإِنْفَاقُ

الوقت ، وإنفاق الإرادة . . وتوجيه كل هذه المجالات لتحقيق الهدف ، وتوظيفها لخدمة الدين ، طلباً للأجر من الله .

وبشّرت الجملة المجاهدين المنفقين بقبول كل نفقة أنفقوها في الجهاد ، سواء كانت صغيرة قليلة ، أو كبيرة كثيرة .

و﴿كَبِيرَةٌ﴾ معطوفة على ﴿صَغِيرَةٌ﴾ . وإدخال ﴿لَا﴾ النافية عليها لمزيد من التوكيد ، ويُمكن إدخال الفعل عليها ، فيكون التقدير : ولا يُنفقون نفقة كبيرة إلا كُتبت لهم .

وذكرت الجملة طرفي النفقات : ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ : الطرف الأول : النفقة الصغيرة ، والطرف الثاني المقابل : النفقة الكبيرة ، وبين الطرفين تدخل جميع النفقات على اختلاف مقاديرها وكمياتها ، ومجالاتها وأفاقها ، وأنواعها وأشكالها .

والعموم مأخوذ من أسلوبين : أسلوب الحصر : ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً . . . إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ . . . وأسلوب التنكير ، إن ﴿نَفَقَةً﴾ في الآية نكرة ، والنكرة في سياق النفي تدلُّ على العموم والشمول .

٩ - قوله تعالى : ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ :

هذه الجملة الفعلية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها ، وتسجل هذه الجملة عملاً جهادياً صادراً عن المجاهدين ، وتقرر قبوله عند الله .

﴿لَا﴾ : حرف نفي ، وهو هنا للحصر ، والتقدير : ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ .

وقطع الوادي : اجتيازه وعبره ، وللوادي جانبان ، يأتي المجاهدون من جانب ، ويعبرون الوادي ، ويتقلون للجانب الآخر ، وسُمِّي هذا العبور والتجاوز قطعاً .

و﴿وَادِيًا﴾ : مفعول به ، وهو اسم على وزن «فَاعِل» ، مشتق من الثلاثي : «وَدَى» . ومعناه : سال .

والوادي: هو المكان المنخفض بين جبلين ، وَسُمِّيَ وادياً لَأَنَّ الماءَ يَدِي وَيَسِيلُ وَيَجْرِي فِيهِ .

وَذَكَرَتِ الْجُمْلَةُ قَطَعَ الْوَادِي وَاجْتِيَازَهُ ، لِأَنَّهُ حَالَةٌ مِنْ حَالَاتِ حَرَكَاتِ الْمَجَاهِدِينَ ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ تُشِيرُ إِلَى غَيْرِهَا . إِنَّ لِّلْسَائِرِينَ فِي سَيْرِهِمْ ثَلَاثَ حَالَاتٍ : فَهَمَّ إِمَّا أَنْ يَنْزِلُوا فِي وَادٍ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْعَدُوا عَلَى جَبَلٍ ، وَإِمَّا أَنْ يَسِيرُوا فِي سَهْلٍ مَنْبَسَطٍ . . . وَهَمَّ مَاجُورُونَ فِي كُلِّ حَالَاتٍ مَسِيرِهِمْ .

١٠ - قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾:

﴿إِلَّا﴾: حرفُ استثناءٍ في الأصل ، لكنَّها هنا يُرادُ بها الحَضْر ، لِأَنَّهَا مَسْبُوقَةٌ بِحَرْفِ ﴿لَا﴾ النَّافِيَةِ . وَ﴿كُتِبَ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لِلْمَجْهُولِ ، وَنَائِبُ الْفَاعِلِ مَحْذُوفٌ ، تَقْدِيرُهُ «عَمَلٌ» . أَي: إِذَا كُتِبَ لَهُمْ عَمَلٌ . وَهُوَ يَعُودُ عَلَى الْفِعْلَيْنِ السَّابِقَيْنِ : الْإِنْفَاقُ وَقَطْعُ الْأُودِيَةِ : ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ .

وَالْمَعْنَى الْمَحْضُورُ فِي الْآيَةِ هُوَ كِتَابَةُ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ لِلْمَجَاهِدِينَ عَلَى كُلِّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُونَهَا عَلَى الْجِهَادِ ، مَهْمَا كَانَتْ قِيمَتُهَا ، وَعَلَى كُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُونَهَا فِي الْجِهَادِ ، مَهْمَا كَانَ مَكَانُهَا ، قَطَعَ وَادٍ ، أَوْ صَعَدَ جَبَلٌ ، أَوْ سِيرَ فِي سَهْلٍ .

وَمِنَ اللَّطِيفِ مِلَّاخِظَةُ الْفَرْقِ بَيْنِ الْكِتَابَتَيْنِ ، الْمَذْكُورَتَيْنِ فِي الْآيَتَيْنِ ؛ فَلَمَّا تَحَدَّثَتِ الْآيَةُ الْأُولَى عَنْ مَا يُصِيبُ الْمَجَاهِدِينَ مِنْ ظَمَأٍ أَوْ نَصَبٍ أَوْ مَخْمَصَةٍ قَالَتْ : ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ ، بَيْنَمَا قَالَتِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ نَفَقَةٍ وَحَرَكَةِ الْمَجَاهِدِينَ : ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ فِي جَانِبَيْنِ :

الأول: نائِبُ الْفَاعِلِ مَذْكُورٌ فِي الْأُولَى ، وَمَحْذُوفٌ فِي الثَّانِيَةِ .

الثاني: شَبُهُ الْجُمْلَةِ ﴿بِهِ﴾ مَذْكُورَةٌ فِي الْأُولَى ، مَحْذُوفَةٌ فِي الثَّانِيَةِ . وَسَنَحَاوِلُ ذِكْرَ حِكْمَةِ الْحَذْفِ وَالذِّكْرِ فِي الْجُمْلَتَيْنِ بَعْدَ قَلِيلٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

١١ - قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَعْلِيلِيَّةٌ ، تَعْلُلُ الْمَذْكُورَ فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ ، وَتَذَكُرُ الْحِكْمَةَ

منه ؛ وكأنها جوابٌ على تَساؤُلٍ: لماذا يكتُبُ اللهُ للمجاهدين كلَّ عملٍ جهاديٍّ يعملونه ، ومنه النفقةُ المبدولة ، والحركةُ المطروقة؟ تُقدِّمُ هذه الجملةُ الجوابَ: كتبَ اللهُ لهم كلَّ ذلك ليَجزيهم أحسنَ ما كانوا يعملون .

«يَجزي»: من الجَزاء ، وهو بمعنى المقابلةِ والمكافأةِ والفناء . وعندما تَجزي شَخْصاً خيراً ، فإنك تكافؤُه على خيرٍ صدرَ منه ، وتُقابلُ خيرَه بخيرٍ منك .

ولفظُ الجلالة ﴿اللهُ﴾: فاعل . والضميرُ «هم»: في محلِّ نَصْبٍ مفعولٍ به أول . وأفعلُ التفضيلِ ﴿أَحْسَنَ﴾: مفعولٌ به ثان . و﴿مَا﴾: مصدرية . وجملةُ ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: مصدرية ؛ وهذه الجملةُ المصدريةُ في محلِّ جَرِّ مُضَافٍ إليه لأفعلِ التفضيلِ ، والتقديرُ: كتبَ اللهُ للمجاهدين الأجرَ ليجزيهم أحسنَ أعمالِهِم .

واختيارُ أفعلِ التفضيلِ ﴿أَحْسَنَ﴾ في هذا المقامِ مقصود ، وذلك للإشارة إلى أَنَّ الأعمالَ المتصلةَ بالجهادِ هي أحسنُ أعمالِ المجاهدين الحسنة .

إِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ نَوْعَانِ :

الأولُ: أعمالٌ حَسَنَةٌ: وهي أعمالٌ صالحةٌ خَيْرَةٌ ، يَقْبَلُهَا اللهُ مِنْ أَصْحَابِهَا .

الثاني: أعمالٌ أَحْسَنُ من الأعمالِ الحسنة ، وهي الأكثرُ حُسْنًا ، والأكثرُ دِقَّةً وَأَدَاءً وَإِتْقَانًا ، وهي الأرفعُ والأكرمُ والأسمى .

وأعمالُ المجاهدين من النوعِ الثاني ، لأنها هي الأحسنُ والأفضلُ . . واللهُ يُريدُ من العاملين أَنْ يَعْمَلُوا الْأَعْمَالَ الْأَحْسَنَ ، وليست الأعمالُ الحسنة . . وعلى هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَلْوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] .

والتعبيرُ بالفعلِ الماضي «كان» مقصود ، فهو يدلُّ على الكينونةِ والدوامِ ، أي أَنَّ أعمالَهُم الصَّالِحَةَ - ومنها حركَتُهُم الجهاديةُ - كائنةٌ دائمةٌ ، مُلَازمةٌ لهم ، لا تَنفصلُ عنهم .

والتعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مقصود أيضاً ؛ فالمضارعُ يدلُّ على التجددِ والحدوثِ ، ومعنى هذا أنَّ أعمالهم الصالحةَ متجددةٌ متواصلةٌ ، لا تتوقَّفُ .

واللطفُ الجمعُ بين الماضي والمضارعِ في ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، لأنَّ جملةَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ خبرٍ ﴿كَانُوا﴾ . ومحييُّ المضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبراً للماضي ﴿كَانُوا﴾ جمالٌ ملحوظٌ في التعبيرِ القرآني . . . واللطفُ أنَّ الماضي الدالَّ على الدوامِ ، في الإخبارِ عن المجاهدين ، وأنَّ المضارعَ الدالَّ على التجددِ ، في الإخبارِ عن أعمالهم . . . ومعنى هذا أنَّ تواصلَ واستمرارَ وتجدُّدِ أعمالِ المجاهدين الصالحةِ صفةٌ ملازمةٌ دائمةٌ لهم ، لا تُفارقُهُم ! .

من لطائف الآيتين:

في هاتين الآيتين مجموعةٌ من اللطائفِ الرائعةِ ، من أهمِّها:

١ - في قوله: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نهيٌ للمؤمنين عن التخلفِ ، ولكنَّ هذا النهيَ في صورةِ الخبرِ ؛ فالجملةُ خبريةٌ في الظاهرِ ، لكنها طلبيةٌ في الحقيقةِ ، وهذا يُسمى : «طلبٌ في صورةِ الخبر» .

٢ - حُذِفَتْ لَامُ الجحودِ من خبرِ «كان» المنفيةِ . وإذا كانَ خبرُ «كان» المنفيةِ جملةً فعليةً فإنَّ «لامَ الجحود» تَدْخُلُ عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة: ١٢٢] ؛ جملةٌ ﴿ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ : في محلِّ نصبٍ خبرٍ ﴿ كَانِ ﴾ ، أي: ما كانَ المؤمنونَ نافرِينَ كَافَّةً ، وأدخلتْ على الجملةِ لَامُ الجحودِ لتدلَّ على مزيدٍ من التوكيدِ .

ولامُ الجحودِ هي كُلُّ لامٍ داخليةٍ على فعلٍ مضارعٍ ، ويُنصبُ بـ«أن» مضمرةً بعدَ اللامِ ، ولا بُدَّ أنَّ تُسبقَ لامُ الجحودِ بـ«كان» المنفيةِ ! .

ولو أُدخلتْ لَامُ الجحودِ على الجملةِ المصدريةِ لَقَالَتْ : ما كانَ لأهلِ المدينةِ ومن حولهم من الأعرابِ ليتخلفوا عن رسولِ الله .

وقد انصبَّ النفي على الجملة المصدرية ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا﴾ ، وهو أبلغ صيغ النفي . والمعنى : ما كَانَ التخلُّفُ عن رسول الله أَنْ يَصْدَرَ عن أهل المدينة!! .

٣ - في الآية جملتان منفيتان :

الأولى : منفية بحرف ﴿مَا﴾ : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ .

الثانية : منفية بحرف ﴿لَا﴾ : ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ .

وعُطِفَت الجملة الثانية على الأولى بحرف ﴿لَا﴾ بعد واو العطف ، ونصب الفعل المضارع : ﴿يَرْغَبُوا﴾ بـ «أَنَّ» المضمرة ، وعلامة نصبه حذف النون ، لأنه من الأفعال الخمسة ؛ لأنه معطوف على المضارع المنصوب ﴿يَتَخَلَّفُوا﴾ .

ويبدو في هذا العطف التدرُّج في نفي السوء والقبح عن المجاهدين ، ولذلك انتقلت الآية من نفي السيِّ القبيح عن المجاهدين - وهو التخلُّف عن رسول الله ﷺ - إلى نفي الأسوأ والأقبح - وهو أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ . فالتدرُّج في نفي السوء عن المجاهدين واضح .

ويُفْهَم من الجملتين أَنَّ الجملة الثانية سبب في وقوع الجملة الأولى ، بمعنى أَنَّ الذي يَدْفَعُ ضِعْفَ الْإِيمَانِ إِلَى أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هو أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْغَبُونَ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، فالحرصُ على سلامة النفس يَفُودُ إِلَى التخلُّفِ عن الجهاد .

٤ - تَعَدَّى فعلٌ ﴿يَرْغَبُوا﴾ إِلَى ما بعده بحرفين : الباء وعن : ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ .

ويتحدَّدُ معنى «رَغَبَ» بالحرف الذي تَعَدَّى به ، وله أربع حالاتٍ من تَعَدَّيهِ لما بعده :

الأولى : يتعدَّى بحرف «إِلَى» . تقولُ : رَغِبْتُ إِلَيْهِ كَذَا . أي : سَأَلْتَهُ إِتْيَاهُ ، وَطَلَبْتُهُ مِنْهُ ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ .

الثانية: يَتَعَدَى بحرفٍ «عن». تقول: رَغِبْتُ عن الشيء. أي: تركته وزهدتُ فيه.

الثالثة: يَتَعَدَى بحرفٍ «في». تقول: رَغِبْتُ في الشيء. أي: أحببته وملتُ إليه.

الرابعة: يتعدى بحرفِ الباء. تقول: رَغِبْتُ به. أي: أردتُه.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ مرغوبان:

الأوّل: المرغوبُ به ، وهو ما دَخَلَتْ عليه الباء: ﴿وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وهو الذي أَرَادُوهُ وَطَلَبُوهُ وحرصوا عليه ؛ وهو: أنفسهم.

الثاني: المرغوبُ عنه ، وهو ما دَخَلَ عليه حرفُ ﴿عَنْ﴾: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ ، وهو نفسُ رسولِ الله ﷺ. والمرغوبُ عنه هو المستبعدُ المتروك الذي تجافوا عنه وزهدوا فيه.

إنَّ إِدْخَالَ الباءِ على المرغوبِ فيه يدلُّ على المِلاصَّةِ والمِلاصَّةِ والمِصاحبةِ ، أيَّ أَنَّ مَنْ رَغِبُوا بِأَنْفُسِهِمْ ، فَإِنَّ هَذِهِ الرِّغْبَةَ ملازمةٌ لهم لا تفارقهم.

وإِدْخَالَ ﴿عَنْ﴾ على المرغوبِ عنه يدلُّ على المتروك ؛ لِأَنَّ مِنْ أَهَمِّ معاني ﴿عَنْ﴾ هو: التَّجَاوُزُ وَالإِنْتِقَالَ.

وَلَا يُمَكِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ المِجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ أَنْ يَفْعَلُوهَا ، وَأَنْ يَحْرُصُوا على سِلامَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَنْ يَتْرَكُوا رسولَ اللهِ ﷺ ، وَيَتَجَاوَفُوا عنه وَيَزْهَدُوا فيه!!.

٥ - اجتمع في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ...﴾ الإِشَارَةُ والسَّبِيبةُ ، بهدفِ التعليلِ.

﴿ذَلِكَ﴾: اسمُ إِشَارَةٍ ؛ والمِشَارُ إليه ما وَرَدَ في الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾. والتقدير: ذلك الفعلُ الصَّادِرُ عن أَهْلِ المَدِينَةِ ، وهو عَدَمُ التَّخَلُّفِ عن رسولِ اللهِ ﷺ ، وَعَدَمُ الرِّغْبَةِ بِأَنْفُسِهِمْ عن نَفْسِهِ.

والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ...﴾ باء السببية؛ أي: بسبب أنه لا يصيبهم.

وباجتماع الإشارة مع السببية صارت الجملة للتعليل ، وكأنها جوابٌ على تساؤلٍ يثور في ذهن القارئ: لماذا يُسارعُ المجاهدون للجهاد؟ ولماذا لم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ؟.

تقدم الجملة التعليلية الجواب: السبب هو حرصهم على الأجر ، فكلُّ ما أصابهم في الجهاد من مصائب وشدائد وآلام وتضحيات ، مكتوبٌ لهم عند الله .

٦ - من المعلوم أنَّ اجتماع ﴿لا﴾ النافية و﴿إلا﴾ الاستثنائية يدلُّ على معنى الحصر ، وهذا واضحٌ في جملة: ﴿بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ والمعنى المحصور هو كتابة الأجر على كلِّ ما يصيبهم ، وكلُّ ما يفعلونه . وجملة ﴿لا يُصِيبُهُمْ﴾ الحصرية في محلِّ رفع خبر ﴿أن﴾ . والتقدير: ذلك الخروج وعدم التخلف بسبب أنهم مأجورون على كلِّ شيء أثناء جهادهم .

٧ - حَصرت الجملة خمسة أعمالٍ تتعلَّق بالمجاهدين أثناء حركتهم الجهادية ، وهذه الأعمال الخمسة قِسْمان:

الأول: أعمالٌ لا إرادية ، وهي الثلاثة الأولى: ﴿لا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فالظمُّ حاجةٌ بيولوجية لا إرادية ، والنَّصَبُ حاجةٌ جسدية لا إرادية ، يَنْتَجُ عن الحركة والجهد ، والمخْمَصَةُ: جوعٌ لا إراديٌّ يتأثر به البدن عندما يحتاجُ إلى طعام .

والمجاهدون مأجورون على هذا العطش والتعب والجوع ، تكريماً من الله لهم!

الثاني: أعمالٌ إراديةٌ مكتسبة ، لهم فيها اختيارٌ وقصدٌ ، وهما الاثنان الآخران المذكوران في الآية: ﴿وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ .

إِنَّ وَطَأَهُمْ بِلَادَ الْكُفَّارِ وَدَوَسَهُمْ فِيهَا عَمَلٌ إِرَادِيٌّ كَسْبِي ، وَإِنَّ نَيْلَهُمْ أَيَّ نَيْلٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، عَمَلٌ إِرَادِيٌّ كَسْبِي ، وَهُمْ مُأْجِرُونَ عَلَى هَذَا الْوَطْءِ وَهَذَا النَّيْلِ .

٨ - أُدخِلْتُ ﴿لَا﴾ النافية ، التي هي لِلْحَضْرِ هنا على الأعمالِ الجهاديةِ الخمسةِ بِقِسْمَيْهَا: الإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ الإِرَادِيَّةِ ، وَذَلِكَ لِتَأْكِيدِ الْحَقِيقَةِ الْمُحْصَرَّةِ وَتَرْسِيخِهَا ، وَهِيَ كِتَابَةُ الْأَجْرِ الْمُسْتَقِلِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَمْسَةِ .

فَرَقَ بَعِيدٌ بَيْنَ قَوْلِكَ : لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَنَصَبٌ وَمُخْمَصَةٌ وَيَطْوُونَ مَوْطَأً وَيُنَالُونَ نَيْلًا . . . وَبَيْنَ مَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ ؛ فِي الْجُمْلَةِ الْمُفْتَرَضَةِ السَّابِقَةِ كُلِّ الْأَعْمَالِ الْخَمْسَةِ مَجْمُوعَةً بِحَضْرٍ وَاحِدٍ ، وَرَدَ فِي الْعَمَلِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الظَّمُّ ، فَكَانَهَا جُمِعَتْ كُلُّهَا بِحَضْرٍ وَاحِدٍ . أَمَّا فِي الْآيَةِ فَكُلُّ عَمَلٍ مِنَ الْخَمْسَةِ أَخَذَ حَضْرًا كَامِلًا ، لِأَنَّ ﴿لَا﴾ الْحَصْرِيَّةَ دَخَلَتْ عَلَيْهِ . . وَفَرَقَ بَيْنَ تَقْسِيمِ حَضْرِ وَاحِدٍ عَلَى خَمْسَةِ أَعْمَالٍ ، وَبَيْنَ إِعْطَاءِ كُلِّ عَمَلٍ ﴿لَا﴾ حَصْرِيَّةً خَاصَّةً بِهِ !! .

٩ - اِخْتَلَفَتِ الصِّيَاغَةُ فِي الْآيَةِ بَيْنَ الْأَعْمَالِ الإِرَادِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ اللَّإِإِرَادِيَّةِ ؛ فَاخْتَلَفَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ فِيهَا ، وَاخْتَلَفَ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ فِيهَا . وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ : حَصَلَ تَنَاوُبٌ بَيْنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ فِي الْجُمْلَتَيْنِ ، فَالْمَفْعُولُ بِهِ فِي الْأَعْمَالِ اللَّإِإِرَادِيَّةِ صَارَ فَاعِلًا فِي الْأَعْمَالِ الإِرَادِيَّةِ ! .

جَاءَ التَّعْيِيرُ عَنِ الْأَعْمَالِ اللَّإِإِرَادِيَّةِ : ﴿يَأْتَهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَكِيلِ اللَّهِ﴾ :

الضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ فِي ﴿يُصِيبُهُمْ﴾ فِي مَحَلِّ نَصَبِ مَفْعُولٍ بِهِ مُقَدَّمٌ .
﴿ظَمًا﴾ : فَاعِلٌ مُؤَخَّرٌ . وَقُلْ هَكَذَا فِي النَّصَبِ وَالْمَخْمَصَةِ . وَالتَّقْدِيرُ :
لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا ، وَلَا يُصِيبُهُمْ نَصَبٌ ، وَلَا تُصِيبُهُمْ مَخْمَصَةٌ .

وَإِسْنَادُ الْإِصَابَةِ إِلَى الظَّمِّ وَالنَّصَبِ وَالْمَخْمَصَةِ يُشِيرُ إِلَى لَفْتَةِ نَفْسِيَّةِ بَشَرِيَّةِ ، لِأَنَّ الْعَطَشَ وَالتَّعَبَ وَالجُوعَ أَشْيَاءَ لَا إِرَادِيَّةَ ، لَا بَدَّ أَنْ تُصِيبَ الْإِنْسَانَ ، وَلَا إِرَادَةَ وَلَا كَسْبَ لَهُ فِيهَا ، وَفَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا نَفْسَهُ ، فَكُلُّ مَنْ أَحْتَاَجَ إِلَى الْمَاءِ وَلَمْ يَجِدْهُ يُصِيبُهُ الظَّمُّ رَغْمًا عَنْهُ ، وَكُلُّ مَنْ بَدَلَ جَهْدًا كَبِيرًا ،

لا بدَّ أَنْ يُصِيبَهُ التَّعَبُ وَالْعَطَشُ ، وَكُلُّ مَنْ احتاجَ إِلَى الطَّعَامِ وَلَمْ يَجِدْهُ يُصَابُ
بِالجُوعِ .

فهذه الأشياءُ الثلاثةُ تُصِيبُ الإنسانَ رَغْماً عنه ، ولذلك كان كُلُّ منها هو
فاعلُ الفعلِ ، وكانَ المجاهدون مفعولاً به !! .

ولما عَبرت الآيةُ عن الفعلين الإِراديين صارَ المفعولُ به - الضميرُ العائدُ
على المجاهدين - فاعِلاً ، وتمَّ إِسنادُ الفعلين المذكورين إلى المجاهدين :
﴿ وَلَا يَطْطُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ﴾ ؛ لِأَنَّ
المجاهدين هم الذين يتحرَّكون حركةً إِراديَّةً جهاديةً ، ولذلك كانَ إِسنادُ
الوطءِ والنَّيلِ إليهم .

وتحويلُ المفعولِ به في الأفعالِ الثلاثةِ الأولى إلى فاعلٍ في الفعلين
الأخيرين جمالٌ ملحوظٌ ! .

١٠ - عادَ الضميرُ في ﴿ بِهِ ﴾ على ﴿ ظَمًا ﴾ والمعطوفين عليه : ﴿ لَا
يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وجاءَ مذكراً من بابِ التَّغْلِيْبِ ، لِأَنَّ
أربعةً من المذكوراتِ الخمسةِ مذكَّرةٌ فعَلَبَ المذكَرَ على المؤنَّثِ ، وقال :
﴿ كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ . والتقدير : كُتِبَ لَهُمْ بِكُلِّ واحِدٍ مِنَ المذكورين
في الآيةِ عملٌ صالحٌ .

١١ - الباءُ في ﴿ بِهِ ﴾ بَاءُ العِوَضِ والبَدَلِ ، أُدخِلتْ على المبدلِ منه ، وهو
المذكوراتُ الخمسة : الظمأُ والنصبُ والمخمصةُ والوطءُ والنَّيلُ . . . والبَدَلُ
بعدَ الضميرِ وهو ﴿ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ .

وَدَلَّتْ بَاءُ البَدَلِ في ﴿ بِهِ ﴾ على أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الأعمالِ الخمسةِ
لا يُكْتَبُ لَهُمْ بِنَفْسِهِ وَإِنما يُكْتَبُ لَهُمْ بِدَلِّهِ ومُقابله؛ فالعملُ الصالحُ بَدَلٌ من
الظمأُ والنَّصَبِ والمخمصةِ والوطءِ والنَّيلِ .

ولم يُكْتَبِ العملُ نَفْسُهُ لَهُمْ ، وَإِنما كُتِبَ لَهُمْ بِدَلِّهِ ، لِأَنَّ معظمَ
المذكوراتِ لا إِراديَّةُ ، وكُلُّ واحِدٍ منها يُصِيبُ الإنسانَ بدونَ إِرادَتِهِ ، فلم
يُكْتَبْ لِأَنه لا إِراديٌّ ، إِنما كُتِبَ لَهُمُ العملُ الصالحُ بَدَلًا عنه . وهذه لفتةٌ
لطيفةٌ .

١٢ - جاءت الجملة الأخيرة من الآية الأولى تعليلاً للأعمال الخمسة المذكورة قبلها ، وكأنها جوابٌ على سؤالٍ قد يتبادرُ إلى ذهن القارئ: لماذا يكتبُ اللهُ عملاً صالحاً بكلِّ ظمأٍ أو نصبٍ أو مخمصةٍ أو وطءٍ أو نيلٍ؟ يكتبُ اللهُ لهم ذلك لأنهم مجاهدونٌ مُحْسِنون ، والله لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين .

ووصفهم بأنهم مُحْسِنون مقصود . و«مُحْسِنون» جمعٌ ، مفردُه «مُحْسِن» ، وهو اسمُ فاعلٍ ، واسمُ الفاعلِ مُلازمٌ لصاحبه لا يُفارقُه ، وهو صفةٌ دالةٌ على الثبات والاستقرار .

وهم نالوا شهادةً من الله بأنهم مُحْسِنون ، بعدما قاموا بالأعمالِ الجهادية الخمسة ، ودلَّ هذا على أنَّ الجهادَ إِحْسَانٌ ، وأنَّ كُلَّ عملٍ يصدرُ عن المجاهدِ إِحْسَانٌ ، سواء كانَ هذا العملُ إراديّاً كالوطءِ في بلادِ الكفارِ والنَّيْلِ منهم ، أو كانَ لا إراديّاً كالجوعِ والعطشِ والتعبِ .

وبما أنَّ المجاهدَ مُحْسِنٌ في هذه الأعمالِ فإنَّ اللهَ يَكْفِيهِ إِحْسَانَهُ بِإِحْسَانٍ ، فيكتبُ له بها عملٌ صالحٌ ، لأنه لا جزاءَ للإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ .

١٣ - وردَ في الآية خمسُ كلمات ، كلُّ منها نكرةٌ مُنَوَّنةٌ : ظمأٌ ، ونصبٌ ، ومخمصةٌ ، وموطئاً ، ونَيْلاً .

وهذا التنوينُ والتنكيرُ مقصودٌ ، والنكراتُ الخمسُ في سياقِ النفيِ ، ومن المعلومِ أنَّ النكرةَ في سياقِ النفيِ للعمومِ والشمولِ . وهذا العمومُ ليشملُ كُلَّ نَسَبٍ ودرجاتٍ ومستوياتِ الأعمالِ الخمسةِ ، فأقلُّ نسبةٍ من الظمأِ والتعبِ والجوعِ والوطءِ والنَّيْلِ يُكتبُ لهم بها عملٌ صالحٌ ، حتى لو كانتْ أقلَّ من واحدٍ بالمئةِ ! .

١٤ - المجاهدونُ يجاهدونَ الكفارَ الأعداءَ ، وقد نَوَّعتْ الآيةُ في حديثها عنهم ، وذلك في قولها : ﴿ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا ﴾ ؛ ففي وَطءِ البلادِ ذَكَرَتْ كلمةَ ﴿ الْكُفَّارِ ﴾ بصيغةِ الجَمْعِ ، وفي النَّيْلِ والإصابةِ ذَكَرَتْ كلمةَ ﴿ عَدُوِّ ﴾ بالمفردِ . فما حكمةُ العدولِ عن الكفارِ إلى العَدُوِّ؟ وما حكمةُ التعبيرِ عن الأولى بالجمعِ وعن الثانيةِ بالمفردِ؟ .

وطءُ البلادِ يُناسِبُه الإخبارُ عنهم بالكفارِ ، والإخبارُ عنهم بالجمعِ : ﴿ وَلَا

يَطَّوُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴿١٥﴾. إِنَّ الوَطَاءَ هُنَا احتلال ، ولذلك عَبَّرَ عَنْهُ بِاسْمِ الْمَكَانِ ﴿مَوْطِنًا﴾ . وَالْهَدْفُ مِنْ هَذَا الْوَطَاءِ وَالذُّؤَسُ هُوَ إِغَاظَةُ الْكُفَّارِ ، وَإِقْبَاعُ الْحَسْرَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ؛ فَالْوَطَاءُ وَالْإِغَاظَةُ حَرْبٌ نَفْسِيَّةٌ ، وَلِذَلِكَ نَاسَبَ وَصْفُ الْآخَرِينَ بِالصِّفَةِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِيهَا عَنِ الْمَجَاهِدِينَ ، وَنَاسَبَ التَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِالْجَمْعِ ، لِتَشْمَلِ الْإِغَاظَةُ أَكْبَرَ عَدَدٍ مِنْهُمْ ، فَقَالَتِ الْآيَةُ : ﴿ وَلَا يَطَّوُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ .

أَمَّا النَّيْلُ فَهُوَ الْإِصَابَةُ ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ نَيْلٍ يَنَالُونَهُ مِنْهُمْ ، مَهْمَا كَانَ نَوْعُهُ ، سَوَاءَ كَانَ مَادِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا ، نَفْسِيًّا أَوْ عَصَبِيًّا ، سِيَاسِيًّا أَوْ اِقْتِسَادِيًّا أَوْ إِعْلَامِيًّا ، أَوْ دَاخِلِيًّا أَوْ خَارِجِيًّا أَوْ دَوْلِيًّا ، وَلِأَنَّ فِي النَّيْلِ إِصَابَةٌ وَوُقُوعٌ ، نَاسَبَ أَنْ يَصِفَ الْكُفَّارَ بِصِفَةٍ أُخْرَى تَتَوَافَقُ مَعَ النَّيْلِ ، فَوَصَفَهُم بِالْعِدَاوَةِ ! وَلِأَنَّ النَّيْلَ عَامٌّ شَامِلٌ نَاسَبَ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْمَفْرَدِ : ﴿ مِنْ عَدُوِّ ﴾ ، لِشَمْلِ النَّيْلِ كُلِّ عَدُوٍّ مِنْهُمْ !! .

وَفِي الْعُدُولِ عَنْ وَصْفِ الْكُفَّارِ إِلَى وَصْفِ الْأَعْدَاءِ جَمَالٌ مَقْصُودٌ ، وَفِي مَقَابَلَةِ الْجَمْعِ فِي ﴿ الْكُفَّارَ ﴾ بِالْمَفْرَدِ فِي ﴿ عَدُوِّ ﴾ جَمَالٌ آخَرَ مَعْجَزٌ فِي الْبَيَانِ الْقِرْآنِيِّ .

١٥ - سَجَلَتِ الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ عَمَلَيْنِ إِرَادِيَّيْنِ يَصُدْرَانِ عَنِ الْمَجَاهِدِينَ : ﴿ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ ﴾ .

وَهَذَانِ الْعَمَلَانِ لَا يَنْتُجَانِ إِلَّا عَنْ قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ ، وَرَغْبَةٍ وَنِيَّةٍ وَإِرَادَةٍ ، وَهُمَا عَمَلَانِ مُتَقَابِلَانِ فِي الْحَرَكَةِ الْجِهَادِيَّةِ الَّتِي يَتَحَرَّكُ بِهَا الْمَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

الأول : الإنفاق على الجهاد ، ودَعْمُهُ وَتَمْوِيلُهُ ، وَرِضْدُ الْأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ لَهُ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَجْهِيزَ الْمَجَاهِدِينَ يَحْتَاجُ إِلَى نَفَقَاتٍ ، مِنْهَا نَفَقَاتٌ صَغِيرَةٌ قَلِيلَةٌ ، وَمِنْهَا نَفَقَاتٌ كَبِيرَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَكُلُّ هَذِهِ النَفَقَاتِ مَكْتُوبَةٌ لِأَصْحَابِهَا ، وَهُمْ مُأْجِرُونَ عَلَيْهَا .

الثاني : قطع الأودية ، وهذا حركةٌ عمليةٌ ، وَنَشَاطٌ مِيدَانِيٌّ ، يَنْتُجُ عَنِ الْمَجَاهِدِينَ بِأَنْفُسِهِمْ ، الَّذِينَ خَرَجُوا لِلْجِهَادِ .

وَعَطَفُ الْعَمَلِ الثَّانِي عَلَى الْعَمَلِ الْأَوَّلِ لَطِيفٌ ؛ فَالْعَمَلُ الْأَوَّلُ أَعْمٌ ، لِأَنَّ
 الْإِنْفَاقَ عَلَى الْجِهَادِ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْخَارِجِينَ لِلْجِهَادِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ ،
 مِنَ الْمَعْدُورِينَ الْمُرْتَحِّصِ لَهُمْ بِالْقَعُودِ ، أَوْ مِنَ الْمُتَثَاقِلِينَ عَنِ الْجِهَادِ ، فَكُلُّ
 مُسْلِمٍ أَوْ مُسْلِمَةٍ كُتِبَ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ لِلْجِهَادِ أَوْ لَمْ يُكْتَبْ ، يُمَكِّنُهُ أَنْ يُنْفِقَ عَلَى
 الْجِهَادِ آيَةً نَفَقَةً ، فَلَوْ أَنْفَقَ أَقَلَّ مِنْ دَرَاهِمٍ عَلَى الْجِهَادِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا مِنْهُ ،
 وَهَذَا هُوَ الْجِهَادُ بِالْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! .

أَمَّا سَيْرُ الْمُجَاهِدِينَ وَحَرَكَتُهُمُ الْجِهَادِيَّةُ وَقَطْعُهُمُ الْأُودِيَّةَ ؛ فَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى
 جُهْدٍ وَقُوَّةٍ بَدَنِيَّةٍ ، وَهَذَا هُوَ الْجِهَادُ بِالنَّفْسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

لَقَدْ شَمَلَ الْعَمَلَانِ الْجِهَادِيَّانِ كُلَّ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ الْمَالِيِّ وَالْجِهَادِ الْبَدَنِيِّ ،
 وَعَطَفْتُ الثَّانِي مِنْ بَابِ عَطَفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ ، وَمِنْ بَابِ عَطَفِ الْمَرْحَلَةِ
 الثَّانِيَّةِ وَهِيَ قَطْعُ الْأُودِيَّةِ عَلَى الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى وَهِيَ الْإِنْفَاقُ الْعَامُّ .

١٦ - عِنْدَمَا ذَكَرْتُ الْآيَةَ الثَّانِيَّةَ قَبُولَ أَعْمَالِ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ ، أَخْبَرْتُ عَنْ كِتَابَةِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ بِذَوَاتِهَا ، وَأَسْقَطْتُ بَاءَ الْبَدَلِ
 وَالْعَوَاضِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ .

وَفَرَقْتُ بَعِيدٌ وَلَطِيفٌ بَيْنَ قَوْلِهِ عَنِ الْأَعْمَالِ الْخَمْسَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ : ﴿ إِلَّا
 كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ عَنِ الْعَمَلَيْنِ الْجِهَادِيَّيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ :
 ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ .

وَلَا نَنْسَى أَنَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مَذْكُورٌ ، وَهُوَ الْبَدَلُ الَّذِي كُتِبَ
 لَهُمْ مُقَابِلَ أَعْمَالِهِمْ ، وَهُوَ ﴿ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ . وَأَنَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ هَذَا مَحْذُوفٌ
 فِي الْآيَةِ الثَّانِيَّةِ : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ، وَالتَّقْدِيرُ : كُتِبَ لَهُمْ عَمَلُهُمْ فِي الْإِنْفَاقِ
 وَقَطْعِ الْأُودِيَّةِ !! .

فَرَقْتُ بَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا
 كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ، فَالْجُمْلَةُ الْأُولَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ عَوَاضًا
 وَبَدَلًا عَنْ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ . . . أَمَّا الْجُمْلَةُ الثَّانِيَّةُ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَمَلَهُمْ يُكْتَبُ
 لَهُمْ نَفْسُهُ ، وَلَيْسَ شَيْئًا آخَرَ بَدَلَهُ .

وهناك حكمة عظيمة مقصودة في ذكر نائب الفاعل وذكر باء العوض في الجملة الأولى ، وحذف ذلك من الجملة الثانية :

إنَّ معظمَ الأعمالِ الأولى أعمالاً لا إرادية ، فلا تكتَبُ نفسها للمجاهدين ، إنما يُكتَبُ لهم عملٌ صالحٌ عوضاً وبدلاً عنها ، كما سبق أن بيَّنا .

أما العمَلان المذكوران في الآية الثانية فهما عمَلان إراديَّان ، يصدُران عن نيَّة ورغبة ، وقصد وإرادة ، وهما مُباركان مبروران بنفسيهما ، ولذلك يُكتَبُ اللهُ كُلُّا منهما بنفسِه للمجاهدين ، ويأجرُه عليه بذاته ، ولا داعيَ لذكر باءِ البدلِ والمعاوَضَةِ هنا .

وبهذا نعرفُ أنَّ إدخالَ باءِ العوضِ والبدلِ على الآيةِ السابقة مقصود ، وأنَّ حذفها من الآيةِ الثانية مقصود ، وأنَّ ذكرَ نائبِ الفاعلِ في الآيةِ السابقة مقصود ، وأنَّ حذفه من هذه الآيةِ مقصود ، وسبحانَ مُنزِّلِ هذا القرآنِ العظيمِ المعجزِ !! .

١٧ - اختلفتْ خاتمةُ هذه الآيةِ عن خاتمةِ الآيةِ السابقة ، لاختلافِ مستوى أعمالِ المجاهدين الممدوحين في الآيتين .

اختلفتْ الآيةُ السابقةُ بجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، فوصفتْ المجاهدينَ بأنهم محسنون ، وأنَّ اللهُ لا يُضِيعُ أَجْرَهُم ، الذي منحهم إياه عوضاً عن ما أصابهم من شدائد ومصائب لا إرادية ، وما قاموا به من إغاطةٍ للعدوِّ .

أما هذه الآيةُ فقد اختلفتْ بجملة: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، وجاءتْ هذه الخاتمةُ تعليلاً للآية ، وكأنها جوابٌ على تساؤلٍ في ذهن القارئ: لماذا يكتبُ اللهُ للمجاهدين أَجْرَ إنفاقهم وخروجهم للجهاد؟ فتقدّم له الجملةُ الجوابُ والعلةُ: يكتبُ اللهُ لهم ذلك ليَجْزِيَهُمُ أَحْسَنَ ما كانوا يعملون .

اللامُ لامُ التعليل ، و﴿يجزيهم﴾ منصوبٌ بـ«أنَّ» مضمرةً بعد لامِ التعليل ، ونصبُ الفعلِ مفعولين: الأوَّلُ هو الضميرُ المتصل «هم» ، والثاني

هو أفعال التفضيل ﴿ أَحْسَنَ ﴾ . والمصدرُ من ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في محلِّ جرِّ مضافٍ إليه ، أي : ليجزيهم اللهُ أحسنَ أعمالهم .

وعَبَّرَ عن أعمالهم الجهادية بالفعل الماضي «كان» للدلالة على الدوام والكينونة . . وجاءَ خبرٌ ﴿ كَانُوا ﴾ جملةً فعليةً ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ للإشارة إلى التجدد والاستمرار . ويعودُ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ على الإنفاقِ على الجهادِ وقطعِ الأودية .

وتُشيرُ الجملةُ إلى أَنَّ الأعمالَ الجهاديةَ الصادرةَ عن المجاهدينَ مستمرةٌ متتابعة ، لا تنقطعُ ولا تتوقَّفُ ، وأنها صارتَ جزءاً من كيانهم ، ومعلماً من معالم حياتهم .

ويُشيرُ أفعالُ التفضيلِ ﴿ أَحْسَنَ ﴾ إلى أَنَّ أعمالَ المجاهدينَ الصالحةَ كثيرة ، وأنها متفاوتة ، فمنها الحَسَنُ ومنها الأحسن ، وأن من أحسنِ أعمالهم الإنفاقُ على الجهاد ، والنفيرُ للجهاد ، وقطعُ الأوديةِ مجاهدين .

ويُكرِّمُ اللهُ المجاهدين ، ويتقبلُ جهادهم ، ويجزيهم على أعمالهم الأحسن .

١٨ - من لطائفِ التعبيرِ في الآيتين ، مما يتصلُ بالحروف :

أ - ذُكِرَتْ ﴿ لَا ﴾ النافيةُ عشرَ مرات ، وهذا رائعٌ ولطيفٌ ، وكانتَ بمعنيين :

الأول : حرفُ نفي ، على ظاهرها ، وذلك في ثلاثِ مرات ، هي : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ﴾ ، و : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، و : ﴿ نَفَقَةٌ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ ﴾ .

الثاني : حرفُ نفي يُرادُ به الحصر ، لوقوعِ ﴿ إِلَّا ﴾ بعدها ، وذلك في المراتِ السبعِ الباقية : ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ ، ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ ، ﴿ وَلَا مَحْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً ﴾ ، ﴿ وَلَا يَنفِقُونَ نَفَقَةً ﴾ ، ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ .

ب - ذُكِرَتِ البَاءُ ثلاثَ مرات ، وكانت فيها كُلُّها حَرْفَ جَرٍّ ، ولكنها لم تَرِدْ على معنى واحد ، ولا على حالةٍ واحدة :

المرَّةُ الأولى : في قوله : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، وذكرنا أنها بَاءُ الملابسِ والمصاحبة ، وأنها جَرَّتْ اسماً ظاهراً .

المرَّةُ الثانية : في قوله : ﴿ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ﴾ ، وذكرنا أنها بَاءُ السببية ، وأنها جَرَّتْ ضميراً متصلاً ؛ أي أَنَّ المجاهدين ينشطون للجهاد بسببِ كتابة الأجرِ لهم .

المرَّةُ الثالثة : في قوله : ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ، وذكرنا أنها بَاءُ البدلِ والعوض ، وقد جَرَّتْ ضميراً متصلاً مفرداً .

وذكرُ الباءِ الجارَّةُ ثلاثَ مرات ، في كُلِّ مرَّةٍ لها معنى غير المرة الأخرى ، جمالاً في التعبير القرآني .

من أهم دلالات الآيتين :

ذكرنا بعضَ دلالاتِ الآياتِ أثناءَ حديثنا عن معانيها ، وتحليلنا لجمالها ، ووقوفنا أمامَ أهمِّ لطائفها ، ومن المناسبِ أَنْ نقفَ هنا لنستخلصَ أهمَّ تلكِ الدلالات :

١ - تنهى الآياتُ عن التخلفِ عن الخروجِ للجهاد ، من خلالِ نفيِ التخلفِ عن المجاهدين : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ ، وهذه الجملةُ خبرٌ في الظاهرِ لكنها نهيٌ في الحقيقة .

٢ - تدلُّ الآياتُ على وجوبِ الخروجِ للجهاد ، من خلالِ ثنائها على أهلِ المدينةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ من الأعرابِ ، لعدمِ تخلفهم ، ومدحهم لمسارعتهم في الخروجِ .

٣ - ذُكِرَ رسولُ الله ﷺ في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ لا يعني تخصيصَ الآياتِ به ، بمعنى أَنَّ الخروجَ للجهادِ واجبٌ ، والتخلفُ عنه حرامٌ إذا كان الخارجُ هو رسولُ الله

ﷺ ، إنما ذكره ﷺ لأنَّ السياق الذي وَرَدَتْ فِيهِ الْآيَاتُ يُحَدِّثُ عَنْ حَادِثَةِ جِهَادِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ ، عِنْدَمَا خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ .

إِنَّ حُكْمَ الْآيَاتِ بَاقٍ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَمَعْنَاهَا مُسْتَمِرٌّ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَحَقَائِقُهَا وَدَلَالَاتُهَا تَنْطَبِقُ عَلَى الْمَجَاهِدِينَ الصَّادِقِينَ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ ! .

٤ - أَنتِ الْآيَاتُ عَلَى مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ .

وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ هُمُ قَبَائِلُ حَسَنِ إِسْلَامِهَا ، مِثْلُ : غِفَارٍ وَأَسْلَمَ وَجُهَيْنَةَ .

وهؤلاء هم أفضل أصناف المسلمين ، وهم يُشكّلون «القاعدة الصلبة» ، التي أقامها وأنشأها رسول الله ﷺ ، وربّتها على عينيه ، ونصر الله بها الإسلام . . . لقد شكّلت القاعدة الصلبة من المهاجرين ، والأنصار ، والقبائل العربية المحيطة بالمدينة . وهذه القاعدة الصلبة هي التي صدّقت وثبّتت على الحق ، ولم تتأثّر بالهزات والزلازل ، التي أصابت المسلمين في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته .

٥ - يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّسَبَّوْا وَيَقْتَدُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنْ يُبْرَمِجُوا أَنْفُسَهُمْ وَحَيَاتَهُمْ عَلَى حَيَاتِهِ وَسِيرَتِهِ . . وهذا معناه أَنْ يَخْتَارُوا مَا اخْتَارَهُ ، وَأَنْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلَهُ ، وَأَنْ يَتْرَكُوا مَا تَرَكَهُ ، وَأَنْ يَسِيرُوا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي سَارَ فِيهِ .

ولا يجوز للمسلمين أَنْ يَخْتَارُوا خِلَافَ مَا اخْتَارَهُ ، وَأَنْ يَتْرَكُوا مَا أَحَبَّهُ . . وهذا معناه أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يُؤْثِرُوا الرَّاحَةَ وَالْقُعُودَ وَالسَّلَامَةَ ، عَلَى النَّفِيرِ وَالخُرُوجِ وَالجِهَادِ ، فَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَغِبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ .

وَخَيْرٌ مَنْ طَبَّقَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْقُرْآنِيَّةَ : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ حَيْثُ ضَعَفَتْ نَفْسُهُ قَلِيلاً ، وَرَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَلِيلاً ، ثُمَّ قَوَّى إِيمَانَهُ ، وَلَحَقَ بِالرَّسُولِ ﷺ فِي تَبُوكَ .

لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك ضَعَفَتْ هِمَّةُ أَبِي خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ قليلاً ، وَأَثَرَ الْقُعُودِ ، لِيَصْلَحَ بُسْتَانَهُ وَيَقْطِفَ ثَمَارَهُ . . . وبعد أن سار رسول الله ﷺ أياماً كان أبو خيثمة يعمل في بستانه . . . وكان له امرأتان ، وكلُّ واحدةٍ في عريش لها في البستان . . . فعمل يوماً في بستانه إلى الظهر ، ولما اشتدَّ الحرُّ ذهب إلى العريش ليستريح . . . وجد كلَّ واحدةٍ من امرأتيه قد جهَّزَتْ عريشها لاستقباله ، حيثُ رَشَّتْهُ بالماء ، وبرَّدَتْ فيه ماءَ الشرب ، وهَيَّأت فيه الطعام . . . ودَعَتْ كلُّ واحدةٍ أبا خيثمة إلى عريشها .

وقف أبو خيثمة بين العريشين ، وتذكَّر رسول الله ﷺ ، في سبِّهِ إلى تبوك في الحرِّ والتَّعب . . . وقارَنَ بينَ نفسه وبينَ رسولِ الله ﷺ ، ونظرَ إلى العريشين والمرأتين والطعام والشراب . . . ثم قال: رسولُ الله ﷺ في الصَّحِّ والحرِّ والريح ، وأبو خيثمة في ظلِّ باردٍ وطعامٍ مُهيَّأً وامرأةٍ حسناء! ما هذا بالإِنصاف!

وقوى إيمانه وعزيمته ، وقَرَّرَ الالتحاقَ بالرسولِ ﷺ ، وقالَ لامرأتيه: والله لا أدخلُ عريشَ واحدةٍ منكما ، حتى أَلْحَقَ برسولِ الله ﷺ . . . هَيَّا لي الزاد . . . ففَعَلتا . . . ثم ركبَ دابته ولحقَ برسولِ الله ﷺ ، فأدركه وقد نزلَ ﷺ بتبوك . ورأى الناسُ راكباً على الطريق ، فقالوا: يا رسولَ الله! هذا راكبٌ على الطريق مقبل . فقال ﷺ: «كنْ أبا خيثمة» . ولما اقتربَ عرفوه ، فقالوا: يا رسولَ الله! هو والله أبو خيثمة . . . فأقبلَ وسَلَّمَ على رسولِ الله ﷺ ، وقصَّ عليه قصَّته ، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخير .

٦ - تُشِيرُ الْآيَاتُ إِلَى فَضْلِ الْخُرُوجِ لِلجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْفَرْدِيَّةِ ، وَالنَّوَافِلِ وَالْفَضَائِلِ ، لِأَنَّهُ بِهِ يُنْصَرُّ دِينُ اللَّهِ ، وَيُوجَهُ أَعْدَاءُ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الْخُرُوجِ مَنْ كَانَ صَادِقَ الْإِيمَانِ ، وَلَا يُؤَثِّرُ الرَّاحَةَ وَالْعَافِيَةَ ، وَلَا يَقْعُدُ عَنِ نَصْرَةِ هَذَا الدِّينِ !! .

٧ - كَثِيراً مَا يُصَابُ الْمَجَاهِدُونَ أَثْنَاءَ خُرُوجِهِمْ لِلجِهَادِ بِكَثِيرٍ مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَشَقَّاتِ ، لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ سِمَاتُ طَرِيقِ الْجِهَادِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ مُعَبَّدَةً بِالرَّاحَةِ وَالسَّلَامَةِ ، وَلَا بِالْوُرُودِ وَالرِّيَاحِينَ ، وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِثْنَارٌ

الراحة والسلامة . . ولا بُدَّ أَنْ يتحمَّلَ المجاهدونَ كلَّ ما يُصيبُهُم من الشدائدِ
والمشقاتِ ، لأنَّ هذه من ضروراتِ الطريقِ .

وعلى المجاهدينَ أَنْ يواجهوا المَشَقَّاتِ والشدائدَ بالصبرِ والعزيمة ، وقوةِ
الإرادةِ ورفعِ مستوى التحمُّلِ والثباتِ .

٨ - المجاهدونَ مأجورونَ على كلِّ ما يُصيبُهُم في خروجهم للجهادِ ،
حتى الأمورُ اللاإراديةُ التي تُصيبُهُم ، بدونِ قصدٍ وإرادةٍ منهم ؛ يُوجِرُونَ
عليها ، كالعطشِ والجوعِ ، والتعبِ والأذى ، والحَرِّ والبردِ ؛ أيَّ أَنْ أُجِرَ
المجاهدينَ متواصلٌ منذ لحظةِ خروجِهِم للجهادِ من بيوتِهِم إلى عودتِهِم
إليها ؛ لأنه لا يخلو أحدُهُم من جوعٍ أو عطشٍ أو تعبٍ .

٩ - كلُّ أعمالِ المجاهدِ عبادة ، يكتبُ اللهُ له عليها الأجرَ والثوابَ ، حتى
الأمورُ الفطريةُ والبيولوجيةُ التي تصيبُهُ لأنه إنسانٌ ؛ عبادةٌ منه ، وله عليها
الأجرُ والثوابُ .

ومن الأدلةِ على فضلِ الجهادِ أَنَّ حركةَ المجاهدِ عبادةً ، وسيرهَ عبادةً ،
ونومهَ عبادةً ، وأكله وشُرْبَه عبادةً ، وجوعه وعَطْشُه عبادةً ، وتعبه وعرقه
عبادةً ، وراحتهُ وجلوسه عبادةً . . وله على كلِّ ذلكِ جزيلُ الأجرِ والثوابِ ؛
أيَّ أَنَّهُ في كلِّ لحظةٍ من يومه عابداً مأجوراً ، فكم سيكونُ أجرُهُ إذا استمرَّ في
جهاده شهوراً وسنواتٍ؟ .

١٠ - لا يتألَّ المجاهدُ الأجرَ المذكورَ ، ولا يكونُ عابداً في المجالاتِ
المذكورةِ إلا إذا استحضرَ نيَّتهُ عندَ خروجه للجهادِ ، واستمرَّ على تلكِ النيةِ
مُدَّةَ جهاده . . لا بُدَّ أَنْ يكونَ خروجه للجهادِ من أجلِ نصرَةِ دينِ الله ، وأنَّ
يكونَ خالصاً لله ، يبتغي بذلكِ وَجَهَ الله ، بدونِ رياءٍ أو تكبُّرٍ أو مباحاة . .
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ؛ لقد
قَيَّدتِ الآيةُ إصابةَ الظمأِ والتعبِ والجوعِ بِأَنَّها في سبيلِ الله ، لينالَ المجاهدُ
الأجرَ من الله .

وهذا ما وضحَهُ رسولُ الله ﷺ ، فقد سُئِلَ عن الرجلِ يُقاتِلُ حَمِيَّةً ،

ويقاتل رياءً ، ويُقاتل شجاعة . . أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةً اللهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ» .

١١ - يَجِبُ تَصْنِيفُ الْآخِرِينَ عَلَى أَسَاسِ الدِّينِ ، وَبَيَانِ قُرْبِهِمْ أَوْ بُعْدِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَسَاسِ الدِّينِ ، فَالْهَوِيَّةُ «الدِّينِيَّةُ» هِيَ الْأَسَاسُ فِي تَصْنِيفِ الْآخِرِينَ ، وَفِي تَحْدِيدِ طَبِيعَةِ الْمَوَاجِهَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ . . إِنَّ الْمُسْلِمِينَ يُجَاهِدُونَ الْآخِرِينَ لِأَسْبَابٍ دِينِيَّةٍ ، وَإِنَّ مَعْرَكَتَهُمْ مَعَ الْآخِرِينَ مَعْرَكَةٌ دِينِيَّةٌ ، وَإِنَّ الصِّفَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِهَؤُلَاءِ الْآخِرِينَ أَنَّهُمْ «كُفَّارٌ أَعْدَاءُ» ، وَيَنْظُرُ لَهُمُ الْمُجَاهِدُونَ بِهَذَا الْمَنْظَارِ ، وَيَتَعَامَلُونَ مَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ ، وَيُجَاهِدُونَهُمْ لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ . وَهَذَا مَا ذَكَرْتَهُ الْآيَاتُ: ﴿وَلَا يَطَّوُّونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا﴾ .

١٢ - عِنْدَ خُرُوجِ الْمُجَاهِدِينَ لِلْجِهَادِ لَا بُدَّ أَنْ يَحْرُصُوا عَلَى وَطْءِ مَوَاطِئِ الْكُفَّارِ ، وَهَذَا مَا أَرَشَدْتَهُمْ إِلَيْهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا يَطَّوُّونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ . وَمَرَّ مَعْنَى فِي تَحْلِيلِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ ﴿مَوْطِئًا﴾ اسْمٌ مَكَانٍ ، وَيُرَادُ بِهِ الْأَرْضُ أَوِ الْبَلَدُ أَوِ الْبُقْعَةُ ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى «الْبُعْدِ الْجُغْرَافِيِّ» لِلْجِهَادِ ، بِأَنَّ يَحْتَلُّ الْمُجَاهِدُونَ مَوَاقِعَ مِيدَانِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْكَافِرِينَ ، وَيَطَّوُّوْهَا وَيَدُوسُوهَا وَيَتَحَرَّكُوا وَيَتَجَوَّلُوا فِيهَا . . وَإِذَا لَمْ يَهْدَفِ الْمُجَاهِدُونَ مِنْ خُرُوجِهِمْ وَمَعَارِكِهِمْ إِلَى وَطْءِ أَرْضِي الْكُفَّارِ وَاحْتِلَالِ بِلَدَانِهِمْ ، لَمْ يَكُنْ لِلْخُرُوجِ أَوْ الْمَعَارِكِ فَائِدَةٌ!! .

١٣ - تَدُلُّ الْجُمْلَةُ الْفَعْلِيَّةُ: ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ عَلَى دَلَالَةِ مَهْمَةٍ ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَبَهَ وَيَلْتَفِتَ لَهَا الْمُجَاهِدُونَ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَحْرُصُوا فِي جِهَادِهِمْ وَمَعَارِكِهِمْ عَلَى «إِغَاظَةِ» الْكُفَّارِ ، وَأَنْ يَسْتَخْدِمُوا كُلَّ وَسِيلَةٍ يُعَيِّنُونَ بِهَا الْكُفَّارَ ، وَإِغَاظَتَهُمْ لِلْكُفَّارِ وَاجِبَةٌ ، وَهِيَ عِبَادَةٌ مِنْهُمْ لِلَّهِ!! .

وَالْإِغَاظَةُ تَعْنِي اسْتَفْزَازَ الْكُفَّارِ ، وَالْحَرْصَ عَلَى تَوَتُّرِ أَعْصَابِهِمْ ، وَمَلَأَ نَفُوسِهِمْ بِالْغَضَبِ وَالْحَقِيقِ وَالتَوَتُّرِ . . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا تَجُوزُ مِرَاعَاةُ «مَشَاعِرِ» الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ ، أَوْ الْحَرْصُ عَلَى «هُدُوءِ أَعْصَابِهِمْ»!! .

عَلَى الْمُجَاهِدِينَ إِبْقَاءَ نَفْسِيَّاتِ الْكُفَّارِ مُتَوَتِّرَةً ، وَأَعْصَابِهِمْ مُشْدُودَةً ، وَأَنَّ

يَمْلَأُوا قُلُوبَهُمْ غَيْظًا وَغَضَبًا ، حتى لا يَشْعُرُوا بالهدوء أو الراحة .

ومعنى هذا أَنَّ من مظاهر الحربِ بين المسلمين والكافرين «الحربِ النفسية» ، وهي تَسِيرُ مع «الحربِ العسكرية» جَنبًا إلى جَنبٍ . . . وَيَجِبُ على المجاهدين الصادقين أَنْ يَشْنُوا على الكفارِ حَرْبًا نفسيةً شديدةً ، يهدفون فيها إلى تحطيمِ معنوياتهم ونفسياتهم ، وقتلِ هممهم وعزائمهم . . . ومن مظاهر ذلك استخدامهم كلِّ ما يُؤدِّي إلى ملءِ قلوبهم غيظًا!! .

١٤ - على المجاهدين أَنْ يُحَسِّنُوا التخطيطَ في جهادهم الأعداء ، بأنَّ يحرصوا على أَنْ يَنَالُوا من هؤلاء الأعداء : ﴿ وَلَا يَنَالُونَكَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا ﴾ .

والنَّيْلُ في الآية عامٌ ، لَأَنَّ ﴿ نِيْلًا ﴾ في الجملة نكرة ، وتَنكِيرُها لعمومها وشمولها ، يدخلُ فيها كُلُّ صُورٍ ومظاهرٍ ومجالاتٍ وحالاتِ النَّيْلِ الذي يَنالونه من الأعداء .

والمرادُ بهذا العمومُ هنا إيقاعُ الأذى والضررِ في الكفارِ الأعداءِ المحاربين ، بمعنى أَنْ يَحْرَصَ المجاهدونَ على إيصالِ الأذى للأعداء ، وإصابتهم بالضرر ، وذلك لإغاثتهم وإغصابهم .

وكلُّ صُورٍ ومظاهرِ النَّيْلِ عبادة ، يتقرَّبُ بها المجاهدونَ إلى الله ، وَيَنَالُونَ بها الأجر ، وقد يكونُ هذا النَّيْلُ عسكرياً باستخدامِ الأسلحة ، وإصابةِ أفرادهم وجنودهم ، وقد يكونُ نِيْلًا اقتصادياً يُوجِّهُ لاقْتِصادِهم ، وقد يكونُ نِيْلًا عمرايياً يُوجِّهُ لمؤسساتهم ومراكزهم ومصانعهم وشوارعهم وجسورهم ومركباتهم ، وقد يكونُ نِيْلًا نفسياً يُوجِّهُ إلى هممهم وعزائمهم ، وقد يكونُ نِيْلًا إعلامياً يُوجِّهُ إلى أسماعهم وأبصارهم وعقولهم ، وقد يكونُ نِيْلًا دولياً يفضحهم في المراكزِ والمؤسساتِ والمحافلِ الدولية ، وقد يكونُ نِيْلًا استراتيجياً يُوجِّهُ إلى أهدافهم ومخططاتهم ورؤاهم المستقبلية ، وقد يكونُ نِيْلًا حضارياً يهدفُ إلى انتزاعِ القيادةِ والسيادةِ والحضارةِ منهم .

إنَّ المجاهدينَ في حالةِ حربٍ مع الكافرينِ المعادينِ المحاربين ، وإنَّ حَرْبَهُم لهؤلاءِ الأعداءِ «مفتوحة» على كافَّةِ أسلحتها واتجاهاتها ومظاهرها . وهم في كلِّ مظهرٍ ومجالٍ يَنالونَ من الأعداء ، وهذا النَّيْلُ يُؤدِّي إلى إضعافهم

وهزيمتهم ، وهذه هي طبيعة المعركة والمواجهة . . والمجاهدون بكلّ نيلٍ
عابدون مأجورون عند الله !! .

١٥ - يَكْتُبُ اللهُ بِكُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ الْمَجَاهِدُونَ فِي حَرَكَتِهِمُ الْجِهَادِيَّةِ عَمَلًا
صَالِحًا: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ؛ يَكْتُبُ لَهُمْ أَجْرُ عَمَلٍ صَالِحٍ بِكُلِّ
عَطَشٍ أَوْ جُوعٍ أَوْ تَعَبٍ ، أَوْ مُوَاجَهَةٍ أَوْ نَيْلٍ أَوْ قِتَالٍ . وَوَصَفُ الْعَمَلِ الَّذِي
يَكْتُبُهُ اللهُ لَهُمْ بِأَنَّهُ ﴿ صَالِحٌ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّ ذَلِكَ الْعَمَلَ الْجِهَادِيَّ ،
وَيُبَارِكُهُ وَيَحْفَظُهُ لِأَصْحَابِهِ ، وَيَأْجُرُهُمْ عَلَيْهِ .

وَتَرُدُّ هَذِهِ الْجُمْلَةُ: ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ عَلَى شِبْهَاتٍ
وَاتِهَامَاتٍ الْكَافِرِينَ لِلْمَجَاهِدِينَ . إِنَّهُمْ يَهْدِفُونَ إِلَى تَشْكِيكِ الْمَجَاهِدِينَ
بِالْجِهَادِ ، وَتَشْوِيهِ سَمْعَتِهِمْ أَمَامَ الشُّعُوبِ ، وَلِذَلِكَ يَصِفُونَ أَعْمَالَهُمُ الْجِهَادِيَّةَ
بِصِفَاتٍ بَاطِلَةٍ ، يَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا إِرْهَابٌ وَتَخْرِيْبٌ وَتَدْمِيرٌ ، وَعَنْفٌ وَإِفْسَادٌ
وَعُدْوَانٌ !! وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذِهِ الْاِتِّهَامَاتِ وَالتَّوْصِيْفَاتِ . . إِنَّ أَعْمَالَ
الْمَجَاهِدِينَ مُشْكُورَةٌ مَبْرُورَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَقَدْ كَتَبَ لَهُمْ بِهَا عَمَلًا
صَالِحًا !! .

١٦ - وَصَفَ اللهُ الْمَجَاهِدِينَ بِأَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ: ﴿ إِنَّكَ اللهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وَالْمَجَاهِدُونَ الصَّادِقُونَ الْمَخْلُصُونَ مُحْسِنُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ،
وَمِنْ ذَلِكَ حَرَكَتُهُمُ الْجِهَادِيَّةَ ، وَأَعْمَالُهُمُ الصَّادِرَةُ عَنْهُمْ أَثْنَاءَ حَرَكَتِهِمْ .
وَالْإِحْسَانُ هُوَ إِتْقَانُ الْعَمَلِ وَإِجَادَتُهُ ، وَأَدَاؤُهُ عَلَى أَحْسَنِ وَأَرْفَعِ وَأَرْقَى صُورِ
الْأَدَاءِ .

وهذا ردُّ آخرُ على شِبْهَاتِ الأَعْدَاءِ ضِدَّ الْمَجَاهِدِينَ ، فَهَمَّ قَدْ يَصِفُونَهُمْ
بِأَنَّهُمْ إِرْهَابِيُونَ ، أَوْ مُخْرَبُونَ ، أَوْ مُفْسِدُونَ ، أَوْ مُدْمِرُونَ ، أَوْ سَقَاكُوا
الدَّمَاءِ ، أَوْ قَتَلَةُ الأَبْرِيَاءِ !! وَهَذِهِ اِتِّهَامَاتٌ بَاطِلَةٌ ، سَرْعَانِ مَا تَتَلَاشَى أَمَامَ
وَصْفِ اللهِ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ .

١٧ - تُشِيرُ الآيَاتُ إِلَى نَوْعِي الْجِهَادِ الْمَعْرُوفَيْنِ: الْجِهَادِ بِالمَالِ ، وَالْجِهَادِ
بِالنَّفْسِ . الْجِهَادُ بِالمَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً ﴾ . وَالْجِهَادُ بِالنَّفْسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ ، إِضَافَةً

إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَلَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ .

١٨ - أَيُّ إِنْفَاقٍ عَلَى الْجِهَادِ عَمَلٌ مَبْرُورٌ مُتَقَبَّلٌ ، يُؤَجَّرُ عَلَيْهِ الْمُنْفِقُ ، حَتَّى لَوْ كَانَ قَلِيلًا أَقَلَّ مِنْ دِينَارٍ ؛ لِأَنَّ الْمُنْفِقِينَ يُنْفِقُونَ حَسَبَ سَعَتِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي مَسْتَوَاهِمِ الْمَالِي ، فَهَنَّاكَ الْأَغْنِيَاءُ وَهَنَّاكَ الْفُقَرَاءُ ، وَلَعَلَّ دَرَهْمًا يَنْفِقُهُ فَقِيرٌ عَلَى الْجِهَادِ يَسْبِقُ أَلْفَ دَرَهْمٍ مِنْ غَنِيٍّ !! .

١٩ - الْمَجَاهِدُونَ قَوْمٌ عَمَلِيُونَ ، يَحْرُصُونَ عَلَى اسْتِمْرَارِهِمْ فِي آدَاءِ أَعْمَالِهِمِ الْجِهَادِيَّةِ ، الْمَتَمَثِّلَةِ فِي الْإِنْفَاقِ ، وَفِي قَطْعِ الْأَوْدِيَّةِ ، وَفِي وَطْءِ الْمَوَاطِئِ وَالْمَنَاطِقِ . . . وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تُصَدَّرُ عَنْهُمْ ، وَهِيَ عِبَادَاتٌ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ بِهَا .

٢٠ - اعْتَبَرْتَ الْآيَاتُ الْجِهَادَ مِنْ أَحْسَنِ أَعْمَالِ الْمَجَاهِدِينَ ، فَقَالَتْ : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؛ فَالْمَجَاهِدُونَ مُحْسِنُونَ ، وَالْجِهَادُ أَحْسَنُ أَعْمَالِهِمْ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الْفَرْدِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرٌ عَلَى فَضْلِ الْجِهَادِ وَالْمَجَاهِدِينَ !! .



الفصل الخامس

﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾

قال الله عز وجل : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩ كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ۝٢٠ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَللْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

هذه أربع آيات من سورة الإسراء المكية ، تتحدث عن صنفين من الناس ، وما يُريدُه كُلُّ صِنْفٍ ، وماذا يُعطي الله كُلَّ صِنْفٍ ، والتفاضل والتمايز بين الصنفين . صنفٌ قصيرُ النظر ، يُريدُ العاجلة ، يُعطيهِ الله منها ما قدره له . وصنفٌ نافذُ النظر ، يُريدُ الآخرةَ الباقية ، ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، يكرمه الله فيها . وشتانَ بين رغباتِ وإراداتِ وأهدافِ الصنفين .

الذي يُريدُ الدنيا العاجلة ، يُعجلُ الله له نصيبه منها ، ثم يُعذِّبه في جهنم في الآخرة : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ .

والذي يُريدُ الآخرةَ الباقية ، لا بُدَّ أَنْ يسعى لها سعيها ، وأن يكون مؤمناً ، ليُقبلَ اللهُ عمله ، ويشكرَ له سعيه ، ويُحققَ له هدفه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ .

ومن حكمةِ الله أنه لا يحرمُ أيَّ إنسانٍ مما يُريدُه ، وإنما يُعطيهِ مما يُريدُ ، ولذلك يُعطي مُريدَ الدنيا من عطائه ، ويمدُّ مُريدَ الآخرةِ من عطائه : ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا ﴾ .

وبعد ذلك يأتي التفكيك في الصنفين ، والتأمل في المرادين ، والنظر في
 النهايتين والمآلئين ، والاعتبار من ذلك ، وملاحظة الفروق والمراتب
 والدرجات : ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
 تَفْضِيلًا ﴾ .

ونقفُ وقفَةً تحليليةً مع جُمَلِ الآيات ، للحديثِ عن حقائقها .

١ - قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ :

الذي يُرِيدُ الدنيا العاجلة ، وَيَسْعَى إليها ، ويتوجَّهُ بهِمَّتِهِ وقدراتِهِ وأعمالِهِ
 إليها ، يُعَجِّلُ اللهُ له فيها ما قَدَّرَهُ له ، وَيُعْطِيهِ منها ما أَرَادَهُ وشَاءَهُ ، وما كتبه
 له وفقَ حِكمَتِهِ سبحانه .

﴿ مَنْ ﴾ : اسمُ شرط ، في محلِّ رفعٍ مبتدأ . وجملَةٌ : ﴿ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ :
 فعلُ الشرط . وجملَةٌ : ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ : جوابُ الشرط ، وهو في محلِّ
 رفعِ خَبَرٍ .

واسمُ ﴿ كَانَ ﴾ : تقديرُهُ «هو» ، يَعُودُ على اسمِ الشَّرْطِ . وجملَةٌ ﴿ يُرِيدُ
 الْعَاجِلَةَ ﴾ الفعليةُ : في محلِّ نصبِ خَبَرٍ ﴿ كَانَ ﴾ . و﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ : مفعولٌ به
 للفعلِ ﴿ يُرِيدُ ﴾ ؛ أي : مَنْ كَانَ مُرِيداً العاجلة .

و﴿ عَجَلْنَا ﴾ : فعلٌ ماضٍ ، وفاعلُهُ عائِدٌ على اللهِ ، والضميرُ المجرورُ في
 ﴿ لَهُ ﴾ يَعُودُ على اسمِ الشَّرْطِ ﴿ مَنْ ﴾ . و﴿ مَا ﴾ : اسمٌ موصولٌ في محلِّ نصبٍ
 مفعولٍ به . والفعلُ المضارعُ ﴿ نَشَاءُ ﴾ وفاعلُهُ المستتر ، صلة الموصول .
 و﴿ مَنْ ﴾ : اسمٌ موصولٌ في محلِّ جَزَرٍ . والفعلُ المضارعُ ﴿ تُرِيدُ ﴾ وفاعلُهُ
 المستترُ صلة الموصول ، وشبهُ جملَةٌ ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ بَدَلٌ من شبهِ جملَةٍ ﴿ لَهُ ﴾
 قبلها .

ويترتَّبُ جَوَابُ الشَّرْطِ ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ على فعلِ الشرطِ :
 ﴿ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ ، وهو وَعَدٌ من اللهِ ، واللهُ يُنْجِزُ وَعْدَهُ ولا يُخْلِفُهُ ، فَاللهُ
 يُعَجِّلُ لمرِيدِ الدنيا رِزْقَهُ ، وَيُعْطِيهِ ما قَدَّرَهُ له منه .

والآيةُ عامَّةٌ في كُلِّ مَنْ يُرِيدُ العاجلة ، بدلالةِ اسمِ الشرطِ ﴿ مَنْ ﴾ ،
 ومعلومٌ أنَّ أسماءَ الشرطِ كأسماءِ الموصولِ من صِيغِ العمومِ .

﴿الْعَاجِلَةَ﴾: صفةٌ لموصوفٍ مَحذوفٍ ، تقديرُهُ: «الحياة». أَي: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ العَاجِلَةَ ؛ وهذه الحَيَاةُ العَاجِلَةُ هِيَ الدنْيَا .

﴿الْعَاجِلَةَ﴾: اسْمُ فاعِلٍ مُؤَنَّثٍ ، وَالْعَجَلَةُ هِيَ الإسْرَاعُ ، وَالْعَجُولُ هُوَ الْمَسْرَعُ . قَالَ الإِمَامُ الرَّاعِبُ: «الْعَجَلَةُ: طَلَبُ الشَّيْءِ ، وَتَحْرِيهِ قَبْلَ أَوَانِهِ ، وَهُوَ مِنْ مُقْتَضَى الشَّهْوَةِ ، فَلِذَلِكَ صَارَتْ مَذْمُومَةً فِي عَامَةِ الْقُرْآنِ»^(١) .

وَسُمِّيَتِ الدنْيَا عَاجِلَةً لِسُرْعَةِ مُرُورِهَا ، وَسُرْعَةِ انْقِضَائِهَا ، وَسُرْعَةِ زَوَالِ مُتَعِهَا وَمَلَذَاتِهَا ، وَسُرْعَةِ طَلَبِ الْإِنْسَانِ لَهَا ، وَتَلَهُّفِهِ عَلَيْهَا .

وَحِكْمَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي النَاقِصِ ﴿كَانَ﴾ فِي ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ الإِشَارَةَ إِلَى أَنَّ طَلَبَ هَذَا الْإِنْسَانِ لِلْعَاجِلَةِ ثَابِتٌ مُسْتَقَرٌّ عِنْدَهُ ، وَأَمْرٌ «كَائِنٌ» مُلَازِمٌ لَهُ .

وَحِكْمَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَضَارِعِ فِي خَبَرِ ﴿كَانَ﴾ الإِشَارَةُ إِلَى تَجَدُّدِ وَاسْتِمْرَارِ إِرَادَتِهِ لِهَذِهِ الدنْيَا الْعَاجِلَةَ .

هَذَا الْإِنْسَانُ الْعَجُولُ ، الَّذِي يُرِيدُ مَتَاعَ وَلَذَّةَ وَشَهْوَةَ الْحَيَاةِ الْعَاجِلَةَ ، يُحَقِّقُ اللَّهُ لَهُ مَا يُرِيدُ ، وَيُعْطِيهِ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدَّرَهُ لَهُ .

وَعَبَّرَ عَنِ إِعْطَائِهِ مُرَادَهُ بِلَفْظِ التَّعْجِيلِ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ ؛ أَي: بَادَرْنَا إِلَى إِعْطَائِهِ ذَلِكَ ، وَأَسْرَعْنَا فِي صَرْفِهِ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ .

وَالْتَنَاسُقُ وَالِاتِّصَالُ مَلْحُوظٌ بَيْنَ ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ وَبَيْنَ فِعْلِ ﴿عَجَّلْنَا﴾ ؛ فَالتَّعْجِيلُ هُوَ الإسْرَاعُ بِإِعْطَاءِ الْمُتَعَجِّلِ الَّذِي يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ .

وَالتَّعْجِيلُ فِي الْآيَةِ خَاصٌّ لِمُرِيدِ الْعَاجِلَةَ ، وَهُوَ صَاحِبُ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ ، فِي ﴿لَهُ﴾ .

وَالْمَعْجَلُ لِلْمُتَعَجِّلِ عَامٌّ ، بِدَلَالَةِ اسْمِ الْمَوْصُولِ الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿مَا﴾ فِي ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ ؛ لِأَنَّ اسْمَ الْمَوْصُولِ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ . وَهَذَا الْأَمْرُ

(١) المفردات ، ص: ٥٤٨ .

المعجَّلُ يَشْمَلُ كُلَّ ما يَعَجِّلُهُ اللهُ للمَتَعَجَّلِ ، من طعامٍ وشرابٍ ، ولباسٍ ومتاعٍ ، ومالٍ وشهوةٍ ، ومنصبٍ وجاهٍ ، وغير ذلك . .

لكن : هل يُعْطِي اللهُ لهذا المتعَجَّلِ كُلَّ ما يُرِيدُهُ ويطلبُهُ وَيَسْعَى إليه ؟ .

كلا! إِنَّ اللهَ لا يُعْطِيهِ إِلَّا ما قَدَّرَهُ هو له بحِكمَتِهِ ، ولذلك كانَ التعبيرُ في الآيةِ مُقَيِّداً بِإِرادَةِ اللهِ ومَشِيئَتِهِ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ما نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ؛ فالفِعْلانِ المضارعانِ ﴿ نَشَاءُ ﴾ و﴿ نُرِيدُ ﴾ يَدُلَّانِ على هذا التقييدِ .

ومفعولُ ﴿ نَشَاءُ ﴾ محذوفٌ ، دَلَّ عليه الموصولُ قبلَهُ ﴿ ما ﴾ . والتقديرُ : ما نَشَاءُ تَعْجِيلَهُ له .

ومفعولُ ﴿ نُرِيدُ ﴾ محذوفٌ أيضاً ؛ تقديرُهُ : لمن نريدُ تَعْجِيلَهُ له .

فاللهُ عندما يُعَجِّلُ للمَتَعَجَّلِ ، يُعْطِيهِ ما شاءَ وأرادَ هو إعطاءَهُ سبحانه ، وليس ما أرادَهُ المتعَجَّلُ وطلبَهُ وسعى إليه ، فالذي يُعْطِيهِ اللهُ له هو بعضُ ما يُرِيدُهُ !! .

وشبهُ الجملةِ ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ بَدَلٌ من شبه الجملةِ ﴿ لَهُ ﴾ . وبعبارةٍ أدقَّ : الموصولُ المجرورُ في ﴿ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ بَدَلٌ من الضميرِ المجرورِ في ﴿ لَهُ ﴾ . وهذا البَدَلُ بهدفِ البيانِ والتفصيلِ ؛ لأنَّ الضميرَ في ﴿ لَهُ ﴾ مُبْهَمٌ ، فاقتضى الأمرُ أَنْ يُؤْتَى بشبهِ جملةٍ بعده بَدَلًا منه لتكونَ تبييناً له .

وجمعتِ الجملةُ بينَ الإرادةِ والمشيئةِ : ﴿ ما نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ، وهما مُتَّفاربتانِ في المعنى ، وليستَا مترادفتينِ ، لأنَّهُ لا ترادُفَ في القرآنِ . وذُكِرَتِ الإرادةُ بعدَ المشيئةِ من بابِ التَّفَسُّنِ في التعبيرِ ، وَمَعْنًا للتكرارِ .

والأفعالُ الثلاثةُ مسندَةٌ إلى اللهِ : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ما نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ؛ لأنَّ الفاعلَ فيها ضميرُ «نا» الدالُّ على عظمةِ اللهِ ، والعاثِدُ إلى اللهِ .

وهذا الإسنادُ في الأفعالِ حقيقي ، يُشيرُ إلى حقيقةٍ عقيديةٍ ، وهي أَنَّ الأفعالَ كُلَّها بيدُ اللهِ ، فهو الفاعلُ لكلِّ شيءٍ ، والمعطيُ لكلِّ شيءٍ ، والمانعُ لما يَشَاءُ مَنعُهُ . . .

٢ - قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾:

هذه الجملة معطوفة على جواب الشرط: ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾.

وتُخبرُ هذه الجملة عن ما ينتظر المتعجل في الآخرة ، فهو قد أخذ نصيبه من الرزق والمتاع في الدنيا ، ولم يبقَ له شيءٌ من الخير عند الله ، لكفره وانحرافه ، فالذي ينتظره في الآخرة هو العذاب .

وعُظفت الجملة الثانية على الأولى بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ ؛ لأنه يدلُّ على التراخي الرُّبِّيِّ والتراخي الزمَني ، فالآخرة الآجلة متراخية عن هذه الحياة الدنيا العاجلة .

جَعَلَ اللهُ لهذا المتعجل في الآخرة النار . و﴿ جَعَلْنَا ﴾ بمعنى «صَيَّرْنَا» ، ولذلك يَنْصَبُ مفعولين ؛ المفعول الأولُ مؤخَّر ، هو ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ ، والمفعول الثاني مقدم ، هو شبه الجملة ﴿ لَهُ ﴾ . والتقدير: جَعَلْنَا وَصَيَّرْنَا جَهَنَّمَ مُعَدَّةً له .

و﴿ يَصَلُّهَا ﴾ : فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ به ، في محلِّ نصب حال ، وصاحبُ الحال هو الضميرُ في ﴿ لَهُ ﴾ ؛ أي : جعلنا له جهنمَ صالحاً لها .

ومعنى ﴿ يَصَلُّهَا ﴾ : يُعَذَّبُ بها ويحترق فيها .

و﴿ مَذْمُومًا ﴾ : حال . و﴿ مَدْحُورًا ﴾ : حالٌ أخرى ، وكلُّ منهما اسمٌ مفعول .

والمذمومُ : هو الذي يَسْتَحِقُّ التوبيخَ والإذلالَ ، والتعذيبَ والعقابَ ، لأنه ارتكب ما استحقَّ به ذلك . والمدحورُ هو المطرودُ من رحمة الله وفضله ، والمحرورُ من جنَّته ونعيمه ، وهو استحقَّ ذلك لأنه تعجَّلَ وأراد العاجلة .

وماذا استفادَ هذا المتعجلُ؟ لقد استفدَ نصيبه في الدنيا ، وذهبتْ لذَّته ومُتَعَتُّه ، وبقيتْ مسؤوليته وتبعته! وها هي جهنمُ مُعَدَّةٌ له ! .

وبمعنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَعَوْا فِيهَا وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[هود: ١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَهَبْتُمْ طَبَقَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾:

تحدّث الآية عن الصنف الثاني من الناس ، وهم المؤمنون البصرون ، الذين أرادوا الآخرة ، وطلبوها بصالح الأعمال ، وتُخبر أنّ الله يتقبّل عملهم ، ويشكر سعيهم .

وقد عطفَ هذا الصنف على الصنف السابق بحرف الواو . والعطف عطفُ آية على آية ، وعطف صنف على صنف ، وعطف جملة شرطية على جملة شرطية .

﴿مَنْ﴾ : اسم شرط . وجملة ﴿أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ : فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ به ، وهي فعل الشرط . وجملة ﴿سَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ ، معطوفة على فعل الشرط . وجملة : ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة اسمية في محلّ نصب حال . وجملة ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ جواب الشرط . ﴿فَأُولَئِكَ﴾ : في محلّ رفع مبتدأ . و﴿كَانَ﴾ واسمها وخبرها في محلّ رفع خبر .

واختلفَ التعبيرُ عن مرید العاجلة ومرید الآخرة . . فقالت الآية عن الأول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ ، وذكرنا حكمة التعبير بفعل ﴿كَانَ﴾ ، وحكمة مجيء خبرها فعلاً مضارعاً ﴿يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ . . وقالت الآية عن الثاني: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ ؛ فحذفت ﴿كَانَ﴾ ، لأنّ لا داعي للإشارة إلى «الكون» هنا . . وأتت بالفعل الماضي ﴿أَرَادَ﴾ لأنه يدلُّ على الثبات والتمكّن والاستقرار . فإرادة المؤمن للآخرة حقيقة ثابتة ، راسخة في كيانه ، لا تنفصل عنه .

﴿الْآخِرَةَ﴾: اسمٌ أُطلقَ في القرآنِ على الحياةِ الثانيةِ ، التي يَحْيَاهَا الناسُ بعدَ البعثِ ؛ وهي في مقابلِ «الدنيا» .

وبما أننا اعتَبَرْنَا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ العاجلةَ ، فيمكنُ أَنْ نعتَبِرَ ﴿الْآخِرَةَ﴾ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ أيضاً: وَمَنْ أَرَادَ الدارَ الآخرةَ ، أَوْ: الحياةَ الآخرةَ .

﴿الْآخِرَةَ﴾ مذكورةٌ في مقابلِ ﴿الْعَاجِلَةَ﴾؛ ففي العاجلةِ مَعْنَى العجلةِ والسرعةِ والتعجيلِ ، وفي الآخرةِ مَعْنَى البطءِ والتأني والتأخير؛ وهي «آخِرَةٌ» لأنه ليس بعدها حياةٌ ولا داراً! .

وتمدحُ الآيةُ المؤمنَ مُريدَ الآخرةِ ، وتُثني عليه ، ولذلك تتوسَّعُ في الحديثِ عنه ، في الوقتِ الذي أوجَزَتِ الكلامَ فيه عن مُريدِ الدنيا ؛ فقالتُ سابقاً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ ، بينما قالتُ هنا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ! وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَدِيثِ عَنِ الصَّنْفِ الْمَذْمُومِ بِجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَالْحَدِيثِ عَنِ الصَّنْفِ الْمَحْمُودِ بِثَلَاثِ جُمَلٍ!! .

وجملةُ ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾: معطوفةٌ على جملةِ ﴿أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ . . . وَعَبَّرَ عن السعيِ بالفعلِ الماضي ، ليتناسبَ مع التعبيرِ عن الإرادةِ بالفعلِ الماضي ، أي أَنَّ سَعَى هَذَا الْمُؤْمِنِ لِلْآخِرَةِ ثَابِتٌ مُسْتَقَرٌّ ، لَا يَتَوَقَّفُ عَنْهُ ، مِثْلُ اسْتِمْرَارِ إِرَادَتِهِ لِلْآخِرَةِ .

والسعيُّ حالةٌ متوسطةٌ بينَ المشيِّ البطيءِ والعَدْوِ السَّريعِ ؛ يُقالُ: فُلَانٌ يَمْشِي ؛ فَإِنَّ أَسْرَعَ قَيْلٍ: فُلَانٌ يَسْعَى ، فَإِنَّ ضَاعَفَ سُرْعَتَهُ قَيْلٍ: فُلَانٌ يَعْدُو وَيَجْرِي! .

وقد يكونُ السعيُّ بواسطةِ الرَّجُلَيْنِ ، وقد يكونُ سَعْيًا مَعْنَوِيًّا ، بِمَعْنَى الاهتمامِ بالشَّيءِ والاستعدادِ له والإقبالِ عليه . وقد يكونُ بجمعِ الأمرَيْنِ: بِأَنَّ يَسْعَى إِلَى الشَّيْءِ بِرَجْلَيْهِ ، وَيَهْتَمُّ بِهِ وَيَقْبَلُ بِقُدْرَاتِهِ عَلَيْهِ .

والمرادُ بالسعيِ هنا الجمعُ بينَ السعيِ المادِّيِّ والمعنويِّ ، وذلكَ بِأَنَّ يُسْرَعَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَيُسَابِقُ إِلَيْهَا ، وَأَنْ يَسْتَعِدَّ لَهَا ، وَيَتَوَجَّهَ بِكُلِّ طَاقَاتِهِ إِلَيْهَا .

وتعدَّى فعلٌ ﴿سَعَى﴾ للضمير بحرفِ اللّام: ﴿سَعَى لها﴾ ، وليست بحرفِ «إلى». وفَرَّقَ بين قولك: «سَعَيْتُ إِلَى الشَّيْءِ»، وقولك: «سَعَيْتُ لِلشَّيْءِ»؛ فَإِنَّ الجُمْلَةَ الثَّانِيَةَ أَكْثَرُ توكِيداً. . واللّام في ﴿سَعَى لها﴾ تُفِيدُ معنَى العِلَّةِ ، فَكَأَنَّ سَعَى هَذَا السَّاعِي ، إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ الآخِرَةِ ، أَي: كَانَ عَمَلُهُ وَجْهَهُ وَكُلُّ نَشَاطِهِ لِأَجْلِ الفُوزِ فِي الآخِرَةِ.

وفعلٌ ﴿سَعَى﴾ لازِمٌ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى مَفْعُولٍ بِهِ ، وَالْمَصْدَرُ ﴿سَعْيَهَا﴾ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ .

ويُشِيرُ عَطْفُ جُمْلَةٍ ﴿سَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ إِلَى أَنَّ إِرَادَةَ الآخِرَةِ وَحَدَهَا مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَعَمَلٍ وَجَدَّ وَاجْتِهَادٍ لَا تَكْفِي ، وَلَا تُوَصَّلُ صَاحِبَهَا إِلَى مَا يُرِيدُ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تُتَرْجَمَ الإِرَادَةُ إِلَى عَمَلٍ ، يَتِمَّتْ بِالسَّعْيِ الصَّادِقِ الْحَثِيثِ ، لِلوَصُولِ إِلَى المَرَادِ .

وجُمْلَةٌ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ ، مَكُونَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ ، وَهَذِهِ الجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ حَالٍ ، وَصَاحِبُ الحَالِ هُوَ الضَّمِيرُ المَسْتَتِرُ ، الَّذِي هُوَ فاعِلُ ﴿سَعَى﴾ ، وَالعائِدُ عَلَى ﴿مَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ . وَالتَّقْدِيرُ: أَرَادَ الآخِرَةَ ، وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ، مُؤْمِنًا بِاللَّهِ .

وَعَبَّرَ عَنِ الحَالِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لِإِفَادَةِ معنَى الثَّبَاتِ وَالاسْتِقْرَارِ ، وَالذَّوَامِ وَالرَّسُوخِ ، لِأَنَّ الجُمْلَةَ الاسْمِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى هَذِهِ المَعَانِي .

وتَدُلُّ الجُمْلَةُ الحَالِيَّةُ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عَلَى حَقِيقَةِ عَقِيدَتِهِ ، وَهِيَ أَنَّ الإِيمَانَ المَطْلُوقَ بِتَحْقِيقِ أَرْكَانِهِ السِّتَةِ - شَرْطُ لِقَبُولِ العَمَلِ عِنْدَ اللَّهِ !! .

وجُمْلَةٌ ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ ؛ فَالْفَاءُ فِيهَا لِربِطِ جَوَابِ الشَّرْطِ بِفِعْلِ الشَّرْطِ .

وَاللَّطِيفُ أَنَّ فِعْلَ الشَّرْطِ جَاءَ مُفْرَدًا فِي اللفظِ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ، بَيْنَمَا جَاءَ جَوَابُ الشَّرْطِ جَمْعًا فِي اللفظِ: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

و﴿أُولَئِكَ﴾: اسْمٌ إِشَارَةٌ لِلجَمْعِ ، وَالْمُشَارُ إِليهِ مَجْمُوعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ

الآخرة ، ويسعون لها سَعِيهَا ، وهم مؤمنون ، وهو المجموعُ الناتجُ عن «تَجَمُّعِ» أفرادِ مؤمنين ، كلُّ منهم يُريدُ الآخرة .

ويدلُّ اسمُ الإشارةِ على أَنَّ ما قبله سببٌ في تحقُّقِ ما بعده ، فلم يكن سَعِي هؤُلاءِ المؤمنين مشكوراً ، إلاَّ لأنهم أرادوا الآخرة ، وسَعَوْا لها سَعِيهَا .
ووصفَ سعيهم بأنه مشكورٌ ، أيُّ أنه مقبولٌ عند الله ، وهذا من بابِ المبالغةِ في مدحهم والثناءِ عليهم ، لأنَّ المشكورَ في الحقيقةِ ليس السعي ، وإنما هو صاحبه ، تقول: عمِلَ فلانٌ عملاً ، وقُبِلَ عمله ، وهو مشكورٌ عليه .

وعبَّرَ عن قبولِ العملِ وشكرِ صاحبه عليه بالفعلِ الماضي ﴿ كَانَ ﴾ ، للإشارةِ إلى ثباتِ وتحقُّقِ ذلك ، فكأنه مقبولٌ مشكورٌ منذ زمنٍ ماضٍ بعيد .
وندعو إلى المقارنةِ بين الجملتين : الأولى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ ، الثانية : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا ﴾ ، وملاحظةِ الفرقِ البعيدِ بين دلالةِ ﴿ كَانَ ﴾ في الجملةِ الأولى التي هي للذمِّ ، و﴿ كَانَ ﴾ في الجملةِ الثانيةِ التي هي للمدح .

٤ - قوله تعالى: ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءِ وَهَتُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ :

بعدَ الحديثِ عن الذين يُريدون العاجلة ، والذين يُريدون الآخرة ، وبيانِ ماذا لكلِّ منهم عند الله ، تتحدَّثُ هذه الآيةُ عما أعدَّ اللهُ لهم .
﴿ كَلَّا ﴾ : مفعولٌ به منصوب ، مُقدَّمٌ على فعله ﴿ نُمَدُّ ﴾ ، والتقدير: نُمَدُّ كلاً من هؤُلاءِ وهؤُلاءِ . والتنوينُ فيه يُسمَّى : تنوينُ عوضٍ ، وهو عوضٌ عن كلمةٍ محذوفةٍ ، هي مضافٌ إليه . والتقدير: نُمَدُّ كلا الفريقين ، مُريدي العاجلةِ ومُريدي الآخرة .

و﴿ نُمَدُّ ﴾ فعلٌ مضارع ، فاعله تقديره «نحن» يعودُ على الله . والماضي منه رباعي «أَمَدٌ» . تقول: أَمَدٌ ، يُمَدُّ ، ونحنُ نُمَدُّ . . والمصدرُ: إِمْدَادٌ .

ويدلُّ الفعلُ على استمرارِ المددِ ، والاسترسالِ في الإعطاءِ ، والزيادةِ من الإنعامِ ، وتواصلِ المددِ والإمدادِ ، وكأنَّ الإمدادَ حَطَّ متواصلٌ مستمرٌّ ، لا يتوقفُ ولا يتقطعُ ، ويتَّصلُ الجديدُ منه بالقديمِ السابقِ !

﴿ هَتُوْلَاءَ ﴾ : اسْمُ إِشَارَةٍ لِلْقَرِيبِ ، فِي مَحَلِّ نَصْبٍ ، لِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنَ الْمَفْعُولِ بِهِ الْمَقْدَمِ ﴿ كَلًّا ﴾ . وَاسْمُ الْإِشَارَةِ الثَّانِي ﴿ هَتُوْلَاءَ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى الْأَوَّلِ . وَهَذَا الْبَدَلُ مُفْصَّلٌ لِلْمَبْدَلِ مِنْهُ ، الْمَجْمَلُ قَبْلَهُ ﴿ كَلًّا ﴾ ، وَهُوَ مُفْصَّلٌ لِأَنَّهُ أَشَارَ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنَ الصَّنْفَيْنِ بِاسْمِ إِشَارَةٍ مُسْتَقِلٍّ ، وَعَطَفَ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ : ﴿ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ ﴾ .

والمرادُ باسمِ الإِشَارَةِ الْأَوَّلِ الصَّنْفُ الْأَوَّلُ ، وَهَمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعَاجِلَةَ ، وَالْمَرَادُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الثَّانِي الصَّنْفُ الثَّانِي الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْآخِرَةَ . وَالْمَعْنَى : نُمِدُّ كُلَّ صِنْفٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ عَطَائِنَا : صِنْفٍ مَرِيدِي الْعَاجِلَةَ ، وَصِنْفٍ مَرِيدِي الْآخِرَةَ .

يُمِدُّ اللهُ كُلَّ صِنْفٍ مِنْ عَطَائِهِ : ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ . وَالْعَطَاءُ مُصَدَّرُ الثَّلَاثِي «عَطَى» تَقُولُ : عَطَى ، يَعْطِي ، عَطَاءً .

وَالْعَطَاءُ الصَّلَاةُ ؛ فَاللهُ يُمِدُّ الصَّنْفَيْنِ مِنْ عَطَائِهِ ، أَيُّ : يُوَصِّلُ لَهُمْ صِلَتَهُ ، وَهَمُ يَتَنَاوَلُونَهَا وَيَأْخُذُونَهَا .

﴿ مِنْ ﴾ : لِلتَّبَعِيضِ ؛ فَالَّذِي يُمِدُّهُمْ اللهُ هُوَ جِزْءٌ مِنْ عَطَائِهِ ، وَبَعْضٌ مِنْ نِعَمِهِ .

وَاخْتِيَارُ الرَّبِّ مَقْصُودٌ : ﴿ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ ؛ لِأَنَّ الْإِمْدَادَ وَالْإِعْطَاءَ وَالْإِنْعَامَ مِنْ لَوَازِمِ الرَّبُوبِيَّةِ ، فَالرَّبُّ هُوَ الَّذِي يُعْطِي وَيَمْنَحُ وَيُمِدُّ . . وَالْمَقَامُ مَقَامُ رَبُوبِيَّةٍ وَإِمْدَادٍ ، وَليْسَ مَقَامُ أُلُوهِيَّةٍ وَعِبَادَةٍ .

وَالْخَطَابُ فِي ﴿ رَبِّكَ ﴾ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، وَالْإِضَافَةُ هُنَا لِلتَّكْرِيمِ وَالتَّشْرِيفِ ، وَليْسَتْ لِلتَّخْصِيصِ ، لِأَنَّ اللهَ لَيْسَ رَبًّا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ رَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا .

وَيَشْمَلُ الْخَطَابُ : ﴿ رَبِّكَ ﴾ كُلَّ مُسْلِمٍ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ ، لِأَنَّ خَطَابَ الرَّسُولِ ﷺ خَطَابٌ لِأُمَّتِهِ ، مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى التَّخْصِيصِ .

وَاللهُ يُمِدُّ الْفَرِيقَيْنِ - مَرِيدِي الْعَاجِلَةَ وَمَرِيدِي الْآخِرَةَ - مِنْ عَطَائِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعْطِي كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَا قَدَّرَ لَهُ مِنْ رِزْقِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا .

وهذا العطاء مقيّد في الدنيا ، لأنه شاملٌ للمؤمنين والكافرين ، والفرقان يننعمان بنعم الله في الدنيا ، أما الآخرة فإن نعيمها خاصٌ بالمؤمنين ، وليس للكافرين فيها إلا النار .

هـ - قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ :

هذه الجملة مستأنفة ، جاءت تعقيباً على الجملة السابقة ، لتقرر أنّ عطاء الله وإمداده مبدولٌ ميسور ، وليس محظوراً عن أحد .

وهذه هي المرة الثالثة التي يُذكر فيها الفعل الماضي ﴿ كَانَ ﴾ ، الدالٌّ على الرسوخ والدوام ، واستمرار الكون والوجود .

﴿ كَانَ ﴾ الأولى في الإخبار عن استمرار طلب الكفار للعاجلة : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ .

و﴿ كَانَ ﴾ الثانية في الإخبار عن استمرار قبول سعي المؤمنين : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ .

وهذه ﴿ كَانَ ﴾ الثالثة في الإخبار عن استمرار إعطاء الله للناس : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ .

و﴿ مَحْظُورًا ﴾ : خبر ﴿ كَانَ ﴾ منصوب ، وهو اسمٌ مفعول ، فعله ثلاثي ، هو «حَظَرَ» . والحَظْرُ هو المنع . والمحظور هو الممنوع .

إنّ الذي يحظرُ ويمنعُ هو الله ، لأنه هو الذي يُعطي ويمنع ، فالله يمنعُ الناسَ من فعلٍ ما حرّم عليهم .

أما عطاؤه وإنعامه ورزقه فهو محدودٌ مُقدّم ، واصلٌ متواصل ، للناس جميعاً ، سواء كانوا كافرينٍ مرادينٍ للعاجلة ، أو كانوا مؤمنينٍ مرادينٍ للدار الآخرة .. إنه لم يقطعْ إمداده لهم ، ولم يحظرْ رزقه عنهم ، سواء آمنوا به أو كفروا ، وسواء أطاعوه أم عصوه ! إنه يُعطيهم لأنه خلقهم ، وتكفل برزقهم وإعطائهم .

ومعنى هذا أنّ نعيم الدنيا عامٌّ للمؤمنين والكافرين ، يُؤتيهم الله منه

ما قَدَّرَهُ لَهُمْ وفق حِكْمَتِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ،
ولكنَّهُ لَا يُكْرِمُ فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَنْ أَحَبَّهُ ، وهو المؤمنُ المستقيم .

٦ - قوله تعالى: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ :

بعدَ تَقْرِيرِ الحَقَائِقِ فِي الآيَاتِ الثَّلَاثِ السَّابِقَةِ ، وبيانِ اِخْتِلَافِ مَرَادَاتِ
النَّاسِ وَاخْتِلَافِ مَصَائِرِهِمْ ، وَاخْتِلَافِ مَظَاهِرِ إِمْدَادِ اللَّهِ لَهُمْ ، تَأْتِي هَذِهِ
الآيَةُ ، لِتَدْعُوَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى النَّظْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالاِعْتِبَارِ .

وَأَسَاسُ النَّظْرِ تَوْجِيهُ الْعَيْنِ إِلَى الشَّيْءِ الْمُرَادِ رُؤْيَتُهُ وَالنَّظَرُ إِلَيْهِ ؛ تَقُولُ :
نَظَرْتُ إِلَى الشَّمْسِ ؛ أَي : رَأَيْتُهَا . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي التَّفَكُّرِ وَالتَّدْبِيرِ وَالاِعْتِبَارِ ،
فَيُرَادُ بِهِ الِاعْتِبَارُ مِمَّا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَتُشَاهِدُهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا . فَالْمَعْنَى :
تَفَكَّرْ وَتَدَبَّرْ ، وَلا حِظَّ وَانْتَبِهْ ، فَهَا أَنْتَ تَرَى النَّاسَ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَفِعْلُ الْأَمْرِ ﴿ أَنْظِرْ ﴾ مَوْجَّهٌ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ ، لَكِنَّهُ لَيْسَ
خَاصًّا بِهِ ، فَهُوَ مَوْجَّهٌ إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ بَصِيرٍ ، يُفَكِّرُ فِي مَا يُشَاهِدُهُ مِنْ تَفَاوُتِ
النَّاسِ ! .

و﴿ كَيْفَ ﴾ : اسْمٌ اسْتِفْهَامٌ ، لِتَنْبِيهِ النَّازِرِ وَإِثَارَتِهِ وَلَفَتْ اِتِّبَاهِهِ . وَهُوَ فِي
مَحَلِّ نَصْبٍ حَالٍ مُقَدَّمٍ ، عَامِلُهُ جَمَلَةٌ ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

و﴿ فَضَّلْنَا ﴾ : فِعْلٌ مَاضٍ وَفَاعِلُهُ . وَ﴿ بَعْضَهُمْ ﴾ : مَفْعُولٌ بِهِ ، وَالجَمَلَةُ
الفِعْلِيَّةُ ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ : فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٍ بِهِ لِلْفِعْلِ ﴿ أَنْظِرْ ﴾ .
وَالتَّقْدِيرُ : انْظُرْ تَفْضِيلِنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَيْفَ يَتَحَقَّقُ .

وَالتَّفْضِيلُ بِمَعْنَى التَّمْيِيزِ وَالتَّفَاوُتِ ، فِي مَا يُعْطِيهِمُ اللَّهُ مِنْ عَطَائِهِ
وَإِنْعَامِهِ .

و﴿ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ : تَشْمَلُ جَمِيعَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، مُؤْمِنِينَ
وَكَافِرِينَ ، مَرِيدِي الدُّنْيَا وَمَرِيدِي الآخِرَةِ .

إِنَّ مَا يُعْطِيهِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ عَطَائِهِ فِي الدُّنْيَا مُتَّفَاوُتٌ ، وَلَيْسَ عَلَى دَرَجَةٍ
وَاحِدَةٍ ، أَوْ بِكَمِّيَّةٍ مَوْحَدَةٍ ، أَوْ فِي مَظْهَرٍ وَاحِدٍ ! وَاللَّهُ حَكِيمٌ فِي مَا يُعْطِيهِ ،
وَلَمْنْ يُعْطِيهِ ، وَبِالْمَقْدَارِ الَّذِي يُعْطِيهِ ، وَالكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُعْطِيهَا . وَهُوَ بِهِذَا

يجعلُ الناسَ متفاوتين ، فمنهم المفضلون ، ومنهم الفاضل ، ومنهم الأفضل .

والمرادُ بالتمييزِ في الآيةِ صُورُ وجوانبِ ومظاهرُ التفاضلِ والتفاضل ، في العطاءِ الدنيوي ، الذي يُعطيه اللهُ للناس ، ويعمُّ به المؤمنون والكافرون ، لأنَّ عطاءَهُ في هذا الجانبِ عامٌّ لكلِّ الناس ، وليس محظوراً أو ممنوعاً عن أحدٍ منهم .

إنَّ اللهَ في هذا العطاءِ الدنيويِّ قد يُفَضِّلُ المسلمَ على الكافر ، وقد يُفَضِّلُ الكافرَ على المسلم ، فيعطيه أكثر ، وقد يُفَضِّلُ كافراً على كافر ، وقد يُفَضِّلُ مسلماً على مسلم ، وقد يتفاضلُ أصحابُ المهنةِ الواحدةِ ، أو المستوى الواحد ، في ما يعطيهم اللهُ . . المهمُّ أنَّ العطاءَ الربانيَّ للناسِ في الدنيا ليس على أساسِ الإيمانِ والكفر ، أو الطاعةِ والمعصية ، أو التقوى والفجور ، بدليلِ أنَّ اللهَ قد يُفَضِّلُ الكافرين على المؤمنين ، وقد يُفَضِّلُ الفاجرين على المتقين .

وهذا العطاءُ الربانيُّ متعلِّقٌ بالدنيا ومتاعها وملذَّاتها وشهواتها . . وقد حَبَّبَ اللهُ هذه الشهواتِ للناسِ جميعاً ، مسلمين وكافرين ؛ قال تعالى : ﴿ ذُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَعَادِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وهذا التفاضلُ في العطاءِ ، والتمييزُ في إعطائه وإيتائه ليس مرتبطاً بالفضلِ والمنزلةِ عند الله ، فاللهُ قد يزيدُ الكافرَ منه على المؤمن ؛ ولذلك يُخطئُ مَنْ يجعلُ كرامته عند الله مرتبطةً بكثرةِ هذا العطاءِ ، فإذا قلَّ ونقصَ اعتبرَ نفسه مهاناً عنده ؛ قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿٢﴾ كَلَّا ﴿٣﴾ [الفجر : ١٥ - ١٧] .

٧ - قوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ :

تحدَّثُ هذه الجملةُ عن التفاضلِ الكبيرِ في الآخرة ، وعن درجاتِهِ

ومنازله ، وعن أساسه ومناطه ومقايسه؛ وذلك في مقابل الحديث عن التفضيل ومظاهره في الدنيا في الجملة السابقة .

الواو: حرف استئناف ، والجملة استئنافية ، واللام في ﴿لِلْآخِرَةِ﴾ لامُ الابتداء للتوكيد . و﴿الآخرة﴾: مبتدأ . ﴿أكبر﴾: خبر . و﴿درجات﴾: تمييز منصوب بالكسرة ، لأنه جمع مؤنث سالم .

﴿الآخرة﴾: صفة لموصوف محذوف . والتقدير: الدائر الآخرة .

والدرجات: هي المنازل التي يضعُ اللهُ الصالحين المفضلين فيها ، والمراتب التي يرفعهم اللهُ إليها ، وهي درجات شريفة عالية ، وما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض .

ووصفت الدائر الآخرة بأنها هي الأكبر في الدرجات ، والأكبر في التفضيل ، والأكبر في مقابل الصغر ، فالدنيا العاجلة هي الأصغر والأضيق في الدرجات ، والأقل والأنقص في التفضيل . . وأين كبر وسعة الآخرة من صغر وضيق الدنيا؟! .

إنَّ سبب التفضيل في الآخرة هو الإيمان والعمل الصالح ، وإنَّ الفضل والعطاء والنعيم فيه مستمرُّ متواصل ، لا يقطعه انتهاء أو موت .

والمفضلُّ عليه هو العطاء في الدنيا . والمعنى: الآخرة أكبر درجات من الدنيا ، وهي أكبر تفضيلاً من مظاهر التفضيل في الدنيا .

من لطائف الآيات:

١ - عرّضت الآياتُ كُلَّ صنفٍ بجملةٍ شرطية ، مكوّنة من اسم شرطٍ وفعلٍ شرطٍ وجواب شرط ، ومبتدأ أو خبر ، فكانَ التقابلُ بين الصنفين كاملاً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ...﴾ ، و﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعِيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ .

٢ - عندما تحدّثت الآية عن مريد الدنيا قالت في فعل الشرط: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ ؛ فأتت بالفعل الماضي ﴿كَانَ﴾ ، الدالُّ على استقرار الكون ودوامه ، ثم أتت بالفعل المضارع خبراً لكان ، وهو دالُّ على الاستمرار

والتجدد في الإرادة... والجمع بين الماضي والمضارع ، والتوفيق بين الاستقرار والاستمرار جمالاً بيانيّ ملحوظ .

٣ - في قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا ﴾ صيغتان من العجلة :

الأولى : اسمُ الفاعلِ المؤنَّثُ ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ وهو مشتقٌّ من الثلاثيِّ «عَجَلَ» . تقول : عَجَلَ ، فهو : عاجل ، وهي عاجلةٌ . وقد أُسندت العجلةُ للدُّنيا ، فكأنها هي التي تَعْجَلُ وتأتي عَجِلَةً ، وتذهبُ وتُفارقُ عَجِلَةً ، فهي عاجلةٌ في قدومِها ، وعاجلةٌ في ذهابِها . ومع ذلك يُريدها ويطلبُها ويرغبُ فيها المتعجلون ! .

الثانية : الفعلُ الماضي الرباعيُّ المسندُ إلى الله : ﴿ عَجَلْنَا ﴾ الذي يدلُّ على التعجيل ، فالله هو الذي يُعَجِّلُ للمتَّعِجِل ، ويُعْطِيهِ ما كَتَبَ له .

واللطيفُ أنَّ الصيغةَ الأولى من الثلاثيِّ جاءتْ في فعلِ الشرط ، وأنَّ الصيغةَ الثانيةَ من الرباعيِّ جاءتْ في جوابِ الشرط . وكأنَّ الرباعيَّ مبنيٌّ على الثلاثيِّ ، ونتيجةٌ له ، وخطوةٌ تاليةٌ عليه .

٤ - في الآيةِ تقابلٌ بين فعلِ ﴿ يُرِيدُ ﴾ ، العائدُ على مَنْ يَطْلُبُ العاجلةَ ، وبينَ فعلِ ﴿ نَشَاءُ ﴾ ، العائدُ على الله ؛ فالإنسانُ هو الذي يُريدُ العاجلةَ ، ويُريدُ كلَّ الأشياءِ المتعجِّلةِ التي فيها ، لكن لا يعطيه الله كل ما يريد ، إنما يُعْطِيهِ ما يشاءُ هو سبحانه إعطاءه ؛ فهو يُريدُ ، ولكنَّ الله لا يُعْطِيهِ إلَّا ما يشاءُ !! .

٥ - شبهُ الجملةِ : ﴿ لِمَن يُرِيدُ ﴾ بدلٌ من شبهِ الجملةِ السابقة : ﴿ لَوُ ﴾ ، وهذا البَدَلُ بَدَلُ بعضٍ من كُلِّ ، وهو يؤكدُ معنى البعض وليس الكل ، لأنَّ الهاءَ في ﴿ لَوُ ﴾ تعودُ على اسمِ الشَّرْطِ ﴿ مَن ﴾ الدالُّ على العموم . ولو قالت الآيةُ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ لَبَيَّنَتْ أَنَّ اللهَ يُعْطِي كلَّ مُتَعَجِّلٍ ما يشاءُ إعطاءه مما أَرَادَهُ ، ولا يَمْنَعُهُ أيُّ شيءٍ أَرَادَهُ .

فجاءت الآيةُ ببدلِ البعضِ ﴿ لِمَن يُرِيدُ ﴾ من الكلِّ ﴿ لَوُ ﴾ لتُفَصِّلَ وتُخَصِّصَ ، وتُبَيِّنَ أَنَّ الذي سيعطيه الله هو مَنْ أَرَادَ إعطاءه ، ما شاءَ إعطاءه .

٦ - في قوله: ﴿ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾: اسمان للموصول متجاوران:

الأول: ﴿ مَا ﴾ ، والمراد به الشيء المعجَّل المعطى ، والذي هو مفعولٌ به للفعل ﴿ عَجَّلْنَا ﴾ ، والدالُّ على غير العاقل .

الثاني: ﴿ مَنْ ﴾ ، والمراد به الشخصُ الذي يُعطى ويُعَجَّلُ له ، والذي هو في محلِّ جرٍّ باللام .

وتجاورُ الموصولَيْنِ جميل ، وكونُ الأولِ في محلِّ نَصْبٍ والثاني في محلِّ جرٍّ جميل ، وكونُ أَحَدِهِمَا للعاقل ، والآخِرِ لغيرِ العاقلِ جميل ، وكونُ الأولِ هو الشيء المعطى ، والثاني هو الشخصُ المعطى له ، جميل! وسبحان منزل القرآن الجميل المعجز .

٧ - في قوله: ﴿ مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ فِعْلَانِ مضارعان ، كلُّ منهما مُسْتَدٌّ إلى الله ، فالله الذي يُعطى ما يشاء ، واللهُ هو الذي يُعطي مَنْ يريد ، الفاعلُ فيهما ضميرٌ مستتر ، تقديرُهُ «نحن» .

واللطيفُ أَنَّ كُلَّ واحدٍ من الفعلين صلةٌ لموصولٍ قبله ، والألطفُ أَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما حُذِفَ مفعولُهُ ، وَأَنَّ المفعولَ به فيهما واحد ، والتقدير: عَجَّلْنَا ما نشاءُ تعجيله ، لمن نريدُ تعجيله له .

٨ - ذُكِرَ الاسمُ ﴿ مَنْ ﴾ في الآيةِ مرتين ، واللطيفُ أَنه جاءَ في كُلِّ مرةٍ بمعنى:

﴿ مَنْ ﴾ الأول: اسمُ شرط: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ .

و﴿ مَنْ ﴾ الثاني: اسمُ موصول: ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ .

٩ - اللطيفُ ذَكَرُ شِبْهَ الجملةِ ﴿ لَهُ ﴾ في الآيةِ مرتين: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ﴾ و﴿ نُرَجَعْنَا لَهُ جَهَنَّمَ ﴾ ؛ ﴿ لَهُ ﴾ في المرةِ الأولى في جملةٍ تتحدَّثُ عن الدنيا . . و﴿ لَهُ ﴾ الثانيةُ في جملةٍ تتحدَّثُ عن الآخرة .

و﴿ لَهُ ﴾ الأولى في سياقِ الحديثِ عن الإِعْطَاءِ والإِنْعَامِ والمَنْ ، و﴿ لَهُ ﴾ الثانيةُ في سياقِ الحديثِ عن الحسابِ والجزاءِ والعقابِ .

أَيَّ أَنْ ﴿لَهُ﴾ الْأُولَى تَتَحَدَّثُ عَنِ الْإِنْسَانِ الْمَنْعَمِ ، و﴿لَهُ﴾ الثَّانِيَةُ تَتَحَدَّثُ
عَنْ هَذَا الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ عِنْدَمَا يَكْفُرُ بِالنَّعْمِ ، فَيَعَاقِبُ فِي جَهَنَّمَ .

١٠ - نَوَعَتِ الْآيَةَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ ، فَقَالَتْ : ﴿ مَا نَشَاءُ
لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ ، وَهَذَا مِنَ التَّفَنُّنِ فِي التَّبْيِيرِ الْقِرَائِيِّ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا تَرَادُفَ
بَيْنَ كَلِمَاتِ الْقُرْآنِ الْمُتَقَارِبَةِ فِي الْمَعْنَى ، فَلَا تَرَادُفَ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ ﴿ نَشَاءُ ﴾
و﴿ نُرِيدُ ﴾ .

وَاللَّطِيفُ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ أَنَّ فِعْلَ ﴿ نَشَاءُ ﴾ جَاءَ صِلَةً لِلْمَوْصُولِ
﴿ مَا ﴾ ، الْمُرَادُ بِهِ الشَّيْءُ الْمَعْطَى الْمَعْجَلُ . أَمَّا فِعْلُ ﴿ نُرِيدُ ﴾ فَقَدْ جَاءَ صِلَةً
لِلْمَوْصُولِ ﴿ مَنْ ﴾ الْمُرَادُ بِهِ الْإِنْسَانُ الْمَعْطَى لَهُ .

وَفِعْلُ ﴿ نُرِيدُ ﴾ يَتَنَاسَقُ مَعَ الْفِعْلِ الْمَضَارِعِ قَبْلَهُ ﴿ يُرِيدُ ﴾ ؛ أَيَّ أَنَّ اللَّهَ يُعْطِي
مَا ﴿ يُرِيدُ ﴾ سَبْحَانَهُ لِمَنْ ﴿ يُرِيدُ ﴾ الْعَطَاءَ ، فَبَيْنَ الْفِعْلَيْنِ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾
و﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ اتِّصَالٌ وَثِيقٌ فِي أُسْلُوبٍ بَيَانِيٍّ رَفِيعٍ ! .

١١ - فِي الْآيَةِ الْأُولَى نَوْعَانِ مِنَ الْحَالِ :

النَّوْعُ الْأَوَّلُ : جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ : ﴿ يَصَلِّئُهَا ﴾ الَّتِي هِيَ مَكُونَةٌ مِنْ فِعْلِ وَفَاعِلٍ
وَمَفْعُولٍ بِهِ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : حَالٌ مُفْرَدٌ ، اسْمٌ مَفْعُولٌ : ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ، وَبِجَانِبِهِ حَالٌ آخَرُ
﴿ مَدْحُورًا ﴾ . وَوُصِفَ الْكَافِرُ الْمَعْدَّبُ فِي النَّارِ بِثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ : ﴿ يَصَلِّئُهَا مَذْمُومًا
مَدْحُورًا ﴾ . وَالتَّقْدِيرُ : ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ صَالِيًا لَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا .

وَاللَّطِيفُ أَنَّ الْجُمْلَةَ الْفِعْلِيَّةَ حَالٌ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ ، أَمَّا الْحَالُ الْمَفْرَدُ
فَهُوَ اسْمٌ مَفْعُولٌ .

١٢ - يَوْجَدُ تَنَاسُقٌ لَطِيفٌ بَيْنَ الْعَجَلَةِ فِي فِعْلِ الشَّرْطِ وَجَوَابِهِ : ﴿ مَنْ كَانَ
يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ ، وَبَيْنَ التَّرَاخِيِّ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ
بَعْدَهَا ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ . . . ﴾ ، هَذَا التَّرَاخِيُّ قَوْرَهُ حَرْفُ ﴿ ثُمَّ ﴾ . . .
فَالْجُمْلَةُ الْأُولَى مُتَعَجَّلَةٌ سَرِيعَةٌ ، وَالْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ الْمَعْطُوفَةُ عَلَيْهَا بَطِيئَةٌ
مُتَرَاخِيَةٌ .

١٣ - في حديث الآية عن مُريد الآخرة اختارت له عبارة غير عبارة مُريد الدنيا؛ فقالت: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ . وفرق بين جملة ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ ، وجملة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ .

١٤ - وصفت الآية الثانية مُريد الآخرة بثلاث صفات ، وبينها فروق بيانية لطيفة :

الأولى : ﴿ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ : اختارت فعلاً ماضياً رباعياً ، متعدياً إلى مفعول

به .

الثانية : ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعِيهَا ﴾ : اختارت فعلاً ماضياً ثلاثياً لازماً ﴿ وَسَعَى ﴾ ، واستعاضت عن المفعول به بالمفعول المطلق ﴿ سَعِيهَا ﴾ . وأتت بحرف الجرّ « اللام » ، الدالّ على الأجل والتعليل ، وكأنّ شبه الجملة ﴿ لَهَا ﴾ مفعولٌ لأجله .

الثالثة : ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ جملة اسمية ، مكوَّنة من مبتدأ و خبر ، وهي في محلّ نصب حال .

وفي هذه الجُمَلِ واوان اثنتان : واؤ العطف في ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعِيهَا ﴾ . . . وواؤ الحال في ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

١٥ - في الآية الثانية انتقالٌ لطيفٌ من المفرد في فعل الشرط : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعِيهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إلى الجمع في جواب الشرط : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا ﴾ ، والتقابل جميلٌ بين المفرد والجمع في الجملة الشرطية .

١٦ - أسندت الآية الشكرَ إلى السعي ، وليس إلى أصحابه ، مع أنهم هم المشكورون : ﴿ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا ﴾ ؛ وهذا أبلغُ في الثناء على أصحابه ، فإذا كان سَعِيهِمْ مشكوراً ، وهو ليس إنساناً يُشكّرُ ، فما بالكَ بهم؟! وما هي منزلتهم عند الله؟! وما مستوى رضا الله عنهم ، وتكريمه لهم!؟ .

١٧ - استعملت الآيات اسمَ الإشارة للبعيد ﴿ أولئك ﴾ عند الحديث عن تكريم المؤمنين في الآخرة : ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا ﴾ . وحكمة

اختيار البعيد هي الإشارة إلى بُعد منزلتهم ، وعلو مكانتهم ، وهذا لمزيد تكريمهم وتشريفهم ، فمنزلتهم ليست دانية قريبة ، ولا يمكن لأي إنسان أن يصل إليها ، إنها تحتاج إلى شخصيات عالية ، بهمم وعزائم خاصة .

١٨ - بين اسمي الإشارة ﴿أولئك﴾ و﴿هؤلاء﴾ تقابل بياني ، وتكامل معنوي ؛ فعندما تحدّثت الآيات عن المؤمنين في الآخرة اختارت البعيد ﴿أولئك﴾ ، لأننا ما زلنا في الدنيا ، والآخرة بعيدة .

وعندما تحدّثت عن عطاء الله المقدم للمؤمنين في الدنيا ، اختارت اسم الإشارة القريب : ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ ، وهذا يتناسب مع قرب الحياة التي نعيشها . فالتعبير في البيان القرآني يحكمه ميزان بياني دقيق حسّاس .

١٩ - تكرار اسم الإشارة للقريب ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ ملحوظ مقصود ، لأن كل واحد يُشير إلى صنفٍ مذكورٍ قبله .

المرادُ باسم الإشارة الأول ﴿هؤلاء﴾ من أراد الدنيا في الآية الأولى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ . والمعنى : نُمِدُّ هؤلاء الذين يُريدون الدنيا العاجلة من عطاء ربك .

والمرادُ باسم الإشارة الثاني : ﴿هؤلاء﴾ من أراد الآخرة .

٢٠ - اللطيفُ أنّ المشارَ إليه في المرتين مُفرد : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ ، ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ ، ومع ذلك جاء اسم الإشارة جمعاً ﴿هؤلاء﴾ ، مع أنّ المتوقع أن يكون مُفرداً ، وأن يقول : كلاً نُمِدُّ هذا وهذا من عطاء ربك .

وحكمة الإشارة إلى المفرد بالجمع هي أنّ المفرد في الموضعين اسم شرط ﴿مَنْ﴾ ، واسم الشرط مثل اسم الموصول يتنطق على المفرد والجمع ، وهو في الآيات مُفرد بمعنى الجمع ، بدليل أنه أشار له بالجمع : ﴿هؤلاء﴾ .

٢١ - في قوله : ﴿نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ التفاتٌ بياني ، وهذا الالتفات من المتكلم في : ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ . لأن الله يتكلّم عن إمداده وإعطائه - إلى المخاطب في ﴿عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ ؛ حيث أُضيف الربُّ إلى

المخاطب ، ولو بقي على نفس الحالة لقال: كُلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطائنا .

٢٢ - يوجد تناسقٌ بيانيٌّ بين الاختصارِ والتطويلِ في قوله: ﴿ كُلاً نَمَدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾؛ الاختصارُ في تنوينِ العِوضِ في ﴿ كُلاً ﴾ ، الذي هو عِوضٌ عن مُضافٍ إليه محذوفٍ «كُلُّ صنف». والتطويلُ في تكرارِ اسمِ الإشارةِ ﴿ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ . والتطويلُ أيضاً في وضعِ الظاهرِ موضعَ الضميرِ في ﴿ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ ولو اختَصَرَ لقال: من عطائنا .

٢٣ - تناسَبَ تكرارُ ﴿ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ مرتين ، مع تكرارِ اسمِ الإشارةِ ﴿ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ مع تكرارِ اسمِ الشَّرْطِ: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ و﴿ وَمَنْ أَرَادَ ﴾ . فالثنائيةُ ملحوظةٌ في هذه المواضعِ والكلماتِ .

٢٤ - في عمليةِ التفضيلِ طَرَفَانِ: المَفْضَلُ والمَفْضَلُ عَلَيْهِ ، وهما المذكورانِ في قوله تعالى: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ؛ والطرفُ الأوَّلُ أَفْضَلُ مِنَ الطَّرْفِ الثَّانِي فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حتى في التعبيرِ والصياغةِ ، حيث جاءَ المَفْضَلُ مَفْعُولاً مَنْصُوباً ، وجاءَ المَفْضَلُ عَلَيْهِ مَجْرُوراً بِحَرْفِ ﴿ عَلَى ﴾ ، الدالُّ على الاستعلاءِ ، أي استعلاءِ المَفْضَلِ عَلَى المَفْضَلِ عَلَيْهِ: ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

٢٥ - في الآياتِ نوعانِ من تنوينِ العوضِ :

الأولُ: عِوضٌ عن كلمةٍ: ﴿ كُلاً ﴾ ؛ أي: كُلُّ فريقٍ .

والثاني: عِوضٌ عن ضميرٍ مُتَّصِلٍ ، في ﴿ بَعْضٍ ﴾ . والتقديرُ: ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

٢٦ - أُدخِلتْ لامُ الابتداءِ التوكيديةُ على الجملةِ الاسميةِ: ﴿ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ ﴾ ، لأنَّ السياقَ يَقْتَضِي التوكيدَ ، فالحديثُ على التفضيلِ الدنيويِّ بينِ الناسِ في الدنيا ، وقد يَشْغَلُ الناسُ به عن التفضيلِ في الآخرةِ ، فَنَاسَبَ أَنْ يَلْفَتَ أَنْظَارَهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ تَفْضِيلٍ ، ولذلك جاءَ بلامِ الابتداءِ للتوكيدِ .

٢٧ - كَانَ التَّرْكِيزُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْمَفْضَلِ وَالْمَفْضَلِ عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَذْكَرِ الْمَفْضَلُ بِهِ : ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، وَالْمَفْضَلُ بِهِ هُوَ الْإِعْطَاءُ وَالْإِمْدَادُ ، وَلَمْ يَرُدْ لَهُ ذِكْرٌ فِي الْجُمْلَةِ . أَمَّا التَّرْكِيزُ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ عَلَى الْمَفْضَلِ بِهِ : ﴿ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّفْضِيلَ فِي الْجَنَّةِ إِنَّمَا هُوَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَيَكُونُ فِي الْمَنَازِلِ وَالدرجاتِ ، وَلِذَلِكَ رَكَّزَ التَّفْضِيلَ عَلَى الدَّرَجَاتِ .

من أهم دلالات الآيات:

١ - الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا مَخْيِرٌ وَلَيْسَ مُسَيَّرًا مُجْبَرًا ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ قُدْرَةً عَلَى الْإِرَادَةِ ، فَهُوَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُرِيدَ الْعَاجِلَةَ ، وَإِنَّمَا أَنْ يُرِيدَ الْآخِرَةَ ، وَهُوَ حُرٌّ فِي مَا يَخْتَارُ ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ نَتِيجَةَ اخْتِيَارِهِ . وَهَذَا بِدَلَالَةِ إِسْنَادِ الْإِرَادَةِ لَهُ فِي الْآيَاتِ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ ، وَ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ .

٢ - النَّاسُ فِي اخْتِيَارِهِمْ أَحَدُ صَنْفَيْنِ ، لِثَلَاثَ لِهَمَّا : صَنْفٌ يُرِيدُونَ الْعَاجِلَةَ ، وَصَنْفٌ يُرِيدُونَ الْآجِلَةَ . وَالصَّنْفُ الْأَوَّلُ أَسَاؤُوا الْإِخْتِيَارَ ، لِأَنَّهُمْ اخْتَارُوا الْعَاجِلَةَ عَلَى الْآجِلَةِ ، وَالْفَانِيَةَ عَلَى الْبَاقِيَةِ . وَالصَّنْفُ الثَّانِي أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ إِلَى حَسَنِ الْإِخْتِيَارِ .

٣ - الْهَمَّةُ وَالْعَزِيمَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالْإِرَادَةِ ، وَعَلَى مَقْدَارِ الْإِرَادَةِ تَكُونُ الْهَمَّةُ ، فَمَنْ كَانَتْ إِرَادَتُهُ مُتَوَجِّهَةً إِلَى أَمْرٍ صَغِيرٍ كَانَتْ هِمَّتُهُ صَغِيرَةً ، وَكَلَّمَا كَبُرَ الْمَرَادُ كَبُرَتْ الْهَمَّةُ لِتَحْقِيقِهِ .

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ كَانَتْ هِمَّتُهُ صَغِيرَةً ، تَتَّفَقُ مَعَ صِغَرِ الْعَاجِلَةِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْآخِرَةَ كَبُرَتْ هِمَّتُهُ وَعَزِيمَتُهُ ! .

٤ - لَا يَنْعَتَرُ بِالْدُّنْيَا الْعَاجِلَةَ إِلَّا مَنْ كَانَ صَغِيرَ الْعَقْلِ ، ضَيِّقَ الْأَفْقِ ، قَصِيرَ النَّظَرِ ، أَمَّا الْآخِرَةُ فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى إِنْسَانٍ ذِي مَوَاصِفَاتٍ خَاصَّةٍ ، فِي عَقْلِهِ وَفِكْرِهِ ، وَنَظَرِهِ وَتَصَوُّرِهِ ، وَهَدْفِهِ وَاهْتِمَامِهِ . . وَشَتَانَ بَيْنَ عَاجِلَةٍ قَصِيرَةٍ فَانِيَةٍ ، وَبَيْنَ آخِرَةٍ بَاقِيَةٍ دَائِمَةٍ ! وَشَتَانَ بَيْنَ إِنْسَانٍ مَغْرُورٍ بِالْعَاجِلَةِ ، وَبَيْنَ مُؤْمِنٍ بِصِيرٍ غَيْرِ مَغْرُورٍ بِهَا ، مُتَوَجِّهٍ نَحْوَ الْآخِرَةِ .

٥ - الإنسان يُريدُ الحصولَ على أشياء كثيرة ، لكنَّ ذلك لا يتحققُ له ، لأنه عاجزٌ ضعيفٌ ، محدودُ القدراتِ والطاقات ؛ فالإنسانُ واسعُ الإراداتِ والرغباتِ والآمالِ والتطلعاتِ ، لكنه محدودُ المكاسبِ والنتائجِ !

٦ - قَدَرَ اللهُ واقعَ بالإنسانِ ، ولا ينالُ إلا ما قَدَرَهُ اللهُ وأرادَهُ له ، وإذا لم يَشَأْ اللهُ إعطاءَهُ الشيءَ لا يُمكنُ أن ينالَهُ ، وإنَّ إرادَهُ وسعى إليه . . ولا يكونُ إلا ما أرادَهُ اللهُ : ﴿ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ ؛ وإرادةُ اللهِ طليقةٌ ، ومشيئتهُ نافذةٌ ، لا يحُدُّها قيدٌ ، ولا يُبطلُها شيءٌ .

٧ - حياةُ الكافرِ تافهةٌ حقيرةٌ ، وخاسرةٌ هالكةٌ ، فهو في الدنيا ضعيفٌ عاجزٌ ، محكومٌ بقدرِ اللهِ وإرادتِهِ ، وهو في الآخرةِ ذاهبٌ إلى عذابِ النارِ ، وجهنمُ بانتظارِهِ ، ليصلَّها مدموماً مدحوراً ، وبئستِ الحياةُ حياةً مليئةً بالهمِّ والغمِّ والضعفِ والعجزِ ، ومنتهيةً بالخلودِ في عذابِ النارِ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصِلْنَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ .

٨ - لا تكفي إرادةُ الآخرةِ وحدها للفوزِ بالجنةِ ، ولا بد من أن تنتجِ الإرادةُ الصحيحةُ السعيَ المتواصلَ ، ولا بد أن يكونَ العملُ الصالحُ ثمرةً للهدفِ والقصدِ ، وأي إرادةٌ بدونِ عملٍ وسعيِ آمالٍ وأحلامٍ ، لا تتحققُ في عالمِ الواقعِ : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ .

٩ - الإيمانُ شرطٌ في قبولِ العملِ والسعيِ ، وأيُّ عملٍ لم ينبثقِ عن الإيمانِ فهو مردودٌ على صاحبه ، غيرُ مقبولٍ منه : ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ .

ولقد كانَ القرآنُ صريحاً في عَدَمِ قبولِ أعمالِ الكفارِ ؛ قال تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٧] . وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

١٠ - عطاءُ اللهِ مُتواصلٌ ، لا يتوقفُ ولا يتقطعُ ، يُمدُّ به الناسَ في الدنيا ، سواءً كانوا مسلمين أو كافرين ، وكلُّ إنسانٍ يتقلبُ بعطاءِ اللهِ وإنعامِهِ طولَ عمره ، ولو أوقفَ اللهُ عنه ذلكَ لهلكَ ! وهذا العطاءُ شاملٌ لكلِّ شيءٍ ،

ماديٍّ ومعنويٍّ ، داخليٍّ وخارجيٍّ ، نفسيٍّ وفكريٍّ ، فرديٍّ وجماعيٍّ ، ولا يمكنُ استقصاءُ ذلك العطاء وحضره .

١١ - ليست الدنيا مناطَ التكريم ، ولا الإمدادُ بالعطاءِ الدنيويِّ دليلَ التفضيلِ عند الله ، لأنَّ الله يُعطي كلَّ إنسانٍ من ذلك ، حتى لو كان كافرًا ، بل إنَّ الله يُعطي الكافرَ غالباً أكثرَ مما يعطي المؤمنَ من ذلك ، وكم يخسرُ ويخطئُ الذينَ يعتبرونَ الحصولَ على المتاعِ الدنيويِّ أساسَ التكريمِ والتفضيلِ !

١٢ - إذا أعطى اللهُ المؤمنَ الصالحَ من عطاءِ الدنيا فليشكر اللهُ على ذلك ، وليس معنى الإيمانِ الحرمانَ من الدنيا ، وليس معنى الزهدِ في الدنيا عدمَ الاستمتاعِ المباحِ بنعيمها .

١٣ - التفاضلُ بين الناسِ سُنةٌ ربانيةٌ مطردة ، فقد خلقَ اللهُ الناسَ على مستوياتٍ مختلفةٍ متفاوتةٍ ، وهذا التفاوتُ في كلِّ شيءٍ في الأمورِ الدنيويةِ الماديةِ ، والمؤمنُ يلحظُ هذه السُّنةَ ، ويفكرُ فيها ناظراً متدبراً معتبراً .

فَضَّلَ اللهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ، وَيُوكِّدُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ [النحل : ٧١] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

١٤ - التفضيلُ الكبيرُ هو الذي يكونُ في الآخرةِ ، والدرجاتُ الكبيرةُ التي يتفاضلُ فيها المؤمنونَ هي درجاتُهم في الجنةِ ، والمؤمنُ البصيرُ الموفقُ هو الذي يُنافِسُ على درجاتِ الآخرةِ ، ويُسابقُ غيرهَ إليها : ﴿ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .



الفصل السادس

﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾

قال الله عز وجل: ﴿ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقُوتُ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١].

هذه هي الآية الأولى من سورة الْمُتَّحِنَةِ، وسورة الممتحنة كلها مدنية، منها ما نزل بعد صلح الحديبية، في السنة السابعة من الهجرة، ومنها ما نزل في فتح مكة، في السنة الثامنة من الهجرة.

واسمها التوقيفي سورة «الْمُتَّحِنَةُ»، والراجح أن الكلمة تُنطق بفتح الحاء، على أنها اسمٌ مفعولٍ مؤنث، يُرادُ به المرأة الْمُتَّحِنَةُ؛ وسُميت بهذا الاسم لأنها تحدتت عن امتحان المؤمنات المهاجرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ووقفنا مع الآية الأولى من آيات هذه السورة.

ينهى الله في هذه الآية المؤمنين عن اتخاذ الكافرين الأعداء أولياء، ويُقْبِحُ هذا التصرف القبيح، ويدعوهم إلى مفاصلتهم والبراءة منهم.

وقبل إمعان النظر في جمل وكلمات هذه الآية نعيش في «جوِّ» نزولها، والحادثة التي نزلت بشأنها، والمشكلة التي عالجتها، لنحسن فهم مقاصدها.

لقد نزلت الآية في قصة الصحابيِّ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وقد وردت هذه القصة في كلِّ كتب الحديث والسيرة والتفسير بالمأثور.

وخلصتها: أن رسول الله ﷺ لما أراد فتح مكة بسبب نقض قريش عهدهم معه أحب أن يفاجئ قريشاً بذلك ، حتى لا يقع قتال ، ولا تُسفك دماء . فأخفى سر التوجه إلى مكة عن كثير من الصحابة ، ولم يخبر به إلا المقدمين من الصحابة ، وكان حاطب بن أبي بلتعة من أولئك الذين أخبرهم .

وكان لحاطب أهل وأقارب في مكة ، وخشي عليهم الهلاك والقتل ، وأراد أن يخبرهم لينجوا بأنفسهم ، فكتب لهم كتاباً ، يخبرهم فيه بتوجه النبي ﷺ إلى مكة ، ويطلب منهم النجاة!! وسلم الكتاب إلى امرأة من أهل مكة ، قدمت المدينة في حاجة لها ، وطلب منها توصيله إلى أهله ، فحملت الكتاب ، ووضعت في شعرها ، وتوجهت إلى مكة .
وأخبر الله رسوله ﷺ بالأمر .

فاستدعى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، رضي الله عنهم ، وأخبرهم أن الكتاب مع المرأة ، وأن المرأة موجودة في مكان على الطريق اسمه «روضة خاخ» ، وطلب منهم إحضار الكتاب منها .

وسار الفرسان الثلاثة إلى روضة خاخ ، ووجدوا المرأة هناك ، وطلبوا منها إعطائهم الكتاب ، فنفت أن يكون معها كتاب ، فهددوها قائلين: لقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن معك كتاباً ، وهو صادق ، وأنت كاذبة ، ووالله لتخرجن الكتاب أو لنلقين الشيا!! .

فلما رأت الجدّ عندهم أخرجت الكتاب من شعرها ، وناولتهم إيّاه ، فعادوا به إلى رسول الله ﷺ .

فاستدعى الرسول ﷺ حاطباً ، وقال له: «ما هذا يا حاطب؟!» .

فقال حاطب: لا تعجل علي يا رسول الله ، إني كنت امرأة من قريش . ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت أن أصطنع إليهم يداً . وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني .

واعترف حاطب رضي الله عنه بخطئه ، واستغفر الله .

وغيضَ عمرُ بينَ الخطابِ رضي اللهُ عنه من فعلَةِ حاطبٍ ، فطلَبَ من الرسولِ ﷺ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ بِضَرْبِ عُنُقِهِ!! .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لقد شهدَ بَدْرًا ، وما يُدريكَ لعلَّ اللهُ أَطْلَعَ على أَهْلِ بَدْرٍ ، فقال: اعمَلُوا ما شِئْتُمْ فقد غَفَرْتُ لكم!» .

ونزلت الآيةُ بشأنِ هذه الحادثة .

وَبُادِرُ إِلَى الْقَوْلِ: لقد كانَ حاطبُ رضي اللهُ عنه بَدْرِيًّا من خيارِ الصحابةِ ، ولم يكنْ في فعلتِهِ مَوالِيًّا للكفارِ ، إنما أرادَ أَنْ يُدَبِّرَ أَقارِبَهُ في مكةَ أمورَهُم لينجوا من الموتِ ، واجتهدَ في ما فَعَلَ ، لكنه أخطأَ في اجتِهادهِ وفعلِهِ . . ويدلُّ هذا على أَنَّ الصحابةَ ليسوا معصومين ، فهم عرضةٌ للخطأِ .

ولكنَّ الآيةَ جَعَلَتْ فعلَةَ حاطبِ رضي اللهُ عنه فُرصةً مناسبةً للنهي عن اتخاِذِ الكفارِ أولياءَ ، وتَهديدِ مَنْ يفعلونَ ذلكَ .

وفيما يلي وقفنَا التحليليةً مع جُملي الآيةِ وكلماتِها:

١- قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ :

ابتدأت الآيةُ بهذا النداءِ من اللهُ للمؤمنين ، ليكونَ هذا النداءُ تمهيداً للتكاليفِ والتوجيهاتِ ، المذكورةِ في جُملي الآيةِ اللاحقةِ .

«يا»: حرف نداء . و«أَيُّ»: منادى مبني على الضمِّ . و«ها»: حرف للتنبيه . و«الَّذِينَ»: اسم موصول ، بدلٌ من المنادى «أَيُّ»: و«ءَامَنُوا»: فعلٌ ماضٍ وفاعلهُ ، والجُملةُ صلةُ الموصولِ ، والتقدير: يا أَيُّها المؤمنون .

لقد نادى اللهُ المؤمنين بأحَبِّ الصفاتِ إليهم ، وهي صفةُ الإيمانِ ، وذلك لتَهيئةِ نفوسِهِم وكيانِهِم لتلقِي ما بعدَ النداءِ ، ولإيقاظِ وتنبيهِ المشاعرِ الإيمانيةِ الحيةِ في كيانِهِم ، ومعلومٌ أَنَّ إيجادَ وتجهيزَ وتهيئةَ الجَوِّ الإيمانيِّ يسبِقُ التكليفَ الجازمَ ، وذلك لضمَانِ الالتزامِ بالتكليفِ .

وهذا النداءُ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ليس خاصًّا بحاطبِ رضي اللهُ عنه ، ولا بأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وإنما هو عامٌّ يشملُ كُلَّ المسلمين ، على

اختلاف الزمان والمكان بدلالة اسم الموصول: ﴿الَّذِينَ﴾ ، ومعلوم أن اسم الموصول من ألفاظ العموم .

وَنَصَحْنَا الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالِاتِّبَاهِ لِلتَّكْلِيفِ الَّذِي يَتَّبِعُ النِّدَاءَ ، فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ ، فَبَعْدَهَا أَمْرٌ تَلْتَزِمُ بِهِ ، أَوْ نَهْيٌ تَتَوَقَّفُ عَنْهُ!! .

٢- قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ :

هذه الجملة وما بعدها جوابُ النداء ، وهي جملةٌ طلبيةٌ ، ينهى الله فيها المؤمنين عن اتخاذ الأعداء أولياء .

﴿ لَا ﴾ : حرفُ نهي . و﴿ تَتَّخِذُوا ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بـ﴿ لَا ﴾ الناهية ، وعلامةُ جزمه حَذْفُ النونِ لأنه من الأفعال الخمسة ، والواوُ في محلِّ رفعٍ فاعل . و﴿ عَدُوِّي ﴾ : مفعولٌ به أوَّل ، والياءُ في محلِّ جرِّ مضافٍ إليه ، ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ : معطوفٌ على ﴿ عَدُوِّي ﴾ . و﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ : مفعولٌ به ثانٍ منصوب .

ويمكن استخراج الإشارات واللطائف التالية من هذه الجملة :

أ - دَخَلَتْ ﴿ لَا ﴾ الناهية على الجملة الفعلية ، ونهت الجملة المؤمنين عن اتخاذ الأعداء أولياء . . والأصل في النهي أن يدلَّ على التحريم ، ولا يُصرفُ عن التحريم إلى الكراهة أو التنزيه إلا عند وجود القرينة وتحقق الضرورة ؛ وهذا غير متحقق هنا .

ولذلك يجبُ أخذُ النهي هنا على أصله ، والقولُ بأنه يحرمُ اتخاذ الأعداء أولياء ، وأنَّ الذين يتخذون الأعداء أولياء إنما يرتكبون بذلك حراماً ، نهاهم الله عن فعله ، وهم بهذا يُعرِّضون أنفسهم للعذاب في الآخرة .

ب - نَصَبَ فعلٌ ﴿ تَتَّخِذُوا ﴾ هنا مفعولين ، ومعلومٌ أنه إذا نصبَ هذا الفعلُ مفعولين فإنه يكونُ بمعنى التَّصْيِيرِ والتَّحْوِيلِ . . ولمعرفة معنى التصيير وإجرائه على الفعل ومفعوليه ، لا بُدَّ من ملاحظة الحالة الأولى المتمثلة بالمفعول الأول ، والحالة الثانية التي تتمثل بالمفعول الثاني .

يدلُّ المفعولُ الأوَّلُ ﴿عَدَوِيَّ وَعَدُوَّكُمْ﴾ على أَنَّ العاقلَ هو الذي يَتَّخِذُ العَدُوَّ عَدُوًّا ، وَيَحْذَرُهُ لعداوتِهِ له .

وغيرُ العاقلِ هو الذي يتخذُ العَدُوَّ وليًّا ، أي: هو الذي يَتَّقِلُهُ وَيُصَيِّرُهُ ، وَيُحَوِّلُهُ من كونه عَدُوًّا ليكونَ وليًّا وحليفًا وصديقًا! وهذه هي البلاءةُ والسداجةُ .

ج - حكمةُ إضافةِ العَدُوِّ إلى الله في ﴿عَدَوِيَّ﴾ : تَقْبِيحُ موقفِ هؤلاءِ الكفارِ الأعداءِ ، وبيانُ سوءِ موقفهم ، فلا يُعادي اللهُ إنسانًا عنده خير ، إذ كيف يُعادي اللهُ ، وهو الخالقُ الرازقُ المنعمُ المتفضلُ .

و«عَدُوُّ اللهُ» هو الكافرُ ، وكلُّ كافرٍ عَدُوُّ اللهُ ، لكُفْرِهِ باللهِ وشركه به ، وَمَنْ عاداهُ اللهُ لكُفْرِهِ فَإِنَّهُ يحاربهُ وَيَتَّقِمُ منه .

وإذا كانَ كُلُّ مؤمنٍ صالحٍ وليًّا اللهُ ، فَإِنَّ كُلَّ كافرٍ عَدُوُّ اللهُ ، وإذا كانَ اللهُ يحبُّ أوليائه الصالحينَ فَإِنَّهُ يكرهُ أعداءَ الكافرينَ! وإذا كانَ هناكَ أحبابٌ لله ، فَإِنَّ هناكَ أعداءَ اللهُ .

د - عَدُوُّ اللهُ وَعَدُوُّ المؤمنينِ واحدٌ ، فالذي أُضيفَ إلى اللهُ : ﴿عَدَوِيَّ﴾ هو نفسه الذي أُضيفَ إلى المؤمنينِ ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، وحكمةُ عطفِ ﴿عَدُوَّكُمْ﴾ على ﴿عَدَوِيَّ﴾ هي دعوةُ المؤمنينِ إلى (برمجة) عَدُوِّهم ، وإحسانِ تقويمه والنظرِ إليه ، وَأَنْ ينطلقوا في ذلك من منطلقِ ديني!! .

إِنَّ عَدُوَّ اللهُ عَدُوُّ لهم ، والذي جعله اللهُ عَدُوًّا له لكُفْرِهِ ، يجبُ أَنْ يتخذه المؤمنونَ عَدُوًّا لهم لكُفْرِهِ ، وإذا كانَ الكافرُ عَدُوًّا اللهُ ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ هذا الكافرُ عَدُوًّا للمسلمينَ! وَمِنْ غيرِ المقبولِ والمعقولِ أَنْ يُعادي اللهُ كافرًا ، ثم يأتي مسلمٌ يتخذه وليًّا أو صديقًا أو حبيبًا! .

هـ - اللافِتُ للنظرِ في مفعولي الفعلِ : ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّيَّ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أَنْ المفعولِ الأوَّلِ جاءَ مفردًا ، والمفعولِ الثاني جاءَ جَمْعًا ، وهذا مقصودٌ ومراد! .

إن مجيء المفعولِ الثاني جَمْعًا ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وفق القاعدة ، ولا يَحْتَاجُ إلى

توجيه أو تعليل ، والتعليل موجّهٌ لمجيء المفعول الأوّل مفرداً ﴿عَدُوٌّ وَعَدُوٌّكُمْ﴾ .

هناك حكمتان من مجيء المفعول الأوّل مفرداً:

الأولى: هي بيان طبيعة عداوة الأعداء: إنهم كثيرو العَدَد ، لكنّ طبيعة عداوتهم واحدة ، إنهم يُعادون الله لكُفْرِهِمْ به ، ويُعادون المؤمنين لحقدِهِمْ عليهم؛ فالعداوة دينيةٌ في الطبيعة والباعثِ والسببِ والهدفِ ، ولهذا قال: ﴿عَدُوٌّ وَعَدُوٌّكُمْ﴾ .

الثانية: تهوينُ أمرِ الأعداءِ وتحقيرُهُم: صحیحٌ أنّ عددَ الأعداءِ كثيرٌ ، وأسلحتُهُم فتاكةٌ ، لكنَّهُم لا وُجودَ لهم أمامَ عظمةِ الله ، وقوَّتُهُم تتلاشى وتتبدّد أمامَ قوةِ الله ، ويتحوّلون إلى أصفارٍ أمامَ أمرِ الله ، فكأنّ هؤلاء جميعاً - الذين يُعدّون بالملايين - تحوّلوا إلى مجردِ عدوّ واحدٍ ، ضعيفٍ ضئيلٍ هزيلٍ !! .

و - ﴿أَوْلِيَاءَ﴾: جمعٌ ، مفردُه «وَلِيٌّ» صفةٌ مشبهةٌ على وَزْنِ «فَعِيلٍ» ، مشتقةٌ من الفعلِ الماضي الثلاثي: «وَلِيَ» .

وتقومُ المادّةُ على معنى القربِ؛ يُقالُ: وَلِيَهِ؛ أي: اقتربَ منه . و: وَالَاهُ: قَرَبَهُ .

قالَ الإمامُ الراغب: «الوَلَاءُ والتوالي: أن يحصلَ شَيْئانَ فصاعداً ، حُصولاً ليس بينهما ما ليسَ منهما ، ويُستعارُ ذلكَ للقربِ من حيثُ المكانِ ، ومن حيثُ النسبةِ ، ومن حيثُ الدينِ ، ومن حيثُ الصداقةِ والنصرةِ والاعتقادِ . والولايةُ: النصرَةُ ، والولايةُ تَوَلَّى الأمرُ»^(١) .

والولايةُ: هي القربُ والتقريبُ ، والتحالُفُ والتناصرُ ، والتأييدُ والمساعدةُ .

والوليُّ: هو المقرَّبُ والحليفُ والمساعدُ والنصيرُ .

والأصلُ في الوليِّ أن يكونَ حريصاً على مَنْ تَوَلَّاهُ ، وعلى تقديمِ الخيرِ

(١) المفردات ، ص ٨٨٥ .

له ، وَتَحْقِيقِ مَصْلَحَتِهِ ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى نُصْرَةِ مَنْ تَوَلَّاهُ ، وَدَفْعِ الْأَذَى عَنْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا .

وَلَا تَتَوَقَّرُ فِي الْكُفَّارِ شُرُوطٌ وَصِفَاتُ الْوَلِيِّ ، وَلَا مَعْنَى الْوَلَايَةِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ اتِّخَاذُهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَكَمْ يُخْطِئُ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَهُمْ أَوْلِيَاءَ؟! .

ز - كَثِيرَةٌ هِيَ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي حَرَّمَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اتِّخَاذَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ، وَرَبَطَتِ الْوَلَاءَ بِالْعَقِيدَةِ ، وَبَيَّنَّتْ أخطَارَ مَوَالَاةِ الْكُفَّارِ الْعَقِيدِيَّةِ وَالْفَقْهِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْحُرُوكِيَّةِ وَالِدَوْلِيَّةِ .

- مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] .

- وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبُنْعُوْا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩] .

- وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] .

٣- قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ :

هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْفَعْلِيَّةُ خُطَابٌ آخَرُ مِنَ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، بِهَدَفِ تَنْفِيرِهِمْ مِنْ مَوَالَاةِ الْأَعْدَاءِ ، وَتَهْيِيجِهِمْ عَلَى مَفَاصِلَتِهِمْ وَالْبِرَاءَةِ مِنْهُمْ .

﴿تَلْقَوْنَ﴾ : فَعْلٌ مُضَارِعٌ مَرْفُوعٌ وَفَاعِلُهُ ، وَ﴿بِالْمُودَةِ﴾ جَارٌ وَمَجْرُورٌ مُتَعَلِّقَانِ بِالْفِعْلِ ، وَ«الْمُودَةُ» مَجْرُورَةٌ لَفْظًا ، لَكِنِهَا مَنْصُوبَةٌ مَحَلًّا ، لِأَنَّهَا مَفْعُولٌ بِهِ : تَلْقَوْنَ الْمُودَةَ إِلَيْهِمْ . وَجُمْلَةُ ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ﴾ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ حَالٍ ، وَصَاحِبُ الْحَالِ فَاعِلٌ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ الْعَائِدُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَيُّ : لَا تَتَّخِذُوا أَعْدَاءَكُمْ أَوْلِيَاءَ ، مُلْتَقِينَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ .

وَإِلِّقَاءُ هُوَ الطَّرْحُ وَالرَّمْيُ ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى التَّقْدِيمِ . وَإِذَا تَعَدَّى الْفِعْلُ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ مَبَاشَرَةً يَكُونُ بِمَعْنَى الرَّمْيِ ؛ نَقُولُ : أَلْقَيْتُ الْحَجَرَ ؛ أَيُّ : رَمَيْتُهُ . وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَا بَعْدَهُ بِحَرْفِ «إِلَى» كَانَ بِمَعْنَى التَّقْدِيمِ وَالتَّوَصُّيلِ وَالْإِعْطَاءِ ؛ نَقُولُ : أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ بِهَدْيِي ؛ أَيُّ : أَوْصَلْتُهَا إِلَيْهِ .

و«المودّة» مصدر ، فعله الماضي «وَدَّ». نقول: وَدَّ ، وُدّاً وَمَوَدَّةً .
والمودّة هي المحبة الخالصة الأكيدة .

وفي جملة ﴿ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ الإشارات واللطائف التالية :

أ - التعبير بالجملة الفعلية للإشارة إلى معنى التجدّد ، ومع أنّ الجملة
واردة في سياقِ التّعجب ، فإنّ الجملة الفعلية تزيد من معنى التّعجب
والإنكار .

ب - مجيء الجملة الفعلية حالاً من المؤمنين ، لمزيد من التعجب
والاستغراب ، إذ كيف يكون حالكم أيها المسلمون إلقاء المودّة وتقديم
المحبة لأعدائكم الكافرين؟! .

ج - تُقدّم الجملة صورة قرآنية عجيبة ، على أساس «التصوير» المؤثّر ،
الذي عرض به القرآن مختلف موضوعاته .

المودّة أمرٌ معنويّ مجرد ، وليس مادياً ملموساً ، لكنّ هذه المودّة في
الآية صورة مادية مجسّمة ، مرئية محسوسة ، ولها حركة فنية متخيّلة . . أنت
ترى هذه «المودّة» موضوعة في يد الإنسان ، تملأ كفه ، كما توضع فيه أيّ
مادّة ، كالحجر أو الفاكهة . . وترى يد الإنسان تتحرّك بهذه المودة ، وتنقلها
إلى الطرف الآخر ، وهم الكفار الأعداء . . وأنت ترى الكفار يتناولون هذه
المودّة التي أُلقيت إليهم .

وتحويل المودّة من مجرد مشاعر وعواطف وأحاسيس وانفعالات ،
متعلقة بالودّ والحبّ والرغبة ، إلى شيء ماديّ مجسّم متخيّل محسوس ، يتم
إلقاؤه وتوصيله إلى الكفار ، جمالاً بيانيّ رائع .

د - الأصل أنّ «المودّة» في الجملة مفعولٌ به ، ولكنها جُرّت بالباء
﴿ بِالْمَوَدَّةِ ﴾ لمزيد من توكيد اتصال الفعل بالمفعول به! .

وهذه الباء باء المُلابسة والمصاحبة ، أي: أنّ الإلقاء والتوصيل مُلابسٌ
ومُلازمٌ للمودّة . ويزيد إدخال الباء على «المودّة» من التنفير من موالاة
الكفار .

٤ - قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ :

يستمرُّ السياقُ في تهيجِ المسلمين على عدم موالاتِ الأعداءِ الكافرين ، فتذكرُ هذه الجملةُ كُفْرَ الأعداءِ بالحقِّ الذي أكرم اللهُ به المؤمنين .

﴿قَدْ﴾ : حرفٌ للتحقيق . و﴿كَفَرُوا﴾ : فعلٌ ماضٍ وفاعلُهُ . و﴿بِمَا﴾ : الباء حرف جر ، «ما» : اسم موصول ، في محلِّ جرٍّ بالباء . و﴿جاءكم﴾ : «جاء» : فعلٌ ماضٍ . والضميرُ المتصلُ «كم» في محلِّ نصب مفعولٍ به مقدَّم . و﴿الْحَقِّ﴾ : مجرورٌ لفظاً ، مرفوعٌ محلاً ، لأنه فاعل «جاء» ؛ أي : جاء الحقُّ المسلمين .

والمعنى : كَفَرَ أعداؤكم بالحقِّ الذي جاءكم .

والحقُّ هو الصوابُ والصحيح الذي يبقى حقاً ، ولا يتحوَّلُ إلى باطل ، فلا يمكنُ أَنْ يكونَ حقاً صحيحاً اليوم ، ثم يكونَ غداً باطلاً وضلالاً ؛ ففي الحقِّ معنى الثباتِ واللزومِ والاستقرارِ .

والمرادُ بالحقِّ هنا : القرآن ، لأنه هو الذي جاء المؤمنين من عند الله ، والقرآنُ كلُّه حقٌّ وصوابٌ في جانبين :

الجانب اللفظي : المتمثلُ في سور القرآن وآياته ، وفي جُمَلِهِ وعبارتِهِ ، وفي حروفِهِ وكلماتِهِ ، وكلُّ مسلمٍ يوقنُ أَنَّ كُلَّ كلمةٍ في القرآنِ من عندِ الله .

الجانب المعنوي : المتمثلُ في معاني القرآنِ وموضوعاتِهِ ، وأحكامِهِ وتشريعاتِهِ ، وحقائِقِهِ ومضامينِهِ ، فهي كلها صوابٌ لا خطأ فيه .

والكفارُ كَذَّبوا هذا الحقَّ وكَفَرُوا به ، ونَفَّوْا أَنْ يكونَ من عندِ الله ، وسَنَّوْا عليه حرباً عنيفةً ، وبذلك أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ .

وفي هذه الجملةُ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ الإشاراتُ واللطائفُ التالية :

أ - جاءتْ هذه الجملةُ حاليةً ؛ والواوُ فيها واوُ الحالِ . و﴿قَدْ﴾ داخلةٌ على الفعلِ الماضي للتوكيد ، وهي دليلٌ على أَنَّ الجملةَ حاليةً ، وصاحبُ الحالِ

المفعولُ الأوَّلُ ﴿عُدُوْى﴾ . والتقديرُ : لا تَتَّخِذُوا عُدُوْى وَعُدُوْكُمْ - الكافرينَ بالحقِّ الذي معكم - أولياء .

واللطيفُ مجيءُ جملتين متجاورتين حالاً ، والجملتان هما ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ . الحالُ الأوَّلُ يعودُ على المؤمنين المخالفين ، في سياق الإنكارِ عليهم ، والحالُ الثاني يعودُ على الكافرين ، في سياق تقدير حقيقة كفرهم بالحقِّ . والتقديرُ : لا تتخذوا أعداءكم أولياء : أنتم ملقون إليهم بالموَدَّة ، وهم كافرون بالحقِّ الذي معكم !! .

ب - اختلفَ التعبيرُ عن حالِ المسلمين وحالِ الكافرين ؛ فجاء حالُ المسلمينَ بالفعلِ المضارع ، الدالُّ على التجددِ والاستمرار ، لأنَّ الهدفَ منه التنفيرُ من موالاة الكفار ، وتقبیحُ صدوره عن مسلمين . . . أمَّا حالُ الكافرين فقد جاءَ بالفعلِ الماضي ، الدالُّ على التحققِ والاستقرارِ والثباتِ والدوام ، لتأكيدِ أن كُفْرهم بالحقِّ ثابتٌ مستقر ، وليس عرضياً طارئاً .

ج - تهدفُ الجملةُ إلى تهييجِ المسلمين على عدمِ موالاةِ الكافرين ، إنهم على الحق ، الذي أكرمهم الله به ، وإنَّ أعداءهم على باطل . وهؤلاء الأعداءُ كفروا بالحقِّ الذي مع المسلمين وحاربوه ، ألا يدعوهم هذا إلى عدمِ موالاةِ الكفار؟ إذ كيف يتخذونهم أولياء وهم على هذه الحال؟! .

هـ - قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ :

تُسجَلُ هذه الجملةُ جريمةً أُخرى للأعداء ، بهدفِ الاستمرارِ في تهييجِ المسلمين على عدمِ موالاةِهم ؛ وهذه الجريمةُ ناتجةٌ عن الجريمةِ السابقة ، فبعدَ أن أُخبرَتِ الجملةُ السابقةُ عن كفرهم بالحقِّ الذي مع المسلمين ، أُخبرَتِ هذه الجملةُ عن إخراجهم الرسولَ ﷺ والمؤمنين ، بسببِ إيمانهم بالله .

﴿يُخْرِجُونَ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وفاعلهُ . و﴿الرُّسُولَ﴾ : مفعولٌ به . و﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ : الواوُ حرفُ عطفٍ . و﴿إِيَّا﴾ ضميرٌ منفصلٌ في محلِّ نصب ، لأنه معطوفٌ على المفعولِ به . و﴿كم﴾ : حرفُ خطابٍ لا محلَّ له من الإعراب . والمصدرُ من ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٍ لأجلِهِ . أي : إيمانكم .

والتقدير: هؤلاء الكفار يُخرجون الرسول والمؤمنين لإيمانهم بالله .

ويمكن استخراج اللطائف والدلالات التالية من هذه الجملة:

أ - هذه الجملة في محلّ نصب حال ، وصاحب الحال هو المفعول به ﴿عَدُوِّي﴾ . ومعنى هذا أَنَّ الآية ذَكَرَتْ حَالَيْنِ لِلأَعْدَاءِ: الحالُ الأَوَّلُ في الجملة السابقة ، والحالُ الثاني في هذه الجملة . والتقدير: لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعدوكم أولياء ، وهم كفارون بالحقّ الذي معكم ، وهم مُخرجون لكم من دياركم .

ب - جريمة الكفار الجديدة التي سَجَلَتْهَا هذه الجملة مرتبطة مع جريمتهم في الجملة السابقة ، وثمرتها لها ، ونتيجة عنها ، أي أَنَّ كُفْرَهُمْ بالحقّ الذي مع المؤمنين دفعهم إلى ارتكاب جريمة إخراجهم من بلادهم؛ فالجريمة الأولى نظرية ، والجريمة الثانية عملية ، لأنّ الفكر والنظر هو الذي يوجّه السلوك والعمل .

ج - عَبَّرَتِ الجملة عن جريمة الكفار بالفعل المضارع ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ ، وذلك لاستحضار مشهد الإخراج والطرْد والإبعاد ، وتصوير حالة الجريمة ، من باب المبالغة في تهيج المؤمنين على عدم موالاته الكفار الأعداء .

واللَّطِيفُ أَنَّ الحالَ الأَوَّلَ للكفار جاء بصيغة الفعل الماضي: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ للإشارة إلى أَنَّ الكفر حالة دائمة مقرّرة مسبقة ، بينما جاء الحال الثاني لهم بصيغة الفعل المضارع: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ لتصوير الجريمة والتنفير منها . . . ومجيء حاليّن متواليّين ، كلّ منهما جملة فعلية ، لكنّ الأَوَّلَ فعله ماضٍ ، والثاني فعله مضارع ، جمالٌ بياني قرآني معجز .

د - «إِيَّا»: ضميرٌ منفصل ، في محلّ نصب ، لأنه معطوفٌ على المفعول به ﴿الرَّسُولَ﴾ والمقصودُ به المؤمنون . و«كُمْ»: حرفُ خطاب ، وهو خطابٌ من الله للمؤمنين . ومن المعلوم أَنَّ «إِيَّا» ضميرٌ منفصلٌ لا يأتي في القرآن إلا في محلّ نصب .

وبما أَنَّ ﴿إِيَّاكُمْ﴾ معطوفٌ على ﴿الرَّسُولَ﴾ فيجبُ وصله بما قبله في التلاوة: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولا يجوزُ الوقفُ على ما قبله والبدءُ به في

التلاوة ؛ أي لا يجوز أن يقرأ: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ! .

بمعنى أَنَّ الواوَ في ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا تكونُ إلَّا حرفَ عطف ، ولا يمكنُ أَنْ تكونَ حرفَ استئناف ، ومَنْ اعتبرها حرفَ استئنافِ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ !! لأنها لو كانت حرفَ استئنافٍ لكانت الجملةُ تحذيراً من الإيمانِ باللهِ !! ﴿وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ؛ أَي: أُحذِرُكُمْ من الإيمانِ باللهِ ، إياكم أَنْ تؤمنوا . . وهذا كُفْرٌ !! .

هـ - الجملةُ الفعليةُ ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ في محلِّ نَصْبٍ مفعولٍ لأجلِهِ ، فهي جملةٌ تعليليةٌ ، تُعلِّلُ ما قبلها ، وتُجِيبُ على تَساؤُلٍ قد يتبادرُ للذهنِ : لماذا يُخْرِجُ الكفارُ الرسولَ والمؤمنينَ من ديارِهِم ، وما الذي ارتكبه حتى يُعاقبوا بالإخراجِ ؟ فتقدِّمُ هذه الجملةُ الجوابَ : السببُ هو إيمانُ المؤمنينِ باللهِ ! فهذا الإيمانُ جريمةٌ عظيمةٌ استحقَّ أصحابُه الإخراجَ ! والهدفُ من المفعولِ لأجلِهِ ذمُّ الكفارِ وتقبيحُ موقفِهِم ، والاستمرارُ في تهيجِ المسلمينِ على عَدَمِ موالاتِهِم ؛ فمتى كان الإيمانُ جريمةً يُعاقبُ صاحبُه !! .

و - جاءَ المفعولُ لأجلِهِ في الجملةِ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ : ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ ، وذلك للإشارةِ إلى أَنَّ إيمانَ المؤمنينِ باللهِ مُستمرٌّ متواصلٌ ، لا يتوقفُ ولا ينقطعُ ، وفيه ثناءٌ على المؤمنينِ ، لاستمرارِ ثباتِهِم على الإيمانِ باللهِ ، فما يُلاقونه من أذى ومحنةٍ وإخراجٍ وعقوبةٍ لم يُؤثِّرْ على إيمانِهِم باللهِ .

ز - ذكرت الجملةُ الألوهيةُ والربوبيةُ : ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ . . والهدفُ من ذلك الثناءُ على المؤمنينِ لجمعِهِم في الإيمانِ بين توحيدِ الألوهيةِ وتوحيدِ الربوبيةِ ، وأنهما لا بد منهما ليكون الإيمانُ باللهِ صحيحاً ومقبولاً . والهدفُ من ذلك أيضاً المبالغةُ في ذمِ الكفارِ على سوءِ جرائمِهِم ، والاستمرارِ في تهيجِ المسلمينِ على مفاصلتِهِم .

٦ - قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ :

هذه الجملةُ استمرارٌ لما قبلها في تحذيرِ المؤمنينِ من موالاةِ الكافرينِ ،

وجاء التهيجُ والتحذيرُ في الجملة بأسلوبِ الشَّرْطِ .

﴿إِنْ﴾ : حرفُ شَرْطٍ . و﴿كُنْتُمْ﴾ : فعلُ الشرطِ . وجملة : ﴿خَرَجْتُمْ﴾ : فعلٌ وفاعل ، في محلِّ نصبٍ خبرٍ ﴿كُنْتُمْ﴾ ؛ أي : إن كنتم خارجين . و﴿جِهَدًا﴾ : مفعولٌ لأجله . ﴿وَأَبْنَعًا﴾ : معطوفٌ عليه منصوب . وجوابُ الشرطِ محذوف ، دَلَّ عليه ما قبله ، والتقدير : إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي فلا تتخذوا عدوِّي وعدوكم أولياء .

ويمكنُ تسجيلُ اللطائفِ والإرشاداتِ التالية :

أ - تلغي الجملةُ الشرطيةُ : ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَدًا﴾ ظلَّ التهديدِ والتحذيرِ ، لأنَّ المقامَ يستدعي ذلك ، فإن استمروا على اتخاذِ الأعداءِ أولياءَ فإنَّ هدَفهم من الخروجِ لن يتحقَّق ، ولن ينالوا أجرَ الجهادِ ، ولن يُحقِّقوا مَرْضاةَ الله !! .

ب - تدلُّ الجملةُ الشرطيةُ : ﴿إِنْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ على أنَّ موالاةَ الكفارِ الأعداءِ مُحِبَّةٌ لأجرِ العاملين ، فلا ينالون أجرَ الجهادِ ، ولا يُحقِّقونَ مَرْضاةَ الله . هذا دليلٌ آخرٌ على خطورةِ اتخاذِ الأعداءِ أولياءَ ! ولا بُدَّ أن يتنبه لها المسلمون ، وأن لا يتهاونوا فيها ، كما هو الحاصلُ في هذه الأيام .

ج - هناك تقابلٌ بين الإخراجِ في الجملةِ السابقة والخروجِ في هذه الجملة . فلما سجلت الجملةُ السابقة جريمةَ الكفارِ قالتُ للمؤمنين : ﴿يُخْرَجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ، ولما حذرتُ هذه الجملةُ المؤمنين من موالاةِ الكافرينِ قالتُ لهم : ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا...﴾ .

﴿يُخْرَجُونَ﴾ : مضارع ، ماضيه رُباعي : أخرج . و﴿خَرَجْتُمْ﴾ : ماضٍ ثلاثي . والفرقُ بينهما أنَّ الثلاثيَّ يدلُّ على الخروجِ الإراديِّ القائمِ على الرغبةِ والاختيارِ ، والفعلُ لازمٌ لا يحتاجُ إلى مفعولٍ به . أمَّا الرباعيُّ فإنه يدلُّ على الإخراجِ اللّا إرادي ، وإنما هو إخراجٌ بالإكراهِ والإجبار ، وهو يتعدى إلى مفعولٍ به .

ولما تكلمت الجملةُ السابقةُ على جرائمِ الكفارِ استخدَمت الفعلَ الرباعيَّ

لتقبيح فعلهم ، والمنصوب بالفعل مفعولٌ به : ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ...﴾ ، ولما تكلمت هذه الجملة على خروج المؤمنين الاختياري الإرادي ، استخدمت الفعل الثلاثي اللازم ، والمنصوب بعده مفعولٌ لأجله : ﴿خَرَجْتُمْ جِهَادًا...﴾ .

وهذا من لطائفِ التقابل بين الجملتين الفعليتين المتجاورتين .

د - مجيء كلمة ﴿جِهَادًا﴾ مفعولاً لأجله ، يدلُّ على أنَّ الأصلَ في المؤمنين أن يكون خروجهم هادفاً ، والجهادُ من أعظم الأهداف التي يجبُ على المسلمين الخارجين أن يلاحظوها ، وأن يسعوا إلى تحقيقها .

هـ - حتى يكون الجهادُ مبروراً متقبلاً ، لا بدُّ أن يكون خالصاً لله ، ولذلك قيّدت الجملة الجهادَ بهذا القيد ، فقالت : ﴿خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ الجهادُ في سبيلِ الله يعني أن يستحضر المجاهدُ الخارجُ نيته ، وأن يستبعد أيَّ هدفٍ دنيويٍّ لئلا يبطل عمله ! .

وقد سُئل رسولُ الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعةً ويقَاتِلُ حميةً ويقَاتِلُ رياءً ؛ أيُّ ذلك في سبيلِ الله؟ فقال ﷺ : «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» !! .

و - عطف ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ على ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ ، ويدلُّ هذا على الهدفِ الثاني الذي يخرجُ له المجاهدون ؛ إنهم يطلبون مرضاةَ الله . ويدلُّ هذا العطفُ على التلازم بين الجهاد وبين مرضاةِ الله ، كما يدلُّ على أنَّ الجهادَ الصادقَ الخالصَ لله من أهمِّ الوسائلِ والأساليبِ لئيلِ مرضاةِ الله .

و﴿ابْتِغَاءَ﴾ مصدرُ الخماسي «ابتغى» الذي هو على وزن «افتعل» . والابتغاءُ هو الطلبُ المحمودُ ، والسعيُّ المشكورُ !!

و(مرضاة) مصدرٌ ميمي ، على وزن «مفعلة» . ويقال : رَضِيَ ، رِضاً ، ومَرْضَاة . وهي بمعنى الرضوان .

٧ - قوله تعالى : ﴿تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ :

هذه الجملة استمرارٌ للجملِ السابقة ، في تحذيرِ المسلمين من موالاتِ الكافرين .

والراجعُ أنها بدلٌ من جملةٍ سابقة ، فيها تهيجُ المسلمين على البراءة من الكافرين ، وهي : ﴿ تَلْقُوكَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ . فجاءت جملة ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ بدل اشتمالٍ من جملة ﴿ تَلْقُوكَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ .

و﴿ تُسِرُّونَ ﴾ : فعلٌ مضارع مرفوعٌ بثبوت النون ، والماضي منه رُباعي ، تقول : أَسَرَّ ، يُسِرُّ . والإسرازُ هو الإخفاءُ والكتمان ، والحرصُ على عَدَمِ إظهار وإفشاء الشيء ! و«المودة» : مجرورةٌ لفظاً بالباء ، لكنها منصوبةٌ معنى ، لأنها مفعولٌ به للفعل ، والتقدير : تُسِرُّونَ وتُخفونَ المودةَ إليهم .

والجملةُ الفعلية : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ في محلِّ نصبٍ حال ، وصاحبُ الحالِ الضميرُ العائدُ على المؤمنين في قوله : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا... ﴾ أي : لا تَتَّخِذُوا أعداءكم أولياء ، وأنتم مُلقونَ إليهم بالمودة ، ومُسِرِّونَ إليهم بالمودة .

والواوُ في ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ ﴾ واوُ الحال ، و﴿ أَنَا ﴾ ضميرٌ منفصلٌ يعودُ على الله العظيم ، في محلِّ رفعٍ مبتدأ . وأفعلُ التفضيلِ ﴿ أَعْلَمُ ﴾ : خبر . و﴿ مَا ﴾ : اسمٌ موصولٌ مجرورٌ بالباء ، و﴿ أَخْفَيْتُمْ ﴾ : فعلٌ ماضٍ وفاعلُه ، والجملةُ صلةُ الموصول . والتقدير : وأنا أعلمُ بالمُخفي والمُعَلن من أعمالكم .

والجملةُ الاسمية : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ في محلِّ نصبٍ حال . والمعنى : أنتم تُسِرُّونَ إلى الأعداءِ بالمودةِ في حالِ علمي بإسراركم وإعلانكم !! .

ويُمكنُ الوقوفُ على اللطائفِ والإشاراتِ والدلالاتِ التالية في الجملة :
أ - ترتبطُ هذه الجملةُ الحاليةُ مع الجملةِ الحاليةِ السابقة ، وتلتقي معها على التحذيرِ من موالاةِ الكفار ، فكلُّ جملةٍ منهما تُعالجُ حالةً مفترضةً من تلك الموالاة .

إنَّ موالاةِ الكفارِ على حالتين :
الحالة الأولى : موالاةٌ علنيةٌ جهريَّةٌ مردودة ، فَبَحَثُهَا الجملةُ الحاليةُ السابقة : ﴿ تَلْقُوكَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ .

الحالة الثانية: موالاة سرّية خفية ، قَبَحَتْهَا هذه الجملة: ﴿ تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ ﴾ .

وتلتقي الجملتان الحاليتان على النهي عن كلِّ حالاتِ موالاةِ الكفار .
سواء كانت علنيةً جهرية ، أو كانت سرّيةً خفية .

ب - الباءُ في ﴿ بِالْمُودَةِ ﴾ باءُ الملابسِ والإلصاق ، مثلُ الباءِ في الجملة السابقة . والجملةُ معروضةٌ على أساسِ (التَّصْوِيرِ الفَنِيِّ في القرآن) مثلُ الجملة السابقة ، والفرقُ في الصورةِ في الجملتين أَنَّ الصورةَ المَجَسَّمَةَ السابقةَ مكشوفةٌ ظاهرةٌ علنية ، لكنَّ هذه الصورةُ صورةٌ خفيةٌ سرية ، لا تكادُ تُرى في الخيال .

وَتَحَيَّلَ بِخَيَالِكِ «المُودَةِ» شيئاً مادياً مجسماً يُلْفُ وَيُعْطَى ، وَيَمْرُؤُ لِلأَعْدَاءِ ، وَيُقَالُ لَهُمْ : خذوا هذه المودّة دليلاً مادياً على مَحَبَّتِنَا لكم !! .

ج - تتكوّن الجملةُ من جملتين منفصلتين ، كلُّ منهما جملةٌ حاليةٌ ، وهما جملتانِ جميلتانِ متقابلتانِ ، ويبدو التقابلُ اللطيفُ فيهما في ما يلي :

- الجملةُ الأولىُ جملةٌ فعليةٌ في محلِّ نصبٍ حال ، والثانيةُ جملةٌ اسميةٌ في محلِّ نصبٍ حال ، ومجيءُ جملتين متجاورتين حالاً جميل ، وفي تنوعِ الجملتين ما بين فعليةٍ واسميةٍ جمالٌ بيانيٌّ لطيف .

- ناسبَ التعبيرُ عن الجملةِ الأولىُ بالفعلِ المضارع ، لأنَّ صاحبَ الحالِ هم المسلمون ، والحالُ في سياقِ الإنكارِ والتحذيرِ والتعجب ، وهذا يناسبُه الفعلُ المضارعُ الدالُّ على التجددِ والاستمرارِ ؛ أي : لا يتكرَّرُ ولا يتجددُ منكم إسرائٌ لهم بالمودة .

- وناسبَ التعبيرُ عن الجملةِ الثانيةِ بأفعلِ التفضيل ، ومجيئها جملةً اسميةً ، لأنَّ صاحبَ الحالِ فيها هو الله ، والجملةُ في سياقِ التذكيرِ بشمولِ علمِ الله لكلِّ ما يفعله المسلمون ، وهذا الشمولُ يناسبُه الجملةُ الاسميةُ الدالَّةُ على الثباتِ والاستقرارِ .

د - المفضَّلُ عليه في جملة ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ ﴾ محذوف ؛ والتقدير : وأنا أعلم منكم ومنهم بكلِّ ما أخفيتم وما أعلنتم .

هـ - ذُكِرَتِ الْجُمْلَةُ دَائِرَتَيْنِ مِنْ دَوَائِرِ أَعْمَالِ النَّاسِ ، وَقَوَّرْتُ أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَاتَيْنِ الدَّائِرَتَيْنِ :

الدَّائِرَةُ الْأُولَى: ﴿ مَا أَخْفَيْتُمْ ﴾ : وَالْمَرَادُ بِهَا مَا يُخْفَوْنَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْإِسْرَارُ إِلَى الْكُفَارِ بِالْمُودَةِ .

الدَّائِرَةُ الثَّانِيَّةُ: ﴿ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ وَالْمَرَادُ بِهَا مَا يَعْلِنُهُ وَيُظْهِرُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ ، وَمِنْ ذَلِكَ إِعْلَانُ وَإِظْهَارُ الْمُودَةِ لِلْكَفَارِ .

وَهَاتَانِ الدَّائِرَتَانِ شَامِلَتَانِ لِكُلِّ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ ، لِأَنَّ أَعْمَالَ الْإِنْسَانِ إِمَّا أَنْ تَكُونَ سَرِيَّةً خَفِيَّةً ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَنِيَّةً جَهْرِيَّةً ، وَاللَّهُ هُوَ الْأَعْلَمُ بِمَا فِي هَاتَيْنِ الدَّائِرَتَيْنِ ، مِنْ أَصْحَابِهِمَا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَعْمَالَهُمْ فِيهِمَا ! .

و - اللَّطِيفُ أَنَّ ذِكْرَ الدَّائِرَتَيْنِ يَتَنَاسَبُ مَعَ مَا قَبْلَهُمَا . فَقَدَّمَ الْإِخْفَاءَ عَلَى الْإِعْلَانِ: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ ، وَحِكْمَةُ تَقْدِيمِ الْإِخْفَاءِ هِيَ التَّنَاسُقُ مَعَ أَوَّلِ الْجُمْلَةِ ﴿ تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ ؛ فَالْإِسْرَارُ بِالْمُودَةِ وَإِخْفَاؤُهَا يَنَاسِبُهُ تَقْدِيمُ إِخْفَاءِ الْأَعْمَالِ عَلَى إِعْلَانِهَا .

٨ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ :

هَذِهِ الْجُمْلَةُ خَاتَمَةُ الْآيَةِ ، الَّتِي هَيَّجَتِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَعَادَاةِ الْكَافِرِينَ ، وَحَدَّرَتْهُمْ مِنْ مَوَالِيهِمْ ، وَكَانَتِ الْخَاتَمَةُ تَهْدِيدًا كَبِيرًا لِمَنْ يَسْتَمِرُّونَ عَلَى مَوَالِيَةِ الْكَافِرِينَ ، رَغْمَ كُلِّ أَسَالِبِ التَّهْيِيجِ وَالتَّهْدِيدِ وَالتَّحْذِيرِ وَالتَّذْكِيرِ ، فِي جَمَلٍ وَكَلِمَاتِ الْآيَةِ .

وَجَاءَ هَذَا التَّهْدِيدُ الصَّرِيحُ بِأَسْلُوبِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ .

﴿ وَمَنْ ﴾ : الْوَاوُ: حَرْفُ اسْتِثْنَاءٍ ، وَالْجُمْلَةُ اسْتِثْنَائِيَّةٌ . وَ« مَنْ »: اسْمٌ شَرْطِيٌّ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ مُبْتَدَأٌ . وَ﴿ يَفْعَلْهُ ﴾ : فِعْلٌ مُضَارِعٌ مُجْزُومٌ لِأَنَّهُ فِعْلُ الشَّرْطِ . وَالْفَاعِلُ يَعُودُ عَلَى اسْمِ الشَّرْطِ « مَنْ » . وَالْهَاءُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٍ بِهِ ، وَيَعُودُ عَلَى الْإِتِّخَاذِ الْمَفْهُومِ مِنْ النِّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؛ أَي: مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ الْإِتِّخَاذَ ، وَيُؤَالِ الْأَعْدَاءَ ، فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ .

والفاء في ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ واقعة في جواب الشرط. وجملة «قد ضل سواء السبيل» مكوّنة من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به ، وهي في محلّ جزم جواب الشرط ، وهي أيضاً في محلّ رفع خبر المبتدأ «مَنْ». والتقدير: الموالون للأعداء ضالّون.

و ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: وسَطُ الطريق ، والضلالُ الابتعاد ؛ أي الابتعاد عن الخير والرّشدِ والهُدَى ، والذهابُ إلى الباطلِ والخسران .

ويمكنُ تسجيلُ اللطائفِ والإرشاداتِ التالية :

أ - اسمُ الشرطِ ﴿مَنْ﴾ من صيغِ العُموم ، وهو يشملُ المفردَ والجمعَ والمذكّرَ والمؤنثَ ، واختيارُ اسمِ الشرطِ لتقريرِ معنى العُموم ، وليكونَ التهديدُ موجّهاً لكلِّ مَنْ يوالونُ الأعداءَ ، في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ .

ب - جاءَ التعبيرُ عن اتخاذِ الكفارِ أولياءَ - بعدَ كُلِّ ما وردَ في الآيةِ من تحذيرٍ وتَهْيِيجٍ - بصيغةِ الغائبِ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ﴾ ، وذلكَ للتنفيرِ من ذلكَ ، ودعوةِ المؤمنينِ إلى عدمِ فعلِهِ ، ولا يفعلُ المنهَيِّ عنه بعدَ علمِهِ بالنهايِ إلاّ مسلمٌ ضعيفُ الإيمانِ .

ج - يؤخَدُ من هذهِ الجملةِ الشرطيةِ قاعدةٌ قرآنيةٌ مطّردة: كُلُّ مَنْ والي الكفارِ فهو ضالٌّ منحرفٌ ، بعيدٌ عن الحقِّ ، متلبسٌ بالباطلِ . إنّ جوابَ الشرطِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ مبنيٌّ على فعلِ الشرطِ ، وثمرَةٌ له ، وهو مرتبطٌ معه ارتباطاً وثيقاً ، وكلّما وُجِدَ فعلُ الشرطِ يوجَدُ جوابُ الشرطِ لا محالة!! ومعنى هذا: أيُّ مسلمٍ يوالي الكفارَ الأعداءَ فإنه يكونُ ضالّاً!! .

د - المرادُ بالضلالِ في الجملةِ الانحرافِ والضياعِ والخسارة ؛ وهذه النتيجةُ الحتميةُ لموالاتِ الأعداءِ ضريبةٌ باهظةٌ ، يدفعها الذين يُخالفونَ توجيهاتِ القرآنِ ، ويوالونَ الكافرينَ . . . وهذه النتيجةُ أوضحُ ما تكونُ ظهوراً في العصرِ الحديثِ ، الذي أصرَّ فيه المسؤولونَ في بلادِ المسلمين على موالاتِ الأعداءِ الكافرينَ !! .

أساليب التهيج على عدم موالاته الأعداء:

لاحظنا من خلال تحليل كلمات وجمل الآية حرصها على (تهيج) المسلمين على عدم موالاته الكفار ، وعلى تحذيرهم من ذلك ، وتهديدهم بالعقاب ، وتذكيرهم بما يُعِينُهُم في مفاصلتهم والبراءة منهم .

ومن أهم أساليب التهيج في الآية ما يلي :

١ - نداء المؤمنين بصفة الإيمان ؛ لتهيئتهم لتلقي التوجيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .

٢ - تحريم موالاتهم الكفار بصيغة النهي ، لأنَّ الأصل في النهي أن يدلَّ على التحريم .

٣ - اختيار فعل ﴿ تَنَخَّذُوا ﴾ الدال على التحويل ، الناصب لمفعولين ، أي : لا تُصَيِّرُوا العَدُوَّ وَلِيًّا ، ولا تحوِّلوه من العداوة إلى المحبة والولاية .

٤ - وصف الكافر بأنه عَدُوٌّ لله ؛ وكيف يُوالي المسلم كافرًا عاده الله؟ وهل يُوفِّقُ مَنْ عاده الله؟ فضلًا عن أن ينفع غيره!

٥ - وصف الكافر بأنه عدوٌّ للمسلمين ، وهذا يستلزم أن يُعاديَه المسلمون ، فكيف يُوالونه ويُحبُّونه وهو بهذه العداوة لهم .

٦ - التنفير من موالاته الأعداء ، بتصوير هذه الموالاته في صورة «مودة» ومحبة ، مجسَّمة محسوسة ، يُمكن أن تُحمل وتُنقل ، وتُلقى وتُقَدَّم للكفار الأعداء .

٧ - ذكر المودة والمحبة في مقابل الكفر والعداوة ، فهم كفارًا أعداء ، وأنتم تحبونهم وتودونهم! وهل يُواذُّ ويحبُّ عاقلٌ مسلمٌ كافرًا معاديًا له .

٨ - تذكير المسلمين بأنَّ ما معهم فهو الحق والهدى والنور ، وتذكيرهم بأنَّ أعداءهم كفروا بهذا الحق الذي معهم ، فكيف يُوالي ويحبُّ المسلمون أعداءهم الكافرين بالحق الذي معهم؟! .

٩ - تذكير المسلمين بجريمة الأعداء في حقهم ، وهي إخراج حبيهم

رسول الله ﷺ من بلده ، وإخراجهم من بلادهم أيضاً ، فكيف يوالون أعداء فعلوا هذه الجريمة؟! .

١٠ - تقريرُ ظلم وعدوانِ هؤلاء الأعداء ، وعُدوانِهم عليهم ، فهم لم يرتكبوا جريمة يستحقون بها الإخراجَ من أوطانهم ، إلاَّ إيمانهم بالله ربهم! وهل الإيمانُ جريمة يعاقبُ عليها صاحبُها؟! .

١١ - تذكير المسلمين بأن خروجهم للجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله يتناقض مع موالاته الأعداء ؛ فكيف يقعون في هذا التناقض؟! .

١٢ - تهديدُهم بأنَّ موالاته الأعداءِ تحرمُهم من أجر الجهادِ في سبيلِ الله ، كما تحرمُهم من نَيْلِ مرضاةِ الله ، وبما أنهم حريصون على الأجرِ والمرضاةِ فليتوقفوا عن موالاته الكفار .

١٣ - تقبيحُ الإسرارِ بالموَدَّةِ للكفار ، بعدَ تقبيحِ الجهرِ والإعلانِ بها ، والنَّصُّ على النهي عن نوعي الموالاته: السَّريِّ والعلنيِّ ، والخفيِّ والجهرِيِّ .

١٤ - تذكيرُ المسلمينَ بشمولِ علمِ الله بهم وبأقوالهم وأعمالهم ، سواءً كانت خفيةً أو علنيةً ، ومنها موالاته الكفارِ الجهرية والسرية!! .

١٥ - تقريرُ حقيقة ضلالِ وخسارةِ كُلِّ مَنْ يوالون الأعداء .

١٦ - تهديدُ المسلمين بالعقابِ إن أصرَّوا على موالاته الكفار ، بعدَ كُلِّ هذه التوجيهات!! .

من لطائف الآية:

أشرنا إلى بعضِ لطائفِ الآيةِ البيانية عندَ وقفنا التحليلية لكلماتها وجملها ، ونُشيرُ هنا إلى بعضِ اللطائفِ البيانية العامة للآية :

١ - في الآيةِ خمسُ جملٍ حالية ، أي فيها خمسة أحوال: حالان للمسلمين ، وحالان للكافرين ، والحال الخامسُ لله رب العالمين .

الحال الأول للمؤمنين : في قوله : ﴿ تَلْقَوْنَ إِيَّاهُمْ بِالْمُؤَدَّةِ ﴾ .

الحال الثاني للكافرين : في قوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

الحال الثالث للكافرين : في قوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ .

الحال الرابع للمؤمنين: في قوله: ﴿ تُسْرُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ .

الحال الخامس لرب العالمين: في قوله: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ .

واللطيف أنَّ الحالين للمؤمنين يتناقضان مع الحالين للكافرين، وهذا من المبالغة في تهيج المسلمين على مفاصلة الكافرين:

المسلمون يُلقون إليهم بالمودة، في الوقت الذي كفروا هم بالحق الذي مع المسلمين.

والمسلمون يُسرون إليهم بالمودة، في الوقت الذي أخرجوا به المسلمين من ديارهم.

فالمفارقة بين حالَي المسلمين وحالَي الكافرين واضحة، وكلما تقدّم لهم المسلمون بمودة، قابلوهم بمزيد من العداوة!! .

والحال الخامس يُقرّر شمول علم الله بأحوال المسلمين والكافرين.

بقي أن نُشير إلى الجمال في الآية التي اجتمعت فيها خمس جملٍ حالية، وبصورةً بليغةً معجزة، وبدون أيّ ضعفٍ أو خلخلة.

وحكمة ورود خمس جملٍ حالية في آية تتحدّث عن خطورة موالاة الكفار هي أن اتخاذ الكفار أولياء يُفسد أحوال المسلمين، السياسية والاجتماعية والأخلاقية والعلمية والدينية، وأن أحوالهم لا تصلح إلا بمفاصلة الكفار.

واللطيف أنَّ الأحوال الأربعة للمسلمين والكافرين جاءت بالجملة الفعلية، بينما الحال الخامس الذي يتحدّث عن الله جاء بالجملة الاسمية، وذلك للإشارة إلى شمول علم الله بالأسلوب الدال على الثبات والاستقرار، لأنه حقيقةٌ مؤكّدةٌ مقررةٌ ثابتة.

٢ - في الآية ثلاثة مفاعيل لأجله:

الأول: جملةٌ مصدرية، وهي: ﴿ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾، أي: أخرجوكم لإيمانكم.

الثاني: مفردٌ صريحٌ منصوب: ﴿ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي ﴾ .

الثالث: مفردٌ صريحٌ معطوفٌ عليه: ﴿وَأَبْنَعَاءَ مَرْضَاتِي﴾ .

وتأتي المفاعيلُ الثلاثةُ للثناءِ على المؤمنين ومدحهم؛ فهم مؤمنون ثابتون على الحق ، ولذلك عاداهم الكفار وأخرجوهم . . وهم خرجوا لأجل الجهادِ الخالصِ لله ، كما خرجوا طلباً لمرضاةِ الله .

٣ - في الآية جملتان شرطيتان ، الخطابُ فيهما للمسلمين ، بهدفِ تحذيرهم من موالاتِ الكافرين ، وتهيجهم على مفاصلتهم .

الجملةُ الأولى: حُذِفَ منها جوابُ الشرطِ للعلم به ، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي﴾ .

والجملةُ الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .

٤ - في الآية سبُعُ واواتٍ ؛ أربعُ واواتٍ للعطف ، واثنانِ للحال ، والسابعةُ للاستئناف :

عُطِفَ المنصوبُ على المنصوبِ في ثلاثٍ منها ، وهي: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ﴾ ، و﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ ، و﴿حَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَأَبْنَعَاءَ مَرْضَاتِي﴾ .
وعُطِفَ في الرابعةِ موصولٌ مجرورٌ على موصولٍ مجرورٍ: ﴿أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ .

وواوُ الحالِ الأولى تُخْبِرُ عن حالِ الكفار ؛ وهي في قوله تعالى: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ .

وواوُ الحالِ الثانيةِ تُخْبِرُ عن شمولِ علمِ الله: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ .

والواوُ السابعةُ واوُ الاستئناف ، وهي في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ .

٥ - في الآية خمسُ باءات ، جاءتْ حروف جر ، وهي: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾ ، و﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ ، و﴿أَنْ تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ ، و﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ .

واللطيفُ أَنَّ الباءَ في هذه الجمل الخمسة كلها بمعنى المصاحبة
والملاسة .

٦ - في الآية تقابلُ لطيفٌ بين الحرفينِ «أَنَّ» بفتحِ الهمزة ، و«إِنَّ» بكسرِ
الهمزة ، وجاءَ الحرفانِ في جملتين متجاورتين .

الجملة الأولى : فيها «أَنَّ» بفتحِ الهمزة ، وهي «أَنَّ المصدرية» : ﴿ أَنْ تُوْمِنُوا
بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ .

الجملة الثانية : فيها «إِنَّ» بكسرِ الهمزة ، وهي «إِنَّ الشرطية» : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ
حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ .

٧ - في الآية حالاتٌ متقابلةٌ لطيفة ، مثل : التقابل بين العداوة والولاية في
جملة : ﴿ لَا تَنْخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ . والتقابل بين الإخفاء والإعلان ، في
جملة : ﴿ مَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ .



الفصل السابع

السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة

نُقِّدُ في هذا الفصل نموذجاً للحديث عن «المتشابه اللفظي» في القرآن، وهو موضوعٌ يتعلَّقُ بالتعبير القرآني وأساليب البيان المعجزة فيه.

والمتشابه اللفظي في القرآن هو اختلاف حديث القرآن عن القصة الواحدة، أو الموضوع الواحد، بحيثُ تختلف الآيات المتحدثة عن الموضوع الواحد، بالزيادة والحذف، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والتوكيد والتَّرك.. وهذا العلم من أنفس وأطف علوم القرآن، التي تبحث في بيانه وتعبيره.

وقد ألفتُ كتبٌ كثيرةً في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن في القديم والحديث، لعلَّ من أجودها كتابُ (ملاك التأويل، القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه متشابه التنزيل)، للقاضي أبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي، المتوفى في مطلع القرن الثامن، وقد طُبِعَ الكتابُ بتحقيق الدكتور محمود كامل أحمد.

ويُمكنُ الحديثُ عن آلاف الآيات التي بينها تشابهٌ لفظيٌّ وموضوعي، ويُمكنُ توجيه ذلك في دراسةٍ بيانيةٍ وقرآنيةٍ ممتعة، مكوَّنة من عدة مجلدات.

آيتا المسابقة والمسارعة:

ونقدُ هذا النموذج في توجيه وتحليل التشابه اللفظي بين آيتين، في سورتين مختلفتين؛ تتحدَّتان عن نفس الموضوع.

آيتان في سورتين مدنيتين تتحدَّتان عن نعيم الجنة؛ تدعو الأولى إلى المسابقة إلى الجنة، وتدعو الثانية إلى المسارعة إلى الجنة.

قال الله عز وجل: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال الله عز وجل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

مظاهر الاتفاق بين الآيتين:

تلتقي الآيتان على الموضوع العام:

في آية سورة الحديد يأمر الله المؤمنين بالمسابقة إلى مغفرته وجنته ، هذه الجنة عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وهذه الجنة أُعِدَّتْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وإِدْخَالُ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ الْجَنَّةِ هُوَ فَضْلُ اللَّهِ آتَاهُمْ إِيَّاهُ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وفي آية سورة آل عمران يأمر الله المتقين بالمسارعة إلى مغفرته وجنته ، هذه الجنة عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَقَدْ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .

والاتفاق بين الآيتين في المظاهر التالية:

١- في كلٍّ منهما أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ .

٢- في كلٍّ منهما دَعْوَةٌ إِلَى نَيْلِ: ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

٣- في كلٍّ منهما عَطْفُ الْجَنَّةِ عَلَى الْمَغْفِرَةِ: ﴿مَغْفِرَةٍ وَجَنَّةٍ﴾ .

٤- في كلٍّ منهما ذِكْرُ عَرْضِ الْجَنَّةِ .

٥- في كلٍّ منهما ذِكْرُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

٦- في كلٍّ منهما ذِكْرُ إِعْدَادِ الْجَنَّةِ وَتَهْيِئَتِهَا .

سبعة فروق بين الآيتين:

يوجد بين الآيتين الفروق التالية:

١ - لم تُذكر الواوُ في مطلع آية سورة الحديد: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ ﴿١﴾ ، بينما ذُكِرَتْ في مطلع آية سورة آل عمران : ﴿٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٣﴾ .

٢ - أَمَرَ اللهُ فِي الآيَةِ الْأُولَى بِالمَسَابِقَةِ : ﴿٤﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴿٥﴾ ، بينما أَمَرَ فِي الآيَةِ الثَّانِيَةِ بِالمَسَارَعَةِ : ﴿٦﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴿٧﴾ .

٣ - أَخْبَرَتِ الآيَةُ الْأُولَى أَنَّ عَرْضَ الْجَنَّةِ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَأَدْخَلَتْ كَافَ التَّشْبِيهِ عَلَى «عَرْضِ» ، قَالَتْ : ﴿٨﴾ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴿٩﴾ ، بينما أَسْقَطَتِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ هَذِهِ الكَافَ ، وَقَالَتْ : ﴿١٠﴾ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١١﴾ .

٤ - ذَكَرَتِ الآيَةُ الْأُولَى ﴿١٢﴾ السَّمَاءَ ﴿١٣﴾ بِلَفْظِ المَفْرَدِ ؛ فَقَالَتْ : ﴿١٤﴾ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴿١٥﴾ ، وَذَكَرَتِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ ﴿١٦﴾ السَّمَوَاتِ ﴿١٧﴾ بِلَفْظِ الجَمْعِ ؛ فَقَالَتْ : ﴿١٨﴾ عَرْضُهَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١٩﴾ .

٥ - ذَكَرَتِ الآيَةُ الْأُولَى أَنَّ الْجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، فَقَالَتْ : ﴿٢٠﴾ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿٢١﴾ ، وَذَكَرَتِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ؛ فَقَالَتْ : ﴿٢٢﴾ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٣﴾ .

٦ - عَقَّبَتِ الآيَةُ الْأُولَى عَلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ وَخَيْرِهَا بِأَنَّهُ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ ، فَقَالَتْ : ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴿٢٥﴾ ، بينما سَكَتَتِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ عَنِ ذَلِكَ .

٧ - لَمْ تَتَحَدَّثْ سُورَةُ الحَدِيدِ عَنِ صِفَاتِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا انْتَقَلَتْ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ يَتَحَدَّثُ عَنِ القَدْرِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٦﴾ مَا أَصَابَ مَن مَّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٢٧﴾ [الحديد: ٢٢] .

بينما عَرَضَتْ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَهَمَّ صِفَاتِ المُتَّقِينَ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿٢٨﴾ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الغَیْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهُ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

إنَّ وجودَ هذه الفروقِ السبعةِ بين آيَتَيْنِ تتحدَّثانِ عن موضوعٍ واحدٍ دليلٌ على روعةٍ وعظمةِ البيانِ القرآني ، وعلى دقةِ القرآنِ المعجزةِ في اختيارِ جُمَلِه وأيَاتِه ، وكلماتِه وحروفِه ، وعظمةِ الصياغةِ القرآنيةِ التي تَضَعُ كُلَّ كلمةٍ موضعها المناسبِ ، وكلَّ حرفٍ موضعَه اللائقِ .

وإنَّ هذا دليلٌ على أنه لا يُمكنُ أَنْ تُسَبِّدَلَ الكلمةُ القرآنيةُ بكلمةٍ أُخرى ، ولا يُمكنُ أَنْ يُسَدَّ مكانَ الحرفِ القرآنيِّ حرفٌ أُخر .

وهذا دليلٌ على رفضِ بعضِ الأفكارِ الخاطئةِ ، المتعلقةِ بالتعبيرِ القرآنيِّ ، مثلُ الزيادةِ والتراذفِ والتكرارِ . . فما زَعَموه (زائداً) في القرآنِ ؛ له مهمةٌ بلاغيةٌ وتفسيريةٌ وتأويليةٌ معجزةٌ . . وما ظَنَّوه (مُترادفاً) في القرآنِ ؛ ليس كذلك ، وإنما هو من بابِ المتقاربِ . . وما جَعَلوه (مُكْرَراً) في القرآنِ ؛ ليس من هذا البابِ ، وإنما من بابِ التنويعِ . . وهكذا .

اختلاف السياق في الحديد وآل عمران:

ومن المعلومِ بدهاءةً أَنَّ (السياق) العامَّ الذي وردتْ فيه الكلمةُ أو الآيةُ هو الحَكَمُ في اختلافِ التعبيرِ ، وفي دَقَّةِ اختيارِ كلماتِ الآيةِ وحُرُوفِها .

ولذلك لا بُدَّ من معرفةِ سياقِ الآيَتَيْنِ: آيةِ سورةِ الحديدِ ، وآيةِ سورةِ آلِ عمرانِ . ثم لا بُدَّ من تدبُّرِ هذا السياقِ للوقوفِ على حكمةِ وجودِ هذه الفروقِ السبعةِ بينهما ، واختصاصِ كُلِّ آيةٍ بالألفاظِ المذكورةِ فيها .

سياقُ آيةِ سورةِ الحديدِ في المقارنةِ بين الدنيا والآخرةِ ، وزوالِ الدنيا ، وبقاءِ الآخرةِ ، ونعيمِ الدنيا مقابلَ نعيمِ الآخرةِ ، ودعوةِ المؤمنينِ إلى عدمِ الانشغالِ بنعيمِ الدنيا وتركِ نعيمِ الآخرةِ ، ولذلك تَدْعُوهم الآيةُ إلى المسابقةِ إلى نعيمِ الآخرةِ ، قال اللهُ قَبْلَ تلكِ الآيةِ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتِرَةٌ مُّصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

ولذلك دعت الآية المؤمنين إلى المسابقة إلى الجنة ، التي هي كعرض السماء والأرض ، ورغبتهم في هذه المسابقة ، وأخبرتهم أن الفوز فيه فضلٌ من الله ، يؤتیه مَنْ يشاءُ من عباده . . ولا يمكن لمؤمن بالله ورسوله أن يخسر في هذه المسابقة ، وأن يحرم نفسه من هذا الفوز العظيم ، وأن يُفَضَّلَ عليه متاع الدنيا القصير سريع الزوال ! .

أما سياق آية سورة آل عمران فإنه ليس عن المؤمنين المسابقين إلى المغفرة والجنة ، وإنما هو عن المتقين الذين اتصفوا بأكرم الصفات ، وقاموا بأفضل الأعمال ، إنهم سابقوا سباقاً خاصاً ، ثم سارعوا مسارعةً . . . وبذلك فازوا فوزاً خاصاً ؛ قال الله عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَاَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٣٠ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ١٣١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٣٢ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ١٣٣ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الضَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيمِينَ الْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ١٣٤ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٣٥ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿ [آل عمران : ١٣٠ - ١٣٦] .

وبإمعان النظر في هذين السياقين نجد أنهما لا يتحدثان عن شيء واحد ، ولا عن أناسٍ مُعَيَّنِينَ .

إن السياقين يتحدثان عن صنفين من أهل الجنة ، ولذلك اختارت كل آية الحروف والكلمات التي تتحدث عن ذلك الصنف ، وعن صفاته وأعماله .

آية سورة الحديد تتحدث عن المؤمنين المسابقين المتسابقين إلى الجنة ، ولذلك جاءت حروفها وكلماتها متناسبة مع هؤلاء المؤمنين .

أما آية سورة آل عمران ؛ فإنها تتحدث عن صنف أرفع وأعز وأكرم من ذلك الصنف ؛ إن حديثها عن المتقين المسارعين المتسارعين في سيرهم إلى الجنة ، ولذلك جاءت حروفها وكلماتها متناسبة مع هؤلاء المتقين .

ولهذا وَقَعَتِ الفُروُقُ السبعةُ بينَ الآيَتَيْنِ . . . ولنحاول الآنَ توجيهَ اختلافِ التعبيرِ بينهما بفروقه السبعة .

١ - حرفُ العطفِ بينَ الحذفِ والذکرِ:

آيةُ سورةِ الحديدِ مستأنفةٌ ، غيرُ معطوفةٍ على ما قبلها ، ولذلك بدأتْ بدونِ حرفِ عطفٍ ، وأمرتْ مباشرةً بالمسابقة: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ .

وحكمةُ إسقاطِ حرفِ العطفِ منها اعتبارُها نتيجةً وثمرَةً للآيةِ التي قبلها . وقد أمرَ اللهُ في الآيةِ السابقةِ المسلمينَ بالعلمِ بسرعةٍ زوالِ الدنيا ، وتفاهتها بالنسبةِ للآخرةِ ، فقالَ في أولها: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ . . . ﴾ ، وبما أَنَّ المؤمنينَ مأمورونَ بالعلمِ ناسبَ أَنْ تذكُرَ هذه الآيةُ ما يجبُ أَنْ يترتبَ على العلمِ بالحقيقةِ السابقةِ ، وهو المسابقةُ إلى ذلك النعيمِ الدائمِ ، فأمرهم بالمسابقةِ قائلاً: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾ فلا وَجَهَ لعطفِ النتيجةِ على المقدمةِ ! .

أما الآياتُ في سورةِ آلِ عمرانَ فإنها تتكلمُ عن مجموعةٍ من الأوامرِ ، ينتجُ عنها مجموعةٌ من الأفعالِ ، وهذه الأوامرُ معطوفٌ بعضها على بعضٍ بالواوِ ، فناسبَ أَنْ تبدأ الآيةُ بالواوِ لتعطفَ الأمرَ الذي فيها على الأوامرِ في الآياتِ التي قبلها: ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ١٣١ . . . ﴿ وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ١٣٢ . . . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٣٣ . . . ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ . . .

وبهذا نعرفُ الدقةَ العجيبةَ في حذفِ حرفِ العطفِ في آيةٍ ، وذكره في آيةٍ أخرى ، وأنَّ السياقَ هو الحكمُ في الحذفِ والذکرِ .

٢ - الفرقُ بينَ المسابقةِ والمسارعةِ:

أمرَ اللهُ في آيةِ سورةِ الحديدِ بالمسابقةِ إلى المغفرةِ والجنةِ ، بينما أمرَ في آيةِ سورةِ آلِ عمرانَ بالمسارعةِ إليهما ، وقد يظنُّ بعضُ قصيري النظرِ أَنَّ الأمرَ في الآيتينِ واحدٌ ، ولا يُحسنونَ التفريقَ بينَ المسابقةِ والمسارعةِ .

تتحدّث الآيتان عن السِّباقِ إلى الجنة ، لكنَّ حديثهما عنه ليس واحداً ،
إذْ كُلُّ آيَةٍ تتحدّثُ عن مرحلةٍ من مراحلِ هذا السِّباقِ .

إِنَّ أَيْ سَبَاقٍ لَا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ :

المرحلة الأولى : الانطلاق .

والمرحلة الثانية : الإسراع .

نأخذُ السِّباقَ في الجِزْيِ مثلاً ؛ عندما تُنظَّمُ المسابِقةُ في الجِري ، يصطَفُ
المتسابقون متساوين ، وعندما تُطلَقُ إشارةُ البدءِ يَتَسَابِقُونَ وَيَجْرُونَ ، وبعد
فترةٍ من الجِري يُسَارِعُونَ ، وينطلقون بأقصى سرعتهم ، ليفوزَ الفائزون .

تتحدّثُ آيةُ سورةِ الحديدِ عن المرحلةِ الأولى في السعيِ إلى الجنةِ ، وهي
الانطلاقُ والمسابقةُ ، وتأمُرُ المؤمنينَ بذلكِ قائلةً : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
وَجَنَّةٍ . . . ﴾ ، وينطلقُ المتسابقون إليها ، ويقطعونَ بعضَ المسافةِ .

وبعدَ ذلكِ تبدأُ مرحلةُ المسارعةِ ، فيضاعفُ المسارعونَ سرعتهم ،
ويبدلونَ أقصى طاقاتهم ليفوزوا بالسِّبقِ ، ويكونوا من الفائزين السابقين ،
الذين قال اللهُ عنهم : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾
[الواقعة : ١٠ - ١٢] .

ولا ننسى أنَّ بعضَ المسابقينَ قد يضعفُ ويعجزُ ويخرجُ من السِّباقِ ،
ولا يصلُ إلى مرحلةِ المسارعةِ إلاَّ المتقونَ أصحابُ الطاقاتِ والهممِ
والعزائمِ .

على ضوءِ هذا البيانِ ندعو إلى ملاحظةِ اختلافِ الفاعلِ للفتلئينِ :
سابقوا ، وسارعوا : واؤ الجماعةِ في فعلي الأمرِ في محلِّ رفعِ فاعلٍ ، ولكنَّ
المأمورينَ مختلفونَ .

واؤ الجماعةِ في فعلِ «سابقوا» تعودُ على المؤمنينَ المتسابقينَ . أمَّا واؤ
الجماعةِ في فعلِ «سارعوا» فإنها تعودُ على الصنفِ الآخرِ ، وهم المتقونَ
المتسارعونَ . واختلافُ الفاعلينَ في الفعلينَ مرتبطٌ مع اختلافِ الفعلينَ :
سابقوا ، وسارعوا !! .

٣ - كاف التشبيه بين الذكر والحذف:

أَدْخَلْتُ كَافَ التَّشْبِيهِ عَلَى الْمَشَبِّهِ بِهِ فِي آيَةِ الْأُولَى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وَحُذِفَتْ هَذِهِ الْكَافُ فِي آيَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

وَالْعَرْضُ هُوَ الْمَقَابِلُ لِلطُّوْلِ ، وَتُعْرَفُ مَسَاحَةُ الْمَكَانِ بِتَحْدِيدِ طَوْلِهِ وَعَرْضِهِ ، وَيُرَادُ بِهِ الْإِتْسَاعُ ؛ يُقَالُ : هَذَا عَرِيضٌ ؛ أَيُّ : هَذَا وَاسِعٌ .

وَبِمَا أَنَّ الْحَدِيثَ فِي الْآيَتَيْنِ عَنِ الْجَنَّةِ الَّتِي يُسَابِقُ إِلَيْهَا الْمَسَابِقُونَ ، وَيُسَارِعُ إِلَيْهَا الْمَسَارِعُونَ . فَمَا حِكْمَةُ ذِكْرِ الْكَافِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ، وَحَذْفِهَا مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ ؟ .

إِنَّ ذِكْرَ الْكَافِ وَحَذْفَهَا مَرْتَبُطٌ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْمَسَابِقِينَ إِلَى الْجَنَّةِ .

الْمَسَابِقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى هُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَهَؤُلَاءِ أَكْثَرُ عَدَدًا ، فَكَثْرَةُ عَدَدِهِمْ يُنَاسِبُهَا تَطْوِيلُ الْجُمْلَةِ بِذِكْرِ الْكَافِ ، (وَتَوْسِيعُ) طَرِيقِهِمْ !! .

أَمَّا الْمَسَارِعُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ فَهُمُ الْمُتَّقُونَ ، وَهَؤُلَاءِ أَقَلُّ عَدَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَلَّةُ عَدَدِهِمْ يُنَاسِبُهَا تَقْصِيرُ الْجُمْلَةِ ، بِحَذْفِ الْكَافِ ، وَتَقْلِيلُ حُرُوفِهَا وَكَلِمَاتِهَا .

فَالْتَنَاسُبُ وَالتَّوَافُقُ مَلْحُوظٌ ، إِذَا كَثُرَ الْعَدَدُ كَثُرَتْ حُرُوفُ الْجُمْلَةِ ، وَزِيدَ فِي تَوْسِيعِ الطَّرِيقِ ، وَإِذَا قَلَّ عَدَدُ السَّائِرِينَ قُلِّلَتْ حُرُوفُ الْكَلِمَةِ ، وَضَيِّقَ فِي مَسَاحَةِ الطَّرِيقِ !! .

٤ - التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْمَفْرَدِ وَالْجَمْعِ : السَّمَاءِ وَالسَّمَوَاتِ :

الْجَنَّةُ الَّتِي يُسَابِقُ إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وَالْجَنَّةُ الَّتِي يُسَارِعُ إِلَيْهَا الْمُتَّقُونَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

فَمَا حِكْمَةُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْأُولَى بِالْمَفْرَدِ ﴿ السَّمَاءِ ﴾ ، وَعَنِ الثَّانِيَةِ بِالْجَمْعِ : ﴿ السَّمَوَاتِ ﴾ ؟ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالسَّمَوَاتِ ؟ .

﴿السَّمَاءَ﴾: اسمُ جنسٍ ، وهذا يَنْطَبِقُ على المفردِ والمثنى والجمعِ والمذكرِ والمؤنثِ . . واسمُ الجنسِ أعمُّ من الجَمْعِ ، لأنه يَنْطَبِقُ على أفرادٍ كثيرين .

على هذا نُدركُ أَنَّ التعبيرَ باسمِ الجنسِ ﴿السَّمَاءَ﴾ في سورة الحديدِ أعمُّ من الجمعِ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ في سورة آل عمران ، وأنه يُلْتَفَتُ فيه إلى ساحةٍ أوسعَ وأشملَ من ساحةِ الجَمْعِ .

إنَّ الإخبارَ عن الجنةِ في سورة الحديدِ يُناسبُه اختيارُ الكلمةِ الأعمِّ والأوسعِ والأشملِ ، فذكرُ كلمةِ ﴿السَّمَاءَ﴾ ، لأنَّ الذينَ يُسابقونَ إلى هذه الجنةِ هم القومُ المؤمنون ، وهؤلاءُ أكثرُ عدداً من الصنفِ الثاني: ﴿عَرْضَهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ !! .

أما الإخبارُ عن الجنةِ في سورة آل عمران فيناسبُه اختيارُ الكلمةِ الأقلِّ عموماً وسعةً وشمولاً ، وذكرُ كلمةِ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ دليلٌ على ذلك ؛ لأنَّ الذينَ يُسارعونَ إليها هم القومُ المتَّقون ، وهم أقلُّ عدداً من المؤمنين .

والدليلُ على أَنَّ المفردَ ﴿السَّمَاءَ﴾ أعمُّ وأشملُ من الجمعِ: ﴿السَّمَوَاتِ﴾ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: 29] .

استوى اللهُ إلى السماء فسَوَّاهَا وجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ . . فالسمااءُ أعمُّ من السموات .

والدليلُ على أَنَّ اسمَ الجنسِ أعمُّ من الجمعِ أنك تقول: عندي أرضٌ . . وإذا قَسَمْتَ بعضها إلى عدةٍ قطعٍ صغيرةٍ تقول: عندي أراضٍ . . فالأرضُ هنا أوسعُ من الأراضِي .

وهكذا نرى أنه لما كَثُرَ عددُ المسابقين اختارَ القرآنُ اسمَ الجنسِ الدالَّ على السَّعةِ ، والمنتاسبَ مع الكثرةِ ، ولما قلَّ عددُ المسارعين اختارَ القرآنُ الجمعَ الدالَّ على الأقلِّ . . والقرآنُ يوازنُ موازنةً دَقِيقَةً معجزةً في اختيارِ الكلمةِ المتناسقةِ مع السياقِ !! .

٥ - بين كثرة المؤمنين وقلة المتقين:

أخبرت آية سورة حديد أَنَّ الجنة: ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ .
وأخبرت آية سورة آل عمران أَنَّ الجنة: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

والمرادُ بالمؤمنين كُلُّ المؤمنين الذين حَقَّقُوا أركان الإيمان الستة - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر - وأدَّوا أركان الإسلام الخمسة المعروفة .

وعدَّد هؤلاء كثير ، ضمن أجيالٍ وقرونٍ وعُقود الأمة المسلمة ، منذ رسول الله ﷺ وحتى قيام الساعة . وبسبب كثرة عدد هؤلاء جاء الحديث عن جَنَّةٍ أَكْثَرَ سَعَةً وَعُمُومًا .

أما المتقون الذين أَخْبَرَتْ عَنْهُمْ آيةُ سورة آل عمران فإنهم صنفٌ خاصٌّ من المؤمنين ، وهم الذين اتَّصَفُوا بِصِفَةِ التقوى ، وجاهدوا أنفسهم حتى استقامت على منهج الله ، وتضاعفت أعمالهم الصالحة ، وارتقوا في عالم التزكية والتربية والإحسان .

وكُلُّ المتَّقِينَ مؤمنون ، لأنَّ التقوى بعد الإيمان ، ولا تتحقق إلا بعد الإيمان ، ولكن ليس كُلُّ المؤمنين مُتَّقِينَ ، لأنها منزلةٌ عاليةٌ تحتاج إلى عزائم وهمم ، ومعنى هذا أَنَّ عددَ المؤمنين أضعافُ عددِ المتقين .

ولذلك كان الحديث عنهم في سورة آل عمران بكلماتٍ وحروفٍ أَقَلِّ ، وهذا توازنٌ آخرٌ في كلماتٍ وحروفٍ القرآن ، يتناسقُ فيه المذكورُ في الآية مع الموضوع الذي يتحدث عنه كثرةٌ وقلةٌ !! .

٦ - حكمة التعقيب في سورة الحديد:

عَقَّبَتْ آيةُ سورة الحديد بالترغيب في التسابق إلى الجنة ، وتقرير أنه فضلٌ من الله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

والمشارُ إليه هو التوفيقُ إلى التسابق ، والرغبةُ فيه ، والحرصُ عليه ، فهذا فضلُ الله يتفضلُ به على مَنْ يَشَاءُ من عباده ، ويحبُّه إلى مَنْ يَشَاءُ من عباده ، ويؤتيه مَنْ يَشَاءُ من عباده ، واللهُ ذو الفضلِ العظيم ، والعطاء الكثير .

وَأَسْقَطَتْ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ هَذَا التَّعْقِيبَ ، وَلَمْ تُرْعَبْ هَذَا التَّرْغِيبَ ،
وَكَتَفَتْ بِقَوْلِهَا: ﴿عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

ولعلَّ حكمةَ ذِكْرِ التَّعْقِيبِ وَالتَّرْغِيبِ تَنَاسُبٌ ذَلِكَ مَعَ الْحَدِيثِ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُسَابِقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنَّ سَيْرَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ مَا زَالَ فِي بَدَايَاهُ ،
وَلِذَلِكَ كَانُوا بِحَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّشْجِيعِ وَالحَثِّ ، لِيَسْتَمِرُّوا فِي
السَّبَاقِ ، وَيَزِيدُوا مِنْ سُرْعَتِهِمْ فِيهِ ؛ وَلِذَلِكَ رَعِبَتْهُمُ الْآيَةُ فِي السَّبَاقِ بِإِخْبَارِهِمْ
أَنَّ هَذَا السَّبَاقَ وَالسَّعْيَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ، يَمُنُّ اللَّهُ بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ،
وَعَلَى مَنْ تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَسِيرَ فِي الطَّرِيقِ مُسْتَعِينًا
بِاللَّهِ .

ولم تذكر آية سورة آل عمران ذلك ، لأنَّ المسارعين إلى الجنة هم
المتقون ، وهؤلاء ليسوا بحاجة إلى تشجيع ، لأنهم ارتقوا إلى درجة
التَّقْوَى ، ووصلوا مرتبةً من المجاهدة والتزكية ، استشرفوا فيها الجنة ،
وكانهم يرونها بعيونهم ، فسارعوا إليها .

٧ - دعوة للأتصاف بصفات المتقين:

تَرَكَ سِيَاقُ سُورَةِ الْحَدِيدِ الْمُؤْمِنِينَ يُسَابِقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَانْتَقَلَ لِلْحَدِيثِ
عَنِ الْقَدَرِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْوُجُودِ فَهُوَ بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ ؛ قَالَ تَعَالَى:
﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢٠ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
ءَاتَاكُمْ ٢٢١ ﴾ [الحديد: ٢٢٠ - ٢٢١] .

أَمَّا سِيَاقُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمُتَّقِينَ بِذِكْرِ أَهَمِّ
صِفَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ ، وَجَاءَتِ الْآيَاتُ الْلاحِقَةُ تَوْضِيحًا وَتَفْصِيلًا لِلْمُتَّقِينَ ، مِنْ
بَابِ دَعْوَةِ الْقَارِئِينَ وَالمُسْتَمْعِينَ وَالمُتَدَبِّرِينَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ ؛ قَالَ تَعَالَى:
﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣١ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣٢ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ مَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

ومن اتصال الآيات الوثيق بالآية الأولى ، أنها كأنها آية واحدة ، وجاء مطلع الآية الثانية (بدلاً) من الآية الأولى : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ . والتقدير : أُعِدَّتْ للمتقين المنفقين في السراء والضراء .

والآن وبعد بيان حكمة الاختلاف بين الآيتين ، وتوجيه التشابه اللفظي بينهما ، نقرر أن بين الآيتين عموماً وخصوصاً ومرحليةً وتدريجاً .

إنَّ آية سورة الحديد أعمُّ من آية سورة آل عمران ، لأنَّ الحديث فيها عن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله ، فجاء التعبير فيها متناسباً مع هذا العموم ، وتوافقت كلماتٌ وحروفُ الآية مع هذا العموم .

أما آية سورة آل عمران فإنها أخصُّ ؛ لأنَّ الحديث فيها عن صنفِ المتقين ، الذي هو أخصُّ من صنفِ المؤمنين ، وجاء التعبير فيها متناسباً مع هذا الخُصوص .

وأشارت آية سورة الحديد إلى المرحلة الأولى ، وهي تسابقُ المؤمنين إلى الجنة ، وأشارت آية سورة آل عمران إلى المرحلة الثانية ، وهي تسارعُ المتقين إلى الجنة . ولكلِّ مرحلةٍ ما يناسبها من الكلمات والحروف . . . وحقَّق التعبير القرآنيُّ هذا كله بدقة معجزة ، وتوازنٍ رفيع . . . وسبحان منزِّل هذا القرآنِ الدقيق المعجز !! .

من لطائف التعبير في الآيتين:

مرَّت بنا لطائفٌ عديدةٌ من الآيتين في تحليلنا لمظاهر التشابه والاختلاف بينهما ، لكننا نقفُ هنا لنلخص القول في هذه اللطائف ، ونذكرُ بعضَ ما لم نذكره من قبل :

١ - فاعلٌ ﴿سارعوا﴾ غيرُ فاعلٍ ﴿سابقوا﴾ ويُعرفُ ذلك من خلالِ سياقِ الآيتين .

الحديث في سورة الحديد عن المؤمنين ، فهم المأمورون بالسباق إلى الجنة . . والحديث في سورة آل عمران عن المتقين ، فهم المأمورون بالمسارعة ، وهم أخص من المؤمنين .

٢ - فعلا الأمر في الآيتين على وزن (فاعلوا) ، والماضي منهما رباعي على وزن (فاعلوا) ، والألف في ﴿سَابِقُوا﴾ و﴿سَارِعُوا﴾ تُسَمَّى أَلْفَ الْمَفَاعِلَةِ والمشاركة ، وتدلُّ على وجود طرفين ، بينهما مسارعةٌ ومساابقة .

ومعنى هذا أنه يجب أن (يسابق) المؤمنون بعضهم بعضاً إلى الجنة ، وأن (يسارع) المتقون بعضهم بعضاً إلى الجنة ، وأن يحرص كلُّ منهم على أن يفوز على غيره في المسابقة والمسارعة .

٣ - يدلُّ فعلا الأمر ﴿سَابِقُوا﴾ و﴿سَارِعُوا﴾ على وجوب السعي إلى الجنة ، وعلى أهمية الاستعداد لها ، والسير في طريقها ، وعلى جدية الأمر ، فلا بدُّ للمؤمن المتقي أن يكون جدياً جاداً في مسابقته ومسارعته إليها ، وألا يصرفه عن ذلك شيء من الصوارف والمعوقات . وأن يوظف ما وهبه الله من طاقات وقدرات ، وهمة وعزيمة وإرادة .

٤ - لا يُحْمَلُ فعلا الأمر على ظاهرهما المادّي القائم على الجري والركض والعدو . . فهذا تصوّرٌ مضحك ، أن ترى مجموعة من الرجال يركضون ويتسابقون ويسرعون ، وعندما تسألهم ، يقولون : إننا نسابق ونسارع إلى الجنة ، ونطبق الآيتين !! .

إن المقصود من فعلي الأمر هو السعي والتوجُّه ، والاهتمام والإقبال ، بمعنى الاهتمام بالأعمال الصالحة ، والإكثار منها ، والمبادرة إليها .

وبمعنى فعلي الأمر هنا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

٥ - المسابقة والمسارعة ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، والمغفرة مصدر الفعل الثلاثي «غفر» . و«من» هنا ابتدائية ، أي أن المغفرة للمؤمنين من عند الله .

٦ - قُدِّمَتِ المغفرة على الجنة : ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ ؛ وذلك

لأنَّ المغفرةَ تَسْبِقُ دُخُولَ الجنةِ ، فيحاسبُ اللهُ المؤمنينَ أَوَّلًا ، ثم يَمْنَحُهُم العفوَ والمغفرةَ ، ثم يُدْخِلُهُم الجنةَ بِرَحْمَتِهِ .

٧ - التَّنْكِيرُ فِي: ﴿ مَغْفِرَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةً ﴾ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ ، إِنَّهَا مَغْفِرَةٌ كَرِيمَةٌ عَظِيمَةٌ ، لِأَنَّ الَّذِي مَنَّ بِهَا هُوَ اللهُ ، وَإِنَّهَا جَنَّةٌ فَخْمَةٌ شَرِيفَةٌ ، لِأَنَّهَا نِعْمَةٌ مِنْ اللهِ .

وَتَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْمَغْفِرَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْجَنَّةَ الْفَخْمَةَ ، أَنْ يَتَسَابَقَ وَيَسَارِعَ إِلَيْهِمَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُتَّقُونَ ، وَأَنْ يَسْتَخْدِمُوا لِأَجْلِهِمَا مَا عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَى وَطَاقَاتٍ .

٨ - الْجَنَّةُ وَاسِعَةٌ كَبِيرَةٌ ، عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَدَّةٍ طَوِيلَةٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهُ اللهُ فِيهَا فِتْرَةً مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ أَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ بِاِنْتِظَارِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَتَبْقَى مَوْجُودَةً ، لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ .

وَجَهَنَّمُ مَوْجُودَةٌ كَذَلِكَ ، وَمَخْلُوقَةٌ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ ، وَسَتَبْقَى يُعَذَّبُ فِيهَا الْكُفَّارُ ، فَلَا زَوَالَ وَلَا فَنَاءَ لَهَا .

٩ - اِخْتَلَفَ التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَتَيْنِ ، فِي آيَةِ سُورَةِ الْحَدِيدِ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِجُمْلَةٍ فَعْلِيَّةٍ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ، بَيْنَمَا عَبَّرَ عَنْهُمْ فِي آيَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . وَهَذِهِ الصِّفَةُ تَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ وَالِاسْتِقْرَارِ ؛ أَيُّ أَنَّ «التَّقْوَى» صَارَتْ صِفَةً ثَابِتَةً فِيهِمْ ، وَمُلَازِمَةً لَهُمْ ، لَا يَنْفَكُونَ وَلَا يَتَخَلَّوْنَ عَنْهَا ، وَلِذَلِكَ دَفَعْتَهُمْ إِلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَلَيْسَ مَجْرَدَ الْمَسَابَقَةِ إِلَيْهَا .



الفصل الثامن

حديث القرآن عن الجاهلية

الجاهلية: مصطلح قرآني ، له معنى واضح محدد في القرآن ، وله فيه مجالات ومضامين وأبعاد وجوانب .

وقد دار في هذه الأيام كلامٌ ولغَطٌ حول معنى هذا المصطلح ، ووقع كثيرٌ من الناس في لبسٍ في فهمه ، وفي بيان مضمونه .

ومن المعلوم عندنا أنه إذا حصل خلافٌ في أمرٍ ، فيجبُ على المسلمين العودة إلى القرآن ، والاحتكامُ إليه في حلِّ الإشكال ؛ وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩] .

وسنقفُ هنا مع مصطلح (الجاهلية) لنعرفَ مادَّته اللغوية ، ومعناه في العربية ، ثم نصحبُ القرآن في حديثه عن الجاهلية ، متعرِّفين منه على معناها ومضمونها ، وعلى حقيقتها وألوانها .

الجذر الاشتقاقي للجاهلية:

(الجاهلية) مصدر ، جذره الثلاثي (جَهَلٌ) . ويتحقق فيها معنى هذا الجذر ؛ فما هو معناه الأساسي .

قال ابن فارس : «الجيمُ والهاء واللامُ أصلان :

أحدُهُما : خِلافُ العِلْمِ .

والآخَرُ : الخِفةُ وخِلافُ الطمأنينة .

فالجهلُ نقيضُ العلمِ .. ويُقال: استجهلتَ الریحُ الغُصنَ ، إذا حرَّكته
فاضطرب .

قالَ النابغة الذبياني :

دَعَاكَ الهوى واستجهلتكَ المنازلُ وَكَيْفَ تَصَابِي المرءَ والشَّيْبُ شامِلُ
أَي: استخففتكَ المنازلُ وَمَنْ فيها . . .»^(١) .

وقالَ الإمامُ الراغبُ الأصفهاني : «الجهلُ على ثلاثة أَصْرُب :

الأوَّلُ: خُلُوُّ النفسِ مِنَ العلمِ ، هذا هو الأَصْلُ ، وقد جَعَلَ ذلكَ بعضُ
المتكلمين معنى مقتضياً للأفعالِ الخارجةِ عن النِّظامِ .

والثاني : اعتقادُ الشيءِ بخلافِ ما هو عليه .

والثالث : فَعْلُ الشيءِ بخلافِ ما حَقُّهُ أَنْ يُفْعَلَ ، سواءً اعتقدَ فيه اعتقاداً
صحيحاً أو فاسداً»^(٢) .

وجاءَ في لسانِ العربِ : «... التَّجْهِيلُ: أَنْ تَنْسِبَهُ إِلَى الجَهِلِ ، والجَهِالَةُ:
أَنْ يَفْعَلَ الشَّيْءَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، والمَجْهَلَةُ: ما يَحْمَلُكَ عَلَى الجَهِلِ ، ومنه
الحديثُ : «الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ ، مَجْبَنَةٌ ، مَجْهَلَةٌ...» و: الجاهليةُ: زمنُ الفترةِ
ولا إسلام...»

وفي الحديثِ : «إِنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهليَّةٌ» . وهي الحالةُ التي كانَ عليها
العربُ قَبْلَ الإسلامِ ، من الجَهِلِ باللهِ ورسولِهِ وشرائعِ الدينِ ، والمفاخرةِ
بالأنسابِ والكِبَرِ والتجَبُّرِ ، وغير ذلك...»^(٣) .

يؤخَذُ مِنَ الكلامِ السابقِ أَنَّ الجَهِلَ نوعان :

الأوَّلُ: الجَهِلُ في الفِكرِ والاعتقادِ : وهو الجَهِلُ المُقابلُ للعلمِ ، ويعني
عَدَمَ العلمِ والمعرفةِ .

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٢٢٨ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩ .

(٣) لسان العرب، لابن منظور: ١٢٩/١١ - ١٣٠ .

الثاني: الجهلُ في العمل والتصرفِ والسلوك: وهو الجهلُ المقابلُ للآتزان ويعني عدم الاتزانِ والطمأنينة.

وفي هذين النوعين من الجهلِ توجد الخِفةُ والطيشُ والاضطرابُ وعدمُ الطمأنينة.

فالذي يَجْهَلُ جَهْلًا فكريًا يكونُ قلقًا مضطربًا ، ضائعًا حائرًا ، لا يعرفُ يقينًا ولا طمأنينةً ولا هدوءًا.

والذي يَجْهَلُ جَهْلًا سلوكيًا يكونُ خفيفًا طائشًا متهورًا ، لا يعرفُ الاتزانِ ولا الجدِّيَّةَ.

وقد وَرَدَ في القرآنِ الاشتقاقاتُ والتصريفاتُ التالية:

١- فعلٌ مضارعٌ مُسَنَدٌ للمخاطبين: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ . وَرَدَ أربعَ مرات .

٢- فعلٌ مضارعٌ مُسَنَدٌ للغائبين: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ . وَرَدَ مرةً واحدة .

٣- اسمٌ فاعلٍ مفرد: ﴿جاهل﴾ . وَرَدَ مرةً واحدة .

٤- اسمٌ فاعلٍ جمع: ﴿جَاهِلُونَ﴾ . وَرَدَ تسعَ مرات .

٥- صيغةٌ مبالغة: ﴿جَهُولٌ﴾ . وَرَدَ مرةً واحدة .

٦- مصدرٌ سماعي: ﴿جَهَالَةٌ﴾ . وَرَدَ أربعَ مرات .

٧- مصدرٌ صناعي: ﴿جاهلية﴾ . وَرَدَ أربعَ مرات .

ومجموعُ مراتِ ورودِ هذه الصيغِ في القرآنِ أربعٌ وعشرون مرة .

ووقفنا الآنَ أمامَ مصطلحِ (الجاهلية).

معنى مصطلحِ (الجاهلية):

الجاهلية: مصدرٌ صناعي ، من الجذرِ الثلاثي: «جَهَل»؛ نقول: جَهَل ، يَجْهَلُ ، جَهْلًا وَجَهَالَةً وَجَاهِلِيَّةً .

والمصدرُ الصناعي هو ما كانَ مَحْتومًا ببياءٍ مُسَدَّدةٍ تليها تاءٌ مربوطة ، مثل: الحرية ، والإنسانية ، والحيوانية ، والعاطفية .

ولم يُستعملِ هذا المصطلحُ (الجاهلية) قبلَ الإسلام ، ولم يُسَجَّلِ في

المعاجم منقولاً عن العرب في العصر الجاهلي ، وهو مما تفرّد به القرآن .
وقد وردَ بعدَ القرآنِ على لسانِ رسولِ الله ﷺ ، فقالَ لأبي ذرٍّ رضيَ اللهُ
عنه : «إِنَّكَ امرؤٌ فيكِ جاهليّةٌ» .

وبما أنّ الجاهليّة من (مُبْتَكِرَاتِ) ألفاظِ القرآنِ فإنّها لم تَرِدْ في القرآنِ
بمعنى الجهلِ الذي هو المقابلُ للعلم ، وإنما هي بمعنى الجهلِ المقابلِ
للأتران ، فهي بمعنى الخفّة والسّفه والطيش .

وقد وَرَدَتِ (الجاهليّة) أربعَ مرات ، في أربعِ سور ، كلّها مدنيّة ، هي
سور: آل عمران ، والمائدة ، والأحزاب ، والفتح . وقد وَرَدَتِ في كلّ سورةٍ
بمعنى .

١ - ظنُّ الجاهليّة في سورةِ آل عمران:

أضيفت الجاهليّة إلى الظنِّ في سورةِ آل عمران ، في سياقِ الحديثِ عن
جريمة المنافقين في غزوةِ أُحد .

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِشِّي طَائِفَةً مِنْكُمْ
وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ
الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا
مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

يمتثلُ اللهُ على المسلمين بما أنزلَ عليهم في غزوةِ أُحدٍ من أَمَنَةٍ ، وهي
التُّعَاسُ الذي عَشِيَهُمْ ، فأزالَ غَمَّهُمْ وقلَقَهُمْ .

أما المنافقون فقد كانوا في قلقٍ وتوتُّرٍ واضطرابٍ ، أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ،
فزالَتْ عنهم الأَمَنَةُ والطمأنينةُ والسكينةُ ، وحلَّ محلُّها القلقُ والاضطرابُ ،
والهواجسُ والتخيلاتُ ، والظنونُ والوساوسُ .

وهذه ضريبةٌ باهظةٌ يدفعها الذين لا يُفكرونَ في أُمَّتِهِمْ عندَ الأزْمامِ ،
ويدورونَ في فَلَكَ ذواتِهِمْ وأَنانِيَّاتِهِمْ ، ولا تهتمُّ إلا لأنفسِهِمْ . . . إنهم يكونونَ
قلقينَ مُتوتِّرينَ مُنْغَلِبينَ ، تُسيطرُ عليهم ظنونُهُمْ وهواجسُهُمْ .

وقد أخبرت الآية أَنَّ المنافقين الذين أهتمهم أنفسهم كانوا يظنون بالله غير الحق ، وهو ظنُّ الجاهلية : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

الواوُ في ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ ﴾ : حرف استئناف ، والجملة مستأنفةٌ تتحدثُ عن سوء ظنِّ المنافقين . ﴿ طَائِفَةٌ ﴾ مبتدأ ، وجملة ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ ﴾ أنفسهم : في محلِّ رفع صفة . أي : وطائفةٌ مهتمون بأنفسهم . وجملة ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ : في محلِّ رفع خبر . والتقدير : طائفةٌ مهتمون بأنفسهم ظانون بالله غير الحق . . و﴿ غَيْرَ ﴾ : صفةٌ لموصوف محذوف ، هو المفعول المطلق . والتقدير : يظنون بالله ظناً غير الحق . و﴿ ظَنَّ ﴾ : بدلٌ من المفعول المطلق المحذوف . و﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ : مُضَافٌ إليه لمضاف محذوف ، تقديره «أهل» ، ويكونُ تقديرُ الكلام كله هكذا : وطائفةٌ مهتمون بأنفسهم ، ظانون بالله ظناً غير الحق ؛ هو ظنُّ أهل الجاهلية .

وجملة ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ : في محلِّ نصب حال . وجملة ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ ﴾ : في محلِّ نصب حالٍ ثانٍ .

وَصَفَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ . . وَبَيَّنَّ هَذَا بِسَوْءِ ظَنِّهِمْ بِاللَّهِ : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

وَوُصِفَ ظَنُّهُمْ بِصِفَتَيْنِ قَبِيحَتَيْنِ :

الأولى : أَنَّهُ ظَنَّ غَيْرَ الْحَقِّ ؛ أَي أَنَّهُ ظَنَّ بَاطِلًا ، لِأَنَّهُ سَوْءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ وَبِقَدْرِهِ وَبِحُكْمَتِهِ ، وَاعْتِرَاضٌ عَلَى اللَّهِ وَقَدْرِهِ .

الثانية : أَنَّهُ ظَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَظَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ ظَنَّ بَاطِلًا دَائِمًا .

ومجيء ﴿ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بدلاً من ﴿ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ للإشارة إلى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقِيقَةً وَإِنْ زَعَمُوا دُخُولَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، فَهَمَّ لَمْ يَزَالُوا عَلَى جَاهِلِيَّتِهِمْ وَكَفَرِهِمْ ، وَلَمْ يَزَلْ ظَنُّهُمْ وَتَفْكِيرُهُمْ كَظَنَّ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْكَافِرِينَ الْآخَرِينَ .

والجاهلية هنا جاهلية ظنٍّ وفكرٍ ، وجاهلية تصوُّرٍ ونظرٍ ، جاهليةٌ تنصبُّ على الأفكار والظنون أو الهواجس والمشاعر والمبادئ والنظرات ، فهي جاهليةٌ فكريةٌ تصووريةٌ عقليةٌ نظرية .

ولم تترك الآية ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ مُبْهَمًا ، بل وَضَحْتَهُ وَبَيَّنْتَهُ وَفَسَّرْتَهُ .

ثلاثة مظاهر لظن الجاهلية :

الأول : في جملة : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ؟ : وهذه الجملة الفعلية في محل نصب حال ، وصاحب الحال ضمير «هم» في ﴿ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ العائد على المنافقين .

وتسجل هذه الجملة اعتراض المنافقين على رسول الله ﷺ ، عندما خرج بالمسلمين إلى غزوة أحد ، ولم يأخذ برأي المنافقين في البقاء في المدينة . غضبوا من رسول الله ﷺ ، وادَّعَوْا أَنَّهُ تَجَاهَلَهُمْ وَأَهْمَلَهُمْ ، عندما لم يأخذ برأيهم .

وهذا الاعتراض منهم دليل على جاهلية ظنهم وتصوُّرهم وتفكيرهم ، لأنه اعتراض على الله وعلى قدره ، وعلى رسوله ﷺ وصواب قراره . . . ولذلك جاء الردُّ عليهم ونقض اعتراضهم صريحاً : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ .

التصوُّرُ الإيمانيُّ المقابل للظنِّ الجاهليِّ يدعو أصحابه المؤمنين إلى الإيمان بقدر الله ، والرضا به ، والاستسلام له ، وليس الاعتراض عليه .

الثاني : في جملة : ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ : هذه الجملة الفعلية في محل نصب حالٍ ثانٍ للمنافقين ؛ لقد كانوا يتعاملون مع رسول الله ﷺ بنفاقٍ وتحاملٍ ومكرٍ ، فكانوا يخفون في أنفسهم الكفر والتكذيب برسول الله ﷺ ، ويبدون ويظهرون له الإسلام والإيمان به والطاعة له .

وهذا التحايلُ والنفاقُ من ظنِّ أهل الجاهلية ، لأنهم يظنون أن الرسول ﷺ يُمكن أن يُخدعَ ويُضحكَ عليه ! ونسوا أنه مؤيَّدٌ بالوحي ، وأن الله يفضحُ ويكشفُ له أعداءه .

الثالث : في جملة : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا ﴾ : هذه الجملة بدلٌ من الجملة السابقة : ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ، وفيها اعتراض آخرٌ منهم على رسول الله ﷺ ، وتخطئة له في خروجه إلى غزوة أحد ، فلو أخذ برأيهم ولم يخرج من المدينة لما قُتل سبعون من أصحابه في ميدانٍ أحد .

وقولهم هذا من ظنّ الجاهلية ، لأنه يتعلّق بالقضاء والقدر ، والعمر والأجل ، والحياة والموت . . . وهذه جاهلية اعتقادية ، في الفكر والتصور .

ولذلك ردّ الله على هذا الظنّ الجاهليّ الاعتقاديّ بقوله : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ . أي : إنّ الخروج للقتال لا يقصّر عمراً . وإنّ القعود في البيت لا يطيل عمراً ، والإنسان لا يموت إلاّ بأجله ، الذي حدّده الله له .

بين ظن الجاهليين ويقين المؤمنين :

ظنّ المنافقين ظنّ باطل غير صحيح ، وهو كظنّ إخوانهم من أهل الجاهلية الكافرين ، وهو ظنّ في التصور والعقيدة ، وهم مخطئون في هذا الظنّ الجاهليّ لما يلي :

١ - لأنهم قد أهمتهم أنفسهم : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ .

٢ - لأنهم ظنوا بالله ظنّ الجاهلية الباطل : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

٣ - لأنهم اعترضوا على قرار الرسول ﷺ بالخروج إلى أحد : ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

٤ - لأنهم خادعوا الرسول ﷺ ، وأظهروا له غير ما أخفوا : ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ ﴾ .

٥ - لأنهم لا يعرفون حقيقة القدر والأجل ، ويظنون أنّ الإقدام في القتال يقصّر العمر : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا ﴾ .

واللطيف في الآية الكريمة أنها ذكرت مظاهر الظنّ الجاهليّ الذي عليه المنافقون ، وذكرت مقابله معالم التصور الإيمانيّ الصحيح ، الذي عليه المؤمنون :

١ - كان الصحابة في أحد آمنين مطمئنين ، في مقابل قلق واضطراب المنافقين : ﴿ أَمَنَةٌ نَّاسًا يَعْنِي طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ .

٢ - بينما كان المنافقون مهتمين بأنفسهم في أحد ، كان الصحابة مهتمين بالأمة وبالجهاد ويفكرون في مواجهة الأعداء .

٣ - بينما كان المنافقون يظنون بالله غير الحق ، كان الصحابة يحسنون الإيمان بالله ، ويحسنون الظن بالله ، ويرضون بقدر الله .

٤ - بينما كان ظن المنافقين ظن الجاهلية ، كان الصحابة يوقنون ويجزمون ، ويحققون إيمانهم بالله ، ويجعلون هذا الإيمان اعتقاداً جازماً و يقيناً قاطعاً .

٥ - بينما كان المنافقون يعترضون على رسول الله ﷺ قائلين : ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ؟ ، كان الصحابة مُطيعين للرسول ﷺ ، ومُسَلِّمين لقدر الله ، ويوقنون بأن الأمر كله لله .

٦ - بينما كان المنافقون يُخادعون الرسول ﷺ ويتحايلون عليه ويخفون في أنفسهم ما لا يُبدون له ، كان الصحابة صادقين مع رسول الله ﷺ ولا يخفون عنه شيئاً .

٧ - بينما كان المنافقون يظنون أنه لو لم يخرج الصحابة إلى ميدان أحد لما قتلوا في المعركة ، كان الصحابة يوقنون وهم يُجاهدون أن الإقدام والاستسبال لا يُقصرُ عمراً ، وأن الجبن والقعود لا يطيلُ عمراً ، وأنه ﴿ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

وقد أبطل الله ظن المنافقين الجاهلي في موضوع الحياة والموت ، والعمر والأجل ، في آيات أخرى من سورة آل عمران ؛ منها قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءِ وَأَعَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

إنَّ هذا التقابل في الآية التي تحدت عن ظن الجاهلية بين ما عليه

المنافقون وما عليه المؤمنون ، يؤكدُ على أنهما حالتان مُتقابلتان في حياة البشرية ، على اختلافِ الزمانِ والمكان :

الحالة الأولى : ظنُّ الجاهلية : الذي عليه المنافقون والكافرون ، وبعضُ الجهلة من المسلمين ، والذي يعني الجاهلية في الفكرِ والتصور ، والجاهلية في النَّظَرِ والاعتقادِ ، والجاهلية في الهواجسِ والمشاعر ، والجاهلية في التحليل والتقييم .

الحالة الثانية : اليقينُ الإيماني : الذي عليه المسلمون العالمون ، منذُ الصحابة وحتى قيام الساعة ، والذي يعني تحقيق الإيمان ، وحُسن التصورِ والتفكير ، وصوابِ التَّحليلِ والتعليل ، والرضا بقَدَرِ الله والراحة في الاستسلام لله .

٢ - حكم الجاهلية في سورة المائدة:

أضيفت الجاهلية إلى الحُكم ، في سياقِ آياتٍ تحدَّثت عن وُجوبِ الحُكمِ بشرعِ الله ، وتنهى عن الحُكمِ بالهوى .

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ٤٨ ﴾ وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَسُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ٤٩ ﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿

[المائدة: ٤٨ - ٥٠] .

بعد أن بيَّن الله لرسوله ﷺ طبيعة هذا القرآن الذي أنزله إليه ، من أنه منزلٌ بالحقِّ ، وأنه مصدِّقٌ لما بين يديه من الكتابِ ، وأنه مهيمِنٌ على كلِّ ما سبقه . . أمره أن يحكمَ به بين الناس .

وقد أكد هذا الأمرَ بجملتين :

الأولى : قوله تعالى: ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا

جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَلَكِنْ يَسْبُلُوكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ ﴿١٠﴾ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ
يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ .

ولا تكرر في الجملتين ، فالأولى تُخبرُ أَنَّ اللهَ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ شِرْعَةً
ومنهاجاً ، ولذلك خَصَّ الأُمَّةَ المسلمةَ بالقرآن ، فلا يَجُوزُ أَنْ يَتْرَكَ المسلمونَ
هذا القرآنَ الحقَّ ، وَأَنْ يَعُودُوا إِلَى ما عليه السابقونَ من باطل . . أما الجملةُ
الثانية فإِنَّهَا تُحَدِّثُ الرسولَ ﷺ - وكلَّ حاكمٍ من بعده - من أَنْ يَسْتَجِيبَ لِأَهْوَاءِ
أَصْحَابِ الباطل ، كما تُحَدِّثُهُ مِنْ أَنْ يَفْتِنُوهُ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْهِ من
الحق .

وتَلْتَقِي الجملتانِ على الأمرِ بالحُكْمِ بما أَنْزَلَ اللهُ ، وعلى النَّهْيِ عن اتِّباعِ
الأهواءِ : ﴿ وَإِنْ أَحَكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

ونَلَفْتُ النظرَ إلى دلالةِ كلمةِ ﴿بَعْضٍ﴾ في جملةِ ﴿ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ
عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ على خطورةِ التنازلِ عن أيِّ جزءٍ من شرعِ الله ، مهما
قَلَّ!! .

وبعد التحذير والتنبية يأتي التقريرُ القرآنيُّ الحاسمُ : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾؟! .

تَذُمُّ الآيةُ الذينَ يَرِفُضُونَ حُكْمَ اللهِ ، وهو الحُكْمُ الصادقُ العادلُ ،
ويطلبونَ حُكْمَ أَهْلِ الجاهليةِ مكانه!! .

وتتكوَّنُ الآيةُ من جملتين متعاطفتين : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾؟ ، ﴿ وَمَنْ
أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾؟! .

﴿ أَفَحُكْمَ ﴾ : الهمزةُ : للاستفهام ، والاستفهامُ في الجملةِ إنكارِيٌّ ، والفاءُ
حرفٌ عطفٌ ؛ عَطَفَتْ جملةُ ﴿ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ على جملةٍ محذوفةٍ ،
مفهومةٍ من السياق ، والتقديرُ : أيعرضون عن حكمِ الله ، فيبغون حُكْمَ
الجاهلية؟! .

و﴿ حُكْمَ ﴾ : مفعولٌ به مقدَّمٌ على فعله : ﴿ يَبْغُونَ ﴾ . و﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ : مضافٌ

إليه. و﴿يَبْعُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ وفاعله. والتقديرُ: أَيْبَغُونَ حُكْمَ الجاهليَّةِ.
ومعنى ﴿يَبْعُونَ﴾: يَطْلُبُونَ وَيَرْغَبُونَ وَيَبْحَثُونَ وَيُرِيدُونَ.

والواوُ في ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ حرفُ عطفٍ ، عَطَفْتُ ما بعدها على ما قبلها. و﴿مَنْ﴾: اسمُ استفهامٍ في محلِّ رُفْعٍ مبتدأ ، و﴿أَحْسَنُ﴾: خبر.
و﴿حُكْمًا﴾: تمييز.

من لطائف الآية:

اللطيفُ الرائعُ أَنْ بينَ الجملتين المتعاطفتين مجموعةً من اللطائفِ ،
منها:

١ - كُلُّ جملةٍ منهما مفتوحةٌ بالاستفهامِ ، لكن كان الاستفهام في الأولى
بالحرفِ «الهمزة» ، وكان الاستفهامُ في الثانية بالاسمِ «مَنْ» .

٢ - الاستفهامُ في الأولى استفهامٌ إنكاري ، يُنكِرُ اللهُ فيه على أهلِ الهوى
اختيارَ حُكْمِ الجاهليةِ . . أما الاستفهامُ في الجملةِ الثانيةِ فإنه تقريرِي ؛ يُقَرِّرُ
فيه أنه ليسَ هناك حُكْمٌ أَحْسَنُ من حُكْمِ الله .

٣ - الجملةُ الأولى جملةٌ فعليةٌ ، تدلُّ على التجددِ والاستمرارِ ، والجملةُ
الثانية جملةٌ اسميةٌ ، تدلُّ على الاستقرارِ ، وعُطِفَتِ الجملةُ الاسميةُ على
الجملةِ الفعليةِ .

٤ - ذَكَرَ «الحُكْمُ» في الآيةِ مرتينِ ، وفي كلِّ جملةٍ كان منصوباً ، لكنه
كان في الجملةِ الأولى مفعولاً بهِ مُقَدِّماً ، وكان في الجملةِ الثانيةِ تمييزاً .

٥ - أُضِيفَ «الحُكْمُ» في الجملةِ الأولى إلى الجاهليةِ «حكم الجاهلية»
وذلك للتقبيحِ والتَّنفيرِ ، لأنَّ الجاهليةَ جاهلةٌ ، وحُكْمُها يكونُ جاهلاً ظالماً
خاطئاً . . ولكنَّ الحُكْمَ في الجملةِ الثانيةِ كان تمييزاً نَكِرَةً ، وهذا التَّنكيرُ
للتشريفِ والتكريمِ ، لأنه ثناءٌ على حُكْمِ الله .

وإضافةُ الحُكْمِ إلى الجاهليةِ: «حكم الجاهلية» تدلُّ على أَنَّ أَيَّ حُكْمٍ
مُغايِرٍ لشرعِ الله يدخلُ ضمنَ حُكْمِ الجاهليةِ ، وَأَنَّ أَيَّ حُكْمٍ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ
هو من حُكْمِ الجاهليةِ . كما يدلُّ على أَنَّ الجاهليةَ قد تكونُ في الحُكْمِ
والتشريعِ .

إِذَنْ: هناك حُكْمٌ جاهليّ ، وهناك تَشْرِيعٌ جاهليّ ، وقانونٌ جاهليّ ، وقضاءٌ جاهليّ ، وهناك سياسةٌ جاهلية ، وإدارةٌ جاهليّة . .

ولا تكونُ هذه المظاهرُ جاهليّةً إِلَّا إِذَا اسْتَمَدَّتْ من غيرِ شرعِ الله ، على اختلافِ الزمانِ والمكانِ ، واختلافِ المستوى العلميِّ والمدنيِّ والحضاريِّ .

وذكرُ «حُكْمِ الجاهلية» في مقابلِ «حُكْمِ الله» في الآية ، له دلالةٌ أخرى مهمة ، هي أَنَّ الحُكْمَ نوعان ، على اختلافِ الزمانِ والمكانِ :

النوعُ الأولُ: حُكْمُ الله: وهو المستمَدُّ كُلُّهُ من شرعِ الله ، الذي لا يُخالفُهُ في أيِّ جزءٍ أو جانبٍ ، وهذا هو الحُكْمُ الإسلاميُّ الربّانيُّ ، الذي يعترفُ به الإسلامُ ، والذي يُباركُهُ الله .

النوعُ الثاني: حُكْمُ الجاهلية: وهو أيُّ حُكْمٍ لم يُستَمَدَّ من شرعِ الله ، مهما كانَ مَصْدَرُهُ ، ومهما كانَ مَظْهَرُهُ ، ومهما كانَ زَمَانُهُ أو مَكَانُهُ .

وإذا لم يكنِ الحُكْمُ حُكْمَ اللهِ بالصفَةِ التي حَدَدْنَاها ، كانَ حُكْمَ الجاهلية ، فلا نذهبُ بعيداً في التَّصنيفِ والتوصيفِ .

٣- تبرُّجُ الجاهليةِ الأولى في سورة الأَحزابِ:

أُصِيفَ «التَّبَرُّجُ» إلى الجاهليّة ، ووُصِفَتِ الجاهليّةُ بالأولى ، وذلك في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَنْسَاءُ النَّبِيَّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ٣٢ وَفَرَنْ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٣] .

ليست هذه الآياتُ خاصّةً بنساءِ النبيِّ ﷺ ، وإنما هي عامّةٌ لكلِّ النساءِ المسلماتِ حتى قيام الساعة .

وتقدّمَ هذه الآياتُ مجموعةً من التوجيهاتِ والأحكامِ ، مثلُ: عدمِ التَّكسُّرِ والغنَجِ والدَّلَعِ في الكلامِ ، والنطقِ بالقولِ المعروفِ الجادِّ ، والاستقرارِ في البيوتِ ، وعدمِ الخروجِ مُتَبَرِّجاتٍ ، وإقامةِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ ، واطاعةِ اللهِ ورسوله .

وَوَقَفْتَنَا مَعَ نَهْيِهِنَّ عَنِ التَّبْرِجِ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ .

الواو: حرف عطف ، عَطَفْتَ جَمَلَةً : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ على جَمَلَةٍ : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ .

﴿ وَقَرْنَ ﴾ : فعلٌ أمرٌ ، والنونُ نونُ النِّسوةِ ، في محلِّ رفعِ فاعلٍ . والفعلُ الماضي منه «قَرَّ» بالراءِ المضعفةُ ، وهو من الاستقرارِ ؛ تقول: قَرَّ ، يَقَرُّ ، والراءُ في فعلِ الأمرِ «قَرِّ» ساكنةٌ للتخفيفِ ، وأصلها «اقرَّرَ» . ومعنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ : عليكنَّ بالقرارِ والاستقرارِ في البيوتِ ؛ لأنَّ الأصلَ هو الاستقرارُ في البيوتِ .

والواوُ في ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾ حرفُ عطفٍ ، وجَمَلَةٌ ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾ معطوفةٌ على ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ . واللطفُ هو عطفُ النهي في الجَمَلَةِ الثانيةِ على الأمرِ في الجَمَلَةِ الأولى . و﴿ لَا ﴾ : حرفُ نهيٍ . و﴿ تَبَرَّجْنَ ﴾ : فعلٌ مُضارعٌ مبنيٌّ على السكونِ لاتصاله بنونِ النِّسوةِ ، وهو في محلِّ جزمٍ بـ﴿ لَا ﴾ الناهيةِ .

وأصلُ ﴿ تَبَرَّجْنَ ﴾ : تَبَرَّجْنَ ؛ بتاءينِ : تاءُ المضارعةِ ، وتاءُ التفعُّلِ «التَّبَرُّجُ» ، فحذفتُ تاءَ المضارعةِ للتسهيلِ ، وبقيتْ تاءُ التفعُّلِ . ففعلُ ﴿ تَبَرَّجْنَ ﴾ على وَزْنِ «تَفَعَّلْنَ» . و﴿ تَبَرَّجْنَ ﴾ : مفعولٌ مطلقٌ . و﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ : مضافٌ إليه . و﴿ الْأُولَى ﴾ : صفةٌ ﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ مجرورةٌ .

﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ في الحقيقةِ مُضافٌ إليه لمضافٍ محذوفٍ ، والتقديرُ : لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ؛ لأنَّ الجاهليةَ لا تَبَرَّجُ إنما تَبَرَّجُ نساؤها .

والتَّبَرُّجُ صيغةُ تفعُّلٍ ، من الثلاثي «بَرَجَ» .

قال ابنُ فارسٍ : «بَرَجَ» : يُستعملُ في أصْلينِ :

أحدهما : البروزُ والظهورُ ، ومنه «البرجُ» وهو سَعَةُ العَيْنِ ، في سِدَّةِ سَوَادِ سَوَادِهَا وَسِدَّةِ بِياضِ بِياضِهَا ، ومنه : التَّبَرُّجُ : وهو إظهارُ المرأةِ محاسنها .

والثاني: الملجأ، ومنه: بُرُوجُ السماء، وأصلُ البُروج: الحصون والقصور»^(١).

وقال الراغب الأصفهاني: «ثَوْبٌ مُبْرَجٌ: صُوِّرَتْ عَلَيْهِ بُرُوجٌ، فاعْتَبِرَ حُسْنُهُ. وقيل: تَبَرَّجَتِ الْمَرْأَةُ، أَي: تَشَبَّهَتْ بِهِ فِي إِظْهَارِ الْمُحَاسَنِ. وقيل: تَبَرَّجَت: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بُرْجِهَا، وَهُوَ قَصْرُهَا، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا ظَاهِرُ الْآيَةِ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]»^(٢).

فالتبرُّجُ عند المرأة هو: خروجها من بيتها، متعطرةً متزيَّنةً، وبذلك تُظهِرُ زِينَتَهَا، وتُسْفِرُ عن جَمَالِهَا وَحُسْنِهَا، وتَفْتَنُ بِذَلِكَ الرِّجَالَ، فَهِيَ تَسِيرُ فِي الشَّوَارِعِ أَوْ تَجْلِسُ فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ، وَهِيَ تَكْشِفُ عَنْ شَعْرِهَا أَوْ عُنُقِهَا أَوْ عَضُدِهَا أَوْ سَاقِهَا، أَوْ عَنْ ظَهْرِهَا أَوْ سُرَّتِهَا!!.

التبرج بين الجاهلية الأولى والجاهلية المعاصرة:

وأضيفَ التبرُّجُ إلى نساءِ الجاهليةِ الأولى: ولا تبرجن نساءُ الجاهليةِ الأولى: أَي: لَا تَكْشِفْنَ عَنْ عَوْرَاتِكُنَّ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ نِسَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى.

ولم تذكر الآيةُ صفةَ تَبَرُّجِ نِسَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، كَمَا لَمْ يَذْكَرْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَا دَاعِي لِلْكَلامِ عَلَى صِفَةِ ذَلِكَ التبرج، كُلُّ مَا يُقَالُ عَنْهُ: إِنَّ نِسَاءَ تِلْكَ الْجَاهِلِيَّةِ عِنْدَمَا يَخْرُجْنَ يَكْشِفْنَ عَوْرَاتِهِنَّ، وَيَسْتَعْرِضْنَ مَفَاتِنَهُنَّ، وَلَا يَهْمُنَّ تَفَاصِيلُ ذَلِكَ الْكَشْفِ، وَلَا كَيْفِيَّةُ ذَلِكَ التَّكْشِفِ، وَلَا مَقْدَارُ وَحَجْمِ الْعِزْءِ الْمَكْشُوفِ مِنْ أَجْسَادِهِنَّ!!.

﴿الْأُولَى﴾: صِفَةٌ لِلْجَاهِلِيَّةِ، بِمَعْنَى السَّابِقَةِ الْمَاضِيَةِ، فَهِيَ أَوْلِيَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ. وَ﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: هِيَ الْفِتْرَةُ الزَّمْنِيَّةُ السَّابِقَةُ، الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَهَذِهِ الْفِتْرَةُ مَمْتَدَةٌ مَا بَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ١٣٠.

(٢) المفردات، ص ١١٥.

لقد كانت النساء الكافرات في الجاهلية الأولى قبل الإسلام يتكشفن
 ويتبرجن ويتعزّن ، ويُظهرن كثيراً من أجسادهنّ ، لفتنة وإفساد الرجال !! .
 ووصفُ الجاهلية بأنها أولى - وهي ما كانت قبل الإسلام - يدلُّ على أنّ
 هذه الجاهلية ستعود بعد الإسلام ، وسيكون هناك جاهلية ثانية وثالثة . . . !! .
 ويدلُّ على ذلك هذا الحوارُ العلميُّ ، الذي جرى بين عمر بن الخطاب ،
 وابن عباس رضي الله عنهما :

«قال عمرُ بنُ الخطاب لعبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما : أَرَأَيْتَ قَوْلَ
 اللَّهِ : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ ؟ هل كانتِ إِيَّاهُ جاهلية واحدة؟ .

فقال ابن عباس : وهل كانتِ من أولى إِيَّاهُ آخِرة؟ .

فقال عمرُ : لَهِ دَرَكٌ يَا بَنَ عَبَّاسَ ؛ كَيْفَ قُلْتَ؟ .

قال ابن عباس : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! هل كانتِ من أولى إِيَّاهُ آخِرة؟ .

قال عمرُ : فَأَنْتِ بِتَصْدِيقِ مَا تَقُولُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

قال ابنُ عباس : نعم . هو في قول الله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ
 جِهَادِهِ ﴾ [الحج : ٧٨] ، فَإِنَّ مَعْنَاهُ : جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، كَمَا جَاهَدْتُمْ
 أَوْلَ مَرَّةً .

قال عمرُ : صَدَقْتَ . . . » (١) .

وَنَشْهُدُ أَنَّ «جَاهِلِيَّةَ التَّبْرُجِ» عَادَتْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَانْتَشَرَتْ فِي كُلِّ مَكَانٍ فِي
 هَذَا الْعَالَمِ ، الَّذِي يَعِيشُ جَاهِلِيَّةَ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ ، رَغْمَ تَقَدُّمِهِ
 الْمَادِيِّ وَالْمَدْنِيِّ وَالْعِلْمِيِّ وَالصَّنَاعِيِّ وَالتَّكْنُولُوجِيِّ .

ولقد تَبَرَّجَتِ نِسَاءُ هَذِهِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ ، وَوَصَلْنَ فِي تَبَرُّجِهِنَّ إِلَى
 مَسْتَوِيَاتٍ مَذْهَلَةٍ ، لَمْ تَفْعَلْهَا نِسَاءُ الْجَاهِلِيَّاتِ السَّابِقَةِ ، وَسَاعَدَتِ الصَّنَاعَاتُ
 وَالِاخْتِرَاعَاتُ عَلَى إِيجَادِ وَسَائِلِ شَيْطَانِيَّةٍ عَجِيبَةٍ مَذْهَلَةٍ ، فِي نَشْرِ وَتَسْوِيقِ هَذَا
 التَّبْرُجِ مِنْ أَمْثَالِ مَسَاحِقِ التَّجْمِيلِ وَالْعَطُورِ ، وَصَرَعاتِ الْأَرْيَاءِ وَالْمَوْضَاتِ

(١) تفسير الطبري : ٥ / ١٢ .

والملابس التي تكشفُ من جسد المرأة أكثر مما تستر . . وكشفت النساء عن مفاتيهن ، وتعرّين ، وانتشرت نوادي العُراة ، وظهرت أفلام العُري والإباحية ، واخترع الفيديو كليب وقنوات التّعري ومواقع الإنترنت ، ومورست مختلف أنواع الفواحش والشهوات ، السّوية والشاذة ، في بثّ حيّ ومباشر ، على المسارح وفي النوادي والأفلام والفضائيات .

وماذا يُساوي تَبْرُج وتَعْرِي نساء الجاهلية الأولى أمام تَبْرُج وتَعْرِي نساء هذه الجاهلية المعاصرة؟! .

وإنّ وَصَفَ جاهلية التبرج والتّعري بالأولى ، يدلُّ على أنّ التَّبْرُجَ والتَّعْرِي ليس فتناً ولا تقدماً ، ولا حضارةً ولا (شياكة) ، وإنما هو تأخُّرٌ وتخلُّفٌ ، و(رجعيّة) وانحطاط ، لأنه عودةٌ بالمرأة إلى عصور التخلُّف والبدائية .

إنّ المرأة التي ترضى لنفسها أن تُقدِّمَ جسدها للرجال متخلِّفة ، وإنّ التي تتعرّى وتتكشِّفُ أمام الرجال (رجعيّة) تعودُ إلى الجاهلية الأولى ، حيث البدائية والتخلُّف . . وإنّ التَّبْرُجَ والتَّعْرِي سلوكٌ جاهليٌّ طائش متخلِّف ، وليس أناقَةً ولا مهارة . . إنّ إناث الحيوانات تمشي عارية ، وتشبُّه المرأة بها في التّعري ليس فتناً ولا كرامة ؛ إنّ كرامة المرأة تتمثلُ في عِفَّتِها وطهارتها ، وفي حصانتها وحيائها ، وهذه هي المتحضرة المتمدنة ، الواعية المتزنة!! .

٤ - حمية الجاهلية في سورة الفتح:

أضيفت الحمية إلى الجاهلية ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ في حديث القرآن عن موقف قريش العجيب من المسلمين في الحديبية .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّةٌ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَصَيْبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَبَّلُوا الْعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿ [الفتح : ٢٤ - ٢٦] .

تتحدّثُ هذه الآياتُ عن جَوِّ إجراءِ صلحِ الحديبية ، الذي تمَّ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ قريش ، في ذي الحجة من السنة السادسة ؛ حيثُ منعتُ قريشُ الرسولَ ﷺ وأصحابه من دُخولِ مكة معتمِرين ، والذي حمَلهم على ذلك حميةُ الجاهلية .

يُوضِّحُ حميةَ الجاهليةَ موقفُ سهيلِ بنِ عمرو الذي فاوضَ الرسولَ ﷺ نيابةً عن قريش .

فلما اتفقَ سهيلٌ مع رسولِ الله ﷺ على بُنودِ الصلح ، قالَ له : اكتبْ بيننا وبينك كتاباً .

فدعا النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه ليكتبَ .

فقالَ له النبيُّ ﷺ : « اكتب : بسمِ الله الرحمن الرحيم » .

فاعترضَ سهيلٌ وقالَ : لا أدري ما هو الرحمن الرحيم . ولكن اكتب : باسمِك اللهم .

فقالَ له النبيُّ ﷺ : « اكتب : باسمِك اللهم » .

ثم قالَ له : « اكتب : هذا ما عاهدَ عليه محمدٌ رسولُ الله » .

فاعترضَ سهيلٌ قائلاً : لو كنّا نعرفُ أنك رسولُ الله ما قاتلناك ولا صدَدناك عن البيت ، ولكن اكتب اسمَك واسمَ أبيك : محمدَ بنَ عبدِ الله !! .

فقالَ ﷺ : « واللهِ إني لرسولُ اللهِ وإن كَدَّبْتُموني . اكتب : محمد بن عبد الله » .

ثم قالَ النبيُّ ﷺ : « اكتب : على أن تُخلوا بيننا وبين البيتِ فنطوفَ به ! » .

فقالَ سهيلٌ : واللهِ لا تتحدّثُ العربُ أنّا أخذنا ضغطةً ، ولكن ذلك من العامِ المقبل ، وعلى أن لا يأتيك منّا رجل ، وإن كانَ على دينك ، إلّا ردَدته إلينا .

وعلقَ البخاريُّ على الحادثة بقوله : « فأنزَلَ اللهُ قولَه تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . . . ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ ؛ وكانت حميتهم أنهم لم يُقرّوا

أنه نبيُّ الله ، ولم يُقَرِّوا بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ، وحالوا بينه وبين البيت . .
و: حَمَيْتُ القَوْمَ مَنَعْتُهُمْ حِمَايَةَ . و: أَحْمَيْتُ الحِمَى : جَعَلْتُهُ حِمَى لا يُدْخَلُ .
و: أَحْمَيْتُ الرَّجَلَ : إِذَا أَغْضَبْتَهُ ، إِخْمَاءً^(١) .

لقد سَجَّلَ البخاريُّ ثلاثةَ مظاهرٍ لحميةِ الجاهليةِ التي سَيَطَرَتْ على قريش :

١ - لم يَعْتَرِفُوا أَنَّ مُحَمَّدًا هو رسولُ الله ﷺ عناداً واستكباراً ، رغم تواترِ وظهورِ الأدلةِ على رسالته .

٢ - لم يَقْبَلُ سهيلُ بنُ عمرو أن يُكْتَبَ : بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ، وكتب مكانها : بِاسْمِكَ اللهم ، عِنَاداً وَاسْتِكْبَاراً .

٣ - أَصْرُوا على منعِ رسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ من دخولِ البيتِ الحرامِ هذا العام ، لثلاثِ تقوَلِ العَرَبِ : إِنَّ المُسْلِمِينَ دَخَلُوا مَكَّةَ رَغْمَ أَنْفِ قريش . وبذلك تَضَعُفُ هَيْبَتُهُمْ .

ما هي ﴿ حِمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ؟ :

قال الراغبُ الأصفهاني في معناها : « الحَمِيُّ : الحرارةُ المتولِّدةُ من الجواهرِ المحميةِ ، كالنَّارِ والشمسِ ، ومن القوةِ الحارَّةِ في البَدَنِ . . . وَعَبَّرَ عن القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ إِذَا تَارَتْ وَكَثُرَتْ بالحميةِ ، فقولُ : حَمَيْتُ على فلان . أَي : غَضَبْتُ عليه »^(٢) .

الحِمِيَّةُ من الحَمِي . والحَمِيُّ : الحرارةُ . والحامي : الحارُّ .

والحرارةُ نوعان :

الأولُ : حَرارةٌ ماديَّةٌ ، ناتجةٌ عن الأشياءِ المعرَّضةِ للحَرِّ ، كَحَرِّ الشمسِ وحَرِّ النارِ . تقول : هذا ماءٌ حارٌّ ، وهذه عينٌ حاميةٌ . أَي : حارٌّ شديدُ الحرارةِ .

الثاني : حرارةٌ معنويَّةٌ ، ناتجةٌ عن الانفعالاتِ والتوتراتِ والمشاعرِ

(١) البخاري، برقم (٢٧٣١) .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

المتوهجة ، والأحاسيس المضطربة ، فتؤدي إلى القلق والانفعال والحدة والغضب .

فالحمة هي : التأثر والانفعال ، والحدة والشدة ، والغضب والقلق .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ مرتبط ارتباطاً وثيقاً مع قوله تعالى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ﴾ .

﴿ إِذْ ﴾ : ظرف زمانٍ للماضي ، بمعنى «حين» ، وجملة ﴿ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : في محلٍّ جرٍّ مضافٍ إليه ، والتقدير : حين جعلهم في قلوبهم الحمية .

وهذه الجملة متعلقة بقوله : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والتقدير : هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام حين جعلوا في قلوبهم الحمية .

و﴿ الْحَمِيَّة ﴾ : مفعولٌ به لفعل ﴿ جَعَلُوا ﴾ . و﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ : عطفٌ بيانٍ للحمية ، حيث جاءت ﴿ الْحَمِيَّة ﴾ جملةً أولاً ، ثم فصلت بعطف البيان ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بهدف زيادة تأكيد وتقرير المعنى .

و﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ في الحقيقة مضافٌ إليه لمضافٍ محذوف ؛ تقديره : حمية أهل الجاهلية .

وإضافة الحمية إلى ﴿ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بهدف تحقيرها وتشنيعها .

وتعليق حمية الجاهلية بصدّ المسلمين عن المسجد الحرام بهدف تعليقه ، فكأن الآية جوابٌ على سؤالٍ يتبادر للذهن عن موقف الكفار : لماذا صدّوا المسلمين عن المسجد الحرام في ذلك العام ؟ تقدّم الآية الجواب : لأنهم جعلوا في قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية !! .

والحمية : الأنفة والرفض ، والاستنكاف عن فعلٍ شيء ، لأنّه يراه إهانةً له . وأكثر استعمال الحمية في الاستكبار الذي لا داعي له .

وتوحي جملة ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بصورة لطيفة مؤثّرة : فكأنّ الجاهلية موقدٌ أو مرجلٌ ، مشتعلٌ ناراً ، وكأنّ الكفار فوق هذا المرجل المشتعل ،

وهم يَحْمُونَ ، وترتفع حرارتهم . . وكلما ازداد موقد الجاهلية في قلوبهم اشتعالاً . زادت حميتهم ، وارتفعت حرارتهم ، وازدادوا توتراً وتعنتاً ، وعجرفةً وغطرسة ، وازدادت أعصابهم توتراً وتشتتجاً ، وازدادوا رفضاً وعناداً .

فالجاهلية المذكورة في الآية: ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ جاهلية استنكاف واستكبار ، وعنادٍ وتجبرٍ ، ورفضٍ للحق ، ومحاربةٍ لأهله ، إنها جاهلية انتماءٍ سياسي ، وأنفةٍ قومية ، وتصرفٍ قيادي .

وإنها حالة يكون عليها الزعماء والقادة والسياسيون والمسؤولون ، عندما يتخذون قراراتٍ ظالمةً جائرةً خاطئةً ، والذي دفعهم إليها هي حمية الجاهلية .

واللطيفُ في السياقِ القرآني أنه عَرَضَ صورتين متقابلتين : صورةً مظلمةً مذمومةً ؛ وهي ما عليه الكفارُ في الحديدية من حمية الجاهلية . . وصورةً مشرقةً منيرةً ، وهي ما عليه المؤمنون في الحديدية من سكينية وطمانينة .

قال الله عن الصورة الأولى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ ، وقال الله عن الصورة الثانية: ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ .

ومن مظاهر الفرقِ في التعبيرِ الرائعِ بين الصورتين :

- ١ - التعبيرُ عن الجاهليةِ بفعلِ ﴿ جَعَلَ ﴾ ، وعن السكينيةِ بفعلِ ﴿ أَنْزَلَ ﴾ .
- ٢ - فاعلُ ﴿ جَعَلَ ﴾ هم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وفاعلُ ﴿ أَنْزَلَ ﴾ هو ﴿ اللَّهُ ﴾ .
- ٣ - حميةُ الجاهليةِ أَخَذَتْ حرفَ ﴿ فِي ﴾ ، والسكينيةُ النازلةُ أَخَذَتْ حرفَ ﴿ عَلَى ﴾ .
- ٤ - جَعَلَ الحميةِ كَانَ في « قلوب الكفار » . . وإنزالُ السكينيةِ ﴿ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
- ٥ - الحميةُ قبيحةٌ مردولةٌ بشعة ، والسكينيةُ طيبةٌ راقيةٌ مطلوبة .

٦ - إضافة الحمية إلى الجاهلية: ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ، وإضافة السكينة إلى الله ﴿ سَكِينَتُهُ ﴾ .

٧ - عطف الكلام عن السكينة بالفاء الدال على المقابلة: ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ ؛ فهي حالة مقابلة لما عليه الكفار من حمية الجاهلية التي اشتعلت في قلوبهم .

خلاصة الجولة مع الجاهلية في القرآن:

بعد هذه الجولة السريعة مع مصطلح الجاهلية في القرآن نتوقف لنسجل بعض اللطائف والنتائج والدروس والدلالات:

١ - مصطلح (الجاهلية) من مبتكرات القرآن ، فلم يستعمله أحد في العصر الجاهلي ، وانتشر بعد الإسلام .

٢ - لم يرد هذا المصطلح في أي سورة مكية ، والسور الأربعة التي ورد فيها سورٌ مدنية؛ وهي سور: آل عمران ، والمائدة ، والأحزاب ، والفتح .

٣ - الجاهلية مأخوذة من «الجاهل» وليس من الجهل . تقول: جهل ، يجهل ، جهلاً . وتقول: هو جاهلٌ ، وتصرفه جاهليٌّ ، وفيه خصلة جاهليةٌ .

والملاحظ في الجاهلية اسم الفاعل «جاهلٌ» ، وليس المصدر «جهلٌ» . ومعنى هذا أنه يُنظر في الجاهلية إلى أهلها وأشخاصها ، الذين يتصرفون التصرفات الجاهلية .

٤ - لم ترد الجاهلية في القرآن إلا في سياق الذم والتوبيخ ، وتبشيع صورتها ، والتنفير منها .

٥ - كانت الجاهلية في كل مواضع ذكرها في القرآن مضافاً إليه لمضافٍ محذوف ؛ فالظنُّ ظنُّ أهل الجاهلية ، والحكمُ حكمُ أهل الجاهلية ، والتبرُّجُ تبرُّجُ أهل الجاهلية ، والحميةُ حميةُ أهل الجاهلية . .

٦ - الجاهلية في القرآن وصفٌ لأمرٍ صادرة عن كفار: فظنُّ الجاهلية في سورة آل عمران صادرٌ عن المنافقين ، وهم كفار . وحكمُ الجاهلية في سورة المائدة صادرٌ عن أهل الكتاب الكفار . وتبرُّجُ الجاهلية في سورة الأحزاب

صادرٌ عن الكافراتِ الجاهلياتِ السابقات. وحميةُ الجاهليةِ في سورةِ الفتحِ صادرَةٌ عن قريشِ الكفارِ ..

٧- وَصَفُ الجاهليةِ في سورةِ الأحزابِ بالأولى: ﴿ تَبْرُجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ يدلُّ على أَنَّ التَّبْرُجَ والتكشُّفَ والتَّعَرِّيَ رجعيةٌ وتخلُّفٌ وانحطاطٌ ، وليس دليلَ تقدُّمٍ وحضارةٍ وذوقٍ وأناقةٍ .. كما يدلُّ على أَنَّ هذه الجاهليةَ قد تعودُ مرَّةً ثانيةً بعدَ الإسلامِ ، لتكونَ جاهليةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً . ولا غرابةَ أَنَّ يعيشَ العالمُ الآنَ «جاهليةَ القرنِ الحادي والعشرين» ، رغمَ تقدُّمِ مستواهم المادِّي والعلميِّ والمدني .

٨- وَرَدَّتِ الجاهليةُ في كلِّ مرَّةٍ بمعنى:

- فهي في سورةِ آلِ عمرانٍ : جاهليةٌ ظنٌّ وتصوُّرٌ وفكرٌ واعتقاد .
- وهي في سورةِ المائدةِ : جاهليةٌ حكمٌ وتشريعٌ وإدارةٌ وسياسة .
- وهي في سورةِ الأحزابِ : جاهليةٌ تبرُّجٍ وسلوكٍ وتصرفٍ وفعل ، وتكشُّفٍ وتعرُّ .
- وهي في سورةِ الفتحِ : جاهليةٌ حميَّةٌ وانتماءٌ وارتباطٌ .

٩ - الجاهليةُ في مراتٍ ورودها في القرآنِ واردةٌ في سياقِ المقابلةِ بينَ الخَطَّينِ المتوازيينِ : الخطُّ الجاهليُّ ، ويقابلهُ الخطُّ الإيمانيُّ ؛ فظنُّ الجاهليةِ عندَ المنافقينِ قابلهُ اليقينُ الإيمانيُّ عندَ الصحابةِ . وحكمُ الجاهليةِ في سورةِ المائدةِ قابلهُ حكمُ اللهِ الصادقِ . وتبرُّجُ الجاهليةِ في سورةِ الأحزابِ قابلهُ التسرُّ والتطهُّرُ والعفةُ عندَ المؤمناتِ . وحميَّةُ الجاهليةِ في سورةِ الفتحِ قابلتها السكينةُ والطمأنينةُ عندَ المؤمنين .



الفصل التاسع

مع مادة «ضَرَرٌ» في القرآن

«ضَرَرٌ»: مادةٌ لغويةٌ قرآنية ، وجَذْرٌ ثلاثيٌّ أصيل ، وَرَدَتْ اشتقاقته وتصريفاته وصيغته عَشْرَاتِ المراتِ في القرآن ، ويُمكنُ استخراجُ لطائفٍ وإشاراتٍ ودلالاتٍ عديدةٍ من ذلك ، منها .

وإنَّ (الجولة) مع هذه المادَّة في القرآنٍ ممتعة ، والرحلة مع صيغها وتصريفاتها واشتقاقاتها شيقَّة ، والوقفاتُ أمامها رائعة ، والتحليلاتُ البيانية لها لطيفة .

وسنعيشُ مع هذه المادَّة القرآنية ، ونقدِّمُ خلاصةً ما يَفْتَحُ اللهُ به علينا من لطائفٍ ودلالاتٍ وإشاراتٍ .

والذي وَرَدَ في القرآنِ من صِيغِ واشتقاقاتِ هذه المادَّة الكلماتُ التالية :
يَضُرُّ . لا تُضَارُّ . اضْطَرُّ . أضْطَرُّ . ضُرُّ . ضُرٌّ . ضَرَرٌ . ضَرَّاءُ . ضِرار .
ضَارٌّ . مُضَارٌّ . المُضْطَرُّ .

فما هو معنى كلِّ واحدةٍ من هذه الصيغ؟ وكيف تحوي كلُّ صيغةٍ منها المعنى الأساسي للمادَّة؟ وما هو الفرقُ الدقيقُ بين هذه الصيغ؟ وما هي حكمةُ ورودِ كلِّ صيغةٍ منها في الموضع الذي وَرَدَتْ فيه؟ .

معنى «ضَرَرٌ» في اللغة:

«ضَرَرٌ»: هو الجَذْرُ الأساسيُّ لهذه المادَّة ، وهو مصدرٌ على وَزْنِ «فَعَلٌ» .
تقول: ضَرَّ ، يَضُرُّ ، ضَرًّا . من باب: نَصَرَ ، يَنْصُرُ ، نَصْرًا .

قال ابن فارس: «الضُرُّ: خلافُ النفع. يُقال: ضَرَّهُ ، يَضُرُّهُ ، ضَرًّا. ثم يُحْمَلُ على هذا كُلُّ ما جَانَسَهُ أو قَارَبَهُ»^(١).

وقال الراغب الأصفهاني: «الضُرُّ: سوءُ الحال ، إمَّا في نفسِهِ لقلَّةِ العِلْمِ والفضْلِ والعِفَّةِ ، وإمَّا في بدنِهِ لعدَمِ جارِحَةٍ ونَقْصِ ، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاه»^(٢).

ومعنى كلامِ الراغبِ الأصفهاني أَنَّ أنواعَ الضَّرْرِ التي تُصِيبُ الإنسانَ ثلاثةٌ:

الأول: ضَرَّرَ في النفس: كقلَّةِ العِلْمِ ، وقلَّةِ الفضْلِ ، وقلَّةِ العِفَّةِ. فهذه الثلاثةُ سوءٌ يقعُ بالإنسانِ ، ويتأدَّى به ، وتتأثَّرُ حياتهُ به .

الثاني: ضَرَّرَ في البدنِ والجسم: مثلُ المرضِ الذي يَعْتَرِيهِ ، والأذى الذي يُعْطَلُ بعضَ حواسِّهِ ، كالعمى والصممِ والخرس .

الثالث: ضَرَّرَ خارجَ كيانِ الإنسان: مثلُ الفقرِ الناتجِ عن قلَّةِ المالِ ، والدُّلِّ الناتجِ عن قلَّةِ الجاهِ ، وخسارةِ المالِ أو العملِ ، والهزيمةِ أمامَ الخصمِ .

والجامعُ بين هذه الأنواعِ الثلاثةِ أنها سوءٌ يُصِيبُ الإنسانَ في حياته ، فهي أضرارٌ بهذا الاعتبارِ .

صِيغُ مادَّةِ «ضَرَّرَ» في القرآن:

وردتْ مادةُ «ضَرَّرَ» في القرآنِ على ثلاثِ صيغٍ:

الأولى: صيغةُ الثلاثي: «ضَرَّرَ»:

وردَ منها الاشتقاقُ التالية:

أ- الفعلُ المضارع: يَضُرُّ .

ب- اسمُ الفاعل: ضارٌّ .

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٥٩٨ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ، للراغب الأصفهاني ، ص ٥٠٣ .

ج - المصدر: وردت مصادر أربعة هي: ضَرَّ ، ضَرَّ ، ضَرَّ ، ضَرَّ .

الثانية: صيغة الرباعي: ضَارَّ:

وردَ منها الاشتقاقات التالية:

أ - الفعل المضارع: يُضَارُّ .

ب - اسمُ الفاعل: مُضَارٌّ .

ج - المصدر: ضِرَارٌ .

الثالثة: صيغة الخماسي: اضْطُرَّ:

وردَ منها الاشتقاقات التالية:

أ - الفعل الماضي المبني للمجهول: اضْطُرَّ .

ب - الفعل المضارع المبني للمعلوم: اضْطُرُّ .

ج - اسمُ المفعول: مُضْطَرٌّ .

ونُتَابِعُ وَفَقَتْنَا الْمَفْصَلَةَ مَعَ هَذِهِ الصِّيغِ وَالِاشْتِقَاقَاتِ .

أولاً: مع الفعل الثلاثي «ضَرَّ»:

«ضَرَّرَ»: فعلٌ ماضٍ ثلاثي ، على وزن «فَعَلَ» . أدغمت الرَاءُ فِي الرَاءِ ، فَصَارَ «ضَرَّ» . وَهُوَ فَعْلٌ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ بِهِ وَاحِدٍ . تَقُولُ: ضَرَّرَ الرَّجُلُ خَصْمَهُ . أَي: أَصَابَهُ بِسُوءٍ .

وَيُقَابِلُ الضَّرَّ النُّفْعُ ، الَّذِي هُوَ تَقْدِيمُ الْخَيْرِ .

وَالَّذِي وَرَدَ مِنَ الثَّلَاثِي هُوَ: الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ ، وَاسْمُ الْفَاعِلِ ، وَالْمَصْدَرُ .

أ - الفعل المضارع «يَضُرُّ» فِي الْقُرْآنِ:

«يَضُرُّ»: فعلٌ مضارعٌ مضمومٌ العين . وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ تِسْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً .

وَكَانَ وَرُودُهُ عَلَى الْحَالَاتِ التَّالِيَةِ:

١ - أَسْنَدَ إِلَى فَاعِلٍ ظَاهِرٍ مُفْرَدٍ: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] . «كُم»: فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٍ

به مُقَدَّم. و«كَيْدٌ» فاعلٌ مؤخَّر مرفوع. تنفي الآية قدرة الكفار في كيدهم على إيقاع الضَّر بالمسلمين.

٢ - أُسْنَدٌ إِلَى ضَمِيرٍ جَمْعٍ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ فَاعِلٌ: كما في قوله تعالى: ﴿وَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧]. يُخْبِرُ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ أَنَّهُمْ إِنْ أَصْرُوا عَلَى كَفْرِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَهْلِكُهُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا غَيْرَهُمْ ، وَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِيصَالَ الضَّرِّ وَالْأَذَى بِهِ سُبْحَانَهُ .

٣ - أُسْنَدٌ إِلَى ضَمِيرٍ مُسْتَتِرٍ: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٧١]. فاعل ﴿يَضُرُّنَا﴾ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ «هُوَ» ، يَعُودُ عَلَى الْمَوْصُولِ «مَا» .

٤ - أُسْنَدٌ إِلَى اسْمٍ مَوْصُولٍ: كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٥ - وَرَدَّ مَنْصُوبًا بِالْفَتْحَةِ: لِإِسْنَادِهِ إِلَى مُفْرَدٍ غَائِبٍ ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

٦ - وَرَدَّ مُسْنَدًا إِلَى الْجَمْعِ: مَنْصُوبًا بِحَذْفِ النُّونِ ، كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذَىً﴾ [آل عمران: ١١١].

٧ - وَرَدَّ مَجْزُومًا: لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مُضَارِعٍ مَجْزُومٍ قَبْلَهُ ، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَنْفَرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٣٩].

ويمكن ملاحظة اللطائف والإشارات التالية:

١ - كَانَ الْمَفْعُولُ بِهِ الَّذِي تَعَدَّى لَهُ الْفِعْلُ مَذْكُورًا فِي ثَمَانِي عَشْرَةَ مَرَّةً ، مِنْ مَرَاتِ وُرُودِ الْفِعْلِ ، وَكَانَ مَحْذُوفًا فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۗ ۚ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣] ، وَالْفِعْلُ مَعْطُوفٌ عَلَى فِعْلِ قَبْلِهِ ، ذُكِرَ مَفْعُولُهُ: ﴿يَنْفَعُونَكُمْ﴾ . وَالتَّقْدِيرُ: هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَكُمْ .

٢ - كَانَ الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ مَنْفِيًّا صَرِيحًا فِي سَبْعِ عَشْرَةَ مَرَّةً مِنْ الْمَرَاتِ التَّسَعِ

عشرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦] ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣] .

٣ - جاء مَسْبُوقاً بالاستفهام مرةً واحدةً ، وكان الاستفهام بمعنى النفي ، فهو نفي في الحقيقة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۚ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٣] ؛ أي: لا يسمعونكم ولا ينفعونكم ولا يضررونكم .

٤ - جاء مُثَبَّتاً في موضع واحد في القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، أي: يتعلمون الذي يضرُّهم .

٥ - من اللطيف ملاحظة الفرق بين حالتي الفعل «تَضُرُّونَ» في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْخَلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ﴾ [هود: ٥٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٣٩] .

إنَّ الفعل منفي في الآيتين ، وهو معطوف على ما قبله في الآيتين ، لكنه في آية سورة هود مرفوع لأنه معطوف على مرفوع قبله : ﴿ وَيَسْخَلِفُ رَبِّي قَوْمًا ﴾ . وهو في آية سورة التوبة مجزوم لأنه معطوف على مجزوم قبله : ﴿ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ ﴾ .

٦ - تسبقُ «ما» الفعل المضارع في بعض المرات ، ومن اللطيف أنَّ «ما» جاءت على معنيين :

- جاءت اسم موصول في بعض المرات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، جملة ﴿ يَضُرُّهُمْ ﴾ صلة الموصول ، والموصول وصلته في محل نصب مفعول به ، والتقدير: ويتعلمون الضارَّ غير النافع .

- جاءت حرف نفي في بعض المرات ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣] .

٧ - جاء الفعل المضارع في كثير من المرات مقروناً بالرفع ، في سياق

يَنْفِي قُدْرَةَ أَيِّ مَخْلُوقٍ عَلَى أَنْ يَضُرَّ أَوْ يَنْفَعَ أَحَدًا ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

وغيرُ الله عاجزٌ عن النفع والضّر ، لأنّ الأمورَ كلّها بيدِ الله وحده ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ [الأنعام: ٧١].

ب - اسم الفاعل «ضارٌّ» في القرآن :

«ضارٌّ» : اسمُ فاعل . تقول : ضَرَّ ، يَضُرُّ ، فهو ضارٌّ . مثل : نَصَرَ ، يَنْصُرُ ، فهو ناصر . و«ضارٌّ» على وزن «فاعل» . أصله : «ضارِرٌّ» ، فأدغمت الراء في الراء . والمدّ فيه لازمٌ كلميٌّ مُثَقَّلٌ ، يُمَدُّ سِتَّ حركاتٍ وجوباً .

وقد وَرَدَ «ضارٌّ» مرتين في القرآن ، وكان ورودُه على حالتين :

الحالة الأولى : اسمُ فاعل مفرد «ضارٌّ» :

وَرَدَ «ضارٌّ» مرةً واحدةً في القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٠] .

تُبينُ الآيةُ أنّ النجوى المحرّمة ، القائمة على الإثم والعدوانِ ومعصية الرسول ، سلاحٌ شيطانيٌّ ، يَستخدِمُه الشيطانُ ليوَقِعَ الحُزْنَ في نفوسِ المؤمنين ، ولكنَّ الشيطانَ عاجزٌ عن أَنْ يَضُرَّ أَحَدًا ، إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وإِرَادَتِهِ .

جملةُ ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قَصَرَتْ إِبْقَاعَ الضَّرِّ على إِذْنِ اللَّهِ سبحانه ، بأسلوبِ الحَصْرِ القائم على اجتماعِ النفي والاستثناء .

اسمُ ﴿ ليس ﴾ : ضميرٌ مستترٌ ، تقديرُه «هو» ، يَعوُدُ على الشيطان . و«ضارِّهم» مجرورٌ لفظاً ، منصوبٌ محلاً ، لأنّه خبرٌ ﴿ ليس ﴾ . والتقدير : ليس الشيطانُ ضارّاً أحداً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

الحالة الثانية : اسمُ فاعل جَمْعٍ «ضارون» :

وَرَدَ «ضارون» مرةً واحدةً في القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

الكلامُ في الآية عن السجرة اليهود الكفار ، الذين تَعَلَّمُوا السحرَ من

الملكين في بابل هاروت وماروت ، ولم يأخذوا بتحذيرهما لهم من ممارسة السحر والعمل به ، وكان هؤلاء اليهود يُفَرِّقُونَ بالسحر بين المرء وزوجه . وتُخْبِرُ الآيَةُ أنهم لم يَقْدِرُوا على إِصَالِ الضَّرِّ إلى أَيِّ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ .

جملة ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ جملة منفية . ﴿ مَا ﴾ فيها حرف مُشَبَّهٌ بالفعل ، تعملُ عملَ «ليس» . و ﴿ هُمْ ﴾ : ضميرٌ منفصلٌ في محلِّ رفع اسم «ما» ، يعودُ على اليهودِ السَّحَرَةِ . و ﴿ بِضَارِّينَ ﴾ : مجرورٌ لفظاً ، منصوبٌ محلاً لأنه خبر ﴿ مَا ﴾ . و ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ : مجرورٌ لفظاً أيضاً ، لكنه منصوب محلاً على أنه مفعولٌ به لاسم الفاعل «ضارين» . والتقديرُ : ليس السحرة ضارينَ أَحَدًا بالسحرِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ .

وفي ورود اسم الفاعل «ضار» في القرآن اللطائف والإشارات التالية :

١ - جاء اسمُ الفاعل مرةً مفرداً : «ضار» ، ومرةً جمعاً : «ضارون» .

٢ - جاء في الموضعين مسبوفاً بالنفي ؛ مرةً بفعل «ليس» ، الذي يعملُ عملَ «كان» : ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا ﴾ . ومرةً بحرف «ما» ، التي بمعنى «ليس» ، وتعملُ عملها : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ .

٣ - جاءت ﴿ إِلَّا ﴾ في الموضعين بعد اسم الفاعل ، لتدلَّ على معنى الحصر ، لأنَّ وَقُوعَ الاستثناءِ بعد النفي يدلُّ على الحصر .

أي أن اسمَ الفاعل «ضار» لم يرد في القرآن إلا في سياقِ الحصر ، ينفي قدرة أيِّ مخلوقٍ فاعلٍ على إيقاع الضرر بالآخرين ، إلا إذا أراد الله ذلك ! .

٤ - جاء في الموضعين مجروراً لفظاً بحرفِ الباء ، لكنه منصوبٌ محلاً ، لأنه خبرٌ «ليس» وخبرٌ «ما» العاملة عملها . وإدخالُ الباء عليه لمزيد من التوكيد .

٥ - ينفي القرآنُ قدرةَ أيِّ مخلوقٍ على إِصَالِ الضَّرْرِ بالآخرين ، إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ بِذَلِكَ . فالمخلوقُ سبب ، ولكنَّ المسببَ المريدُ هو اللهُ .

ج - المصدر «ضَرَّ» في القرآن :

اللطيف في التعبير القرآني أنه أورد أربعة مصادر من الثلاثي «ضَرَّ» ، وهي : ضَرَّ ، وَضَرَّرُ ، وَضُرَّ ، وَضَرَّاءُ .

فما هو السياق الذي وَرَدَ فيه كلُّ واحدٍ منها؟ وما هي الفروق بينها؟ .

١ - «الضَّرُّ» في القرآن :

وَرَدَ هذا المصدرُ عشرَ مراتٍ في القرآن :

جاء في مرةٍ واحدةٍ مرفوعاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴾ [الحج : ١٣] .

تَذمُّ الآيةُ الكافرَ ، الذي يدعو غيرَ الله ، ويطلبُ من غيرِ الله ، وتُخبرُ الآيةُ أَنَّ هذا المدعوَّ ليس عاجزاً عن النَّفْعِ والضَّرِّ فقط ، وإنما هو - إذا أَرَادَ أَنْ يَضُرَّ باعتبارِه سبباً - يكونُ ضَرُّهُ هو الأقربُ للدَّاعي من نفعه .

اللامُ في ﴿ لِمَنْ ضَرَّهُ ﴾ لامُ الابتداء . و ﴿ مَنْ ﴾ : اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، يُرادُ به الإلهُ المدعوُّ من دونِ الله . و ﴿ ضَرَّهُ ﴾ : مبتدأ مرفوع ، والهَاءُ في محلِّ جرٍّ مضافٍ إليه .

وقد نَفَتِ الآيةُ السابقةُ عن هذا المدعوِّ القدرةَ على النفعِ أو الضَّرِّ . قال تعالى : ﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ [الحج : ١٢] ، وهكذا تَلْتَقِي الآيتانِ على تجريدِ المخلوقين من القدرةِ على النَّفْعِ والضَّرِّ ، وإذا أَرَادُوا أَنْ يتحركوا فَإِنَّ تحركَهُم يكونُ لإيقاعِ ضَرٍّ ، وليس لجلبِ نَفْعٍ .

وجاءَ هذا المصدرُ منصوباً في المراتِ التسعِ الباقية ، مَسْبوقاً بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ ﴿ لَا يَمْلِكُ ﴾ ؛ أَي أَنَّ هذا المصدرَ كانَ منفيّاً ! .

- غيرَ الله لَا يَمْلِكُ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ [المائدة : ٧٦] .

- حتى رسولُ الله ﷺ لَا يَمْلِكُ لنفسِه دفعَ ضَرٍّ أو جلبَ نَفْعٍ ؛ قال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

- وإذا أراد الله أن يوقع الضرَّ بقوم فلا يقدرُ أحدٌ على إيقافِ ذلك ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح: ١١].

- وكلُّ المخلوقين ضِعفاءُ عاجزون ، لا يملكُ أحدٌ لنفسه أو لغيره تقديم نفع أو دفع ضرٍّ ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

- ويوم القيامة يقفُ كلُّ المخلوقين عاجزين عن الضرِّ والنفع ، قال تعالى : ﴿ فَأَلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [سبا: ٤٢].

واللافتُ للنظر أنَّ «الضرَّ» كان مسبقاً في المراتِ كُلِّها بالفعل المضارع المنفي: ﴿ لَا يَمْلِكُ ﴾ . ومقروناً مع مقابله «النفع» . . وكان الهدف تجريد كل المخلوقين من قدرة ذاتية على النفع والضرِّ ، وحصرَ هذا كله بيدِ الله وحده .

٢ - «الضرُّ» في القرآن :

الضرُّ: مصدرٌ ثانٍ ، مثلُ المصدرِ السابقِ في الصيغة ، إلا أنَّ المصدرَ السابقَ من بابِ المضَعَّف ، أُدغمت فيه الراءُ في الراءِ . وهذا المصدرُ مفكوكُ الإدغام .

«ضَرٌّ» السابقُ على وزنِ «فَعْلٌ» ، أمَّا «ضَرَرٌ» فإنه على وزنِ «فَعَلٌ» . ولم يرِدْ هذا المصدرُ إلا مرةً واحدةً في القرآن ، وهي في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء: ٩٥] . تُخبرُ الآيةُ عن عَدَمِ استواءِ القاعدين والمجاهدين ، لأنَّ المجاهدين أفضلُ وأكرمُ عندَ الله ، ونسبني من ذلك القاعدين بُعدُ ، وهم الذين أُصيبوا بالضرر ، كالعمى أو العرج أو المرَض .

ولهذه الجملة في الآية : ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ سببُ نزولِ لطفِ مؤثِّر .

قالَ كاتبُ الوحيِ زيدُ بنُ ثابتٍ رضي اللهُ عنه : أَملى عَلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١) فجاءه ابنُ أمِّ مكتوم ، وهو يُمليها عليَّ ، فقال: يا رسولَ الله! والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدْتُ! - وكانَ أعمى - . فأنزلَ اللهُ على رسولِهِ ﷺ ، وفخذهُ على فخذي ، فثقلتُ عليَّ ، حتى خفتُ أن ترَضَّ فخذي . ثم سُرِّي عنه . فأنزلَ اللهُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ﴾^(١) .

كانَ إنزالُ هذه الآيةِ على مرحلتين :

المرحلةُ الأولى : كانَ نَصُّها هكذا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ^(٢) . ولَمَّا أنزلتُ على النبيِّ ﷺ ، استدعى زيدَ بنَ ثابتٍ رضيَ اللهُ عنه ليكتبها . . وجلسَ زيدٌ إليَّ جانبَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وفخذهُ على فخذه ، ليكونَ قريباً منه ، لسمعَ منه .

المرحلةُ الثانية: فيها إضافةُ الجملةِ ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ﴾: وذلكَ أنه بينما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُملي عليَّ زيدِ الآيةَ سمعَهُ عبدُ اللهِ بنُ أمِّ مكتوم رضيَ اللهُ عنه ، وكانَ أعمى لا يقدرُ على الجهادِ ، وفهمَ من الآيةِ أنَّ المجاهدَ أفضلُ من القاعدِ . ولكنَّ فُعودَهُ هو عن الجهادِ ليس تخلفاً ، وإنما هو قعودٌ لا إراديٌّ .

فجاءَ النبيُّ ﷺ ليستوضحَ منه ، وقالَ له: لو كنتُ أستطيعُ الجهادَ لجاهدْتُ ، ولكنِّي رجلٌ أعمى .

فأنزلَ اللهُ جبريلَ عليه السلامَ ومعهُ هذه الجملةُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ﴾ ، وتَعَشَّى جبريلُ رسولَ اللهِ ﷺ ، واعترفَ زيدٌ رضيَ اللهُ عنه بأنَّ فخذهُ رسولِ اللهِ ﷺ كادتُ ترَضُّ فخذهُ من ثقلِ الوحي . . . ولما سُرِّي عن رسولِ اللهِ ﷺ أمرَ زيداً رضيَ اللهُ عنه أن يكتبَ الآيةَ بالجملةِ الجديدةِ التي أنزلها اللهُ ؛ وصارتَ الآيةُ هكذا: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾^(٣) .

﴿غَيْرُ﴾: نَعَتْ مرفوعٌ للفاعلِ قبلها ﴿الْقَاعِدُونَ﴾ . و ﴿أُولِي﴾: مضافٌ إليه ، وهو مضاف ، و ﴿الضَّرَرُّ﴾ مضافٌ إليه .

(١) البخاري ، برقم (٤٥٩٢) ؛ ومسلم ، برقم (١٥٠٨) .

وتدلُّ جملة ﴿عَبْرُ أُولَى الضَّرْرِ﴾ على الاستثناء .

وتذكرُ الآيةُ أَنَّ القاعدينِ نوعان :

- قاعدونَ بدونِ عُدْرٍ شرعيّ ، وهؤلاءُ مُخَلَّفونَ مُقَصَّرونَ ، مَحْرُومونَ من أَجْرِ الجهادِ ، هؤلاءُ لا يَسْتَوونَ مع المجاهدين .

- قاعدونَ بعُدْرٍ شرعيّ ، وهم أُولو الأضرارِ ، كالمرضى والعميانِ ، فهؤلاءُ أَقْعَدُهُم عُدْرُهُم ، رَغَمَ حماسِهِم للجهادِ . وهؤلاءُ مأجورونَ كالمجاهدين ، ويستونَ في منزلتِهِم مع المجاهدين .

نَعُودُ إلى المصدرِ بصورتَيْهِ : بالإدغامِ «الضَّرُّ» ، وبالفكِّ «الضَّرْرُ» .
ما الفرقُ بينَ الصَّفَتَيْنِ مع أَنَّ المصدرَ واحدٌ؟ .

- «الضَّرُّ» بالإدغامِ هو الضَّرُّ الآتي من طَرَفٍ خارجيٍّ ، وهو ضَرٌّ منفيٌّ ، ويُذَكَّرُ بجانيه مُقابلَه وهو «التَّنْفَعُ» ، وَيُسَبَقُ بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ «لا يَمْلِكُ» .

- أمَّا المصدرُ المفكوكُ «الضَّرْرُ» فإنه ضَرْرٌ داخليٌّ يُصِيبُ الإنسانَ من داخله ، وهو ضَرْرٌ لا إراديٍّ ، لأنَّه لا إرادةَ له ولا اختيارَ في كونه مريضاً أو أعمى ، والإنسانُ المُصابُ به يتمنّى لو يَزَالُ هذا الضَّرْرُ عنه .

لقد كانَ القرآنُ دقيقاً ومعجزاً في تفريقه بين المصدرِ المدغمِ «الضَّرُّ» ، والمصدرِ مفكوكِ الإدغامِ «الضَّرْرُ» . . وهذا دليلٌ على الإعجازِ البيانيِّ الرائعِ ، وعلى نَفْيِ الترادفِ بين الكلماتِ المتقاربةِ في القرآنِ .

٣- «الضَّرُّ» في القرآن :

هذا هو المصدرُ الثالثُ من الثلاثيِّ ، وهو على وَزْنِ «فُعَلٌ» . مثل : قُرْءٌ ، وجُرمٌ ، وفُحْشٌ . . وقد وَرَدَ هذا المصدرُ تسعَ عشرةَ مرةً في القرآنِ .

- كانَ في معظمِ هذه المَرَّاتِ مَسْبوقاً بالمسِّ ، الذي هو الوقوعُ والإصابةُ .
كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنَّ يُرَدِّكَ بِحَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس : ١٠٧] .

- قد يُسْبِقُ بِالْإِرَادَةِ ، كما في قوله تعالى : ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرَدِّنِ الرَّحْمَنُ بَصِيرًا لَا تَعْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ [يس: ٢٣].

- يَخْصُرُ الْقُرْآنَ كَشَفَ الضَّرَّ بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَيَنْفِي ذَلِكَ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]. وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا نُجُوتًا ﴾ [الإسراء: ٥٦].

- وَهَذَا الضَّرُّ مَسَّ نَبِيِّ اللَّهِ أَيُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَدَعَا رَبَّهُ طَالِبًا كَشَفَ ضُرَّهُ ، وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [٨٣-٨٤].

- وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الضَّرُّ مَعْرِفَةً مَكْرَرَةً ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْرَوْنَ ﴾ [٥٣-٥٤].

- وَقَدْ يَكُونُ نَكْرَةً ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر: ٨].

- وَمِنَ اللَّطَائِفِ وَرُودُ هَذَا الْمَصْدَرِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ ، هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وَاللَّطِيفُ أَيْضًا أَنَّ هَذَا الْمَصْدَرَ لَمْ يَأْتِ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ عَلَى صُورَةٍ وَحَالَةٍ خَاصَّةٍ :

- الْمَرَّةُ الْأُولَى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضَّرُّ دَعَانَا ﴾ ؛ كَانَ فَاعِلًا مُؤَخَّرًا لِفِعْلِ الشَّرْطِ ﴿ مَسَّ ﴾ ، وَقُدِّمَ عَلَيْهِ الْمَفْعُولُ بِهِ ﴿ الْإِنْسَانَ ﴾ . وَكَانَ مُعْرَفًا بِأَلِ التَّعْرِيفِ ، الدَّالَّةَ عَلَى الْاسْتِغْرَاقِ وَالشُّمُولِ .

- الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ﴾ ؛ كَانَ مَفْعُولًا بِهِ لِفِعْلِ ﴿ كَشَفْنَا ﴾ الْمُسْتَدِّ إِلَى اللَّهِ ، وَكَانَ مَعْرِفَةً بِالْإِضَافَةِ ، وَلَيْسَ بِأَلِ التَّعْرِيفِ .

- المرة الثالثة: ﴿مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ ؛ كان مجروراً بحرفِ الجَرِّ ، وكان نكرةً ، وكان موصوفاً بجملةٍ فعليةٍ ، وَوَقَعَ في شبه جملةٍ متعلّقةٍ بجوابِ الشرطِ .

والرائع في التعبيرِ القرآنيّ المعجز أنّ الضَّرَّ في الآيةِ شملَ حالاتِ الإعرابِ الثلاثةِ وجاءَ فيها على الترتيب: مَرْفوعاً وَمَنْصُوباً وَمَجْرُوراً ، وشملَ نوعي المعرفة: المعرفةُ بِأَلِ التعريفِ «الضَّرَّ» ، والمعرفةُ بِالإِضَافَةِ «ضُرَّهُ» ، وشملَ الأسلوبَيْنِ البَيَانِيَيْنِ: التعريفَ والتنكيرَ !! .

أبعدَ هذا يأتي أناسٌ من أهلِ الغَبَاءِ وَيَتَّهِمُونَ الْقُرْآنَ بِالتَّكْرَارِ !! .

٤ - «الضَّرَاءُ» في القرآن:

«ضَرَاءٌ»: هو المصدَرُ الرَّابِعُ لِلثَّلَاثِيّ ؛ وهو على وَزْنِ «فُعَلَاءٌ» ، وهو ممنوعٌ مِنَ الصَّرْفِ ، لأنّه ينتهي بِالْأَلْفِ الممدودةِ .

و«ضَرَاءٌ» ليس مرادفاً لِلضَّرِّ ، لأنَّ الضَّرَّ ثلاثةُ أَحرفٍ ، وَالضَّرَاءُ خَمسةُ أَحرفٍ ، وزيِدَ على ثَلَاثِيَّتِهِ حَرْفاً الألفِ والهمزة . وَالضَّرُّ في الضَّرَاءِ أَكثَرُ منه في الضَّرِّ ؛ لأنَّ القاعِدةَ تُقرِّرُ أَنَّ زيَادَةَ المَبْنِي تَدُلُّ على زيَادَةِ المَعْنَى ، بِمَعْنَى أَنَّهُ كَلِّمًا زيِدَ في حُرُوفِ الكَلِمَةِ زيِدَ في مَعْنَاهَا .

وقد وَرَدَ «ضَرَاءٌ» تسعَ مرّاتٍ في القرآنِ .

وهو لم يُدَكَّرْ في القرآنِ إِلا في مَقَابِلِ وَضَعِ آخِرِ يُقَابِلِهِ ، مثلُ: السَّرَاءِ ، وَالنَّعْمَاءِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَأْسَاءِ .

- ذَكَرَ مُقَابِلاً لمصطلحِ السَّرَاءِ في مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝۱۳۳ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكُفْرِ وَالْأَلْفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۝۱۳۴﴾ [آل عمران: ١٣٤] . المتقون يُنْفِقُونَ في الحَالَتَيْنِ: السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ . وَالسَّرَاءُ هِيَ السُّرُورُ وَالبركةُ وَسَعَةُ الأموالِ ، وَالضَّرَاءُ تُقَابِلُهَا ، وَهِيَ الإِصَابَةُ بِالضَّرِّ وَسُوءِ الحَالِ وَقِلَّةِ المَالِ .

- وَذَكَرَ مُقَابِلاً لمصطلحِ النَّعْمَاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْتَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ

ضَرَاءٌ مَسْتَهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ . . والتَّعْمَاءُ هي حالة النعمة والخير ، المقابلة لحالة الضراء والسوء .

ويلاحظُ أَنَّ ﴿ ضَرَاءٌ ﴾ هنا ممنوعةٌ من الصرف ، فهي مُضَافٌ إليه مجرورٌ بالفتحة .

- وَذُكِرَ مُقَابِلًا لمصطلح الرحمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنَّا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهُمْ إِذَاهُم مَّكْرُفًا أَيَانًا ﴾ [يونس: ٢١] .

- وَذُكِرَ مُقَابِلًا لمصطلح البأساء في قوله تعالى : ﴿ وَالصَّادِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

- وَذُكِرَ فِي آيَتَيْنِ متتابعتين ، قُدِّمَ عليه مصطلحُ ﴿ الْبِئْسَاءِ ﴾ في الآية الأولى ، وَذُكِرَ بَعْدَهُ مصطلحُ ﴿ السَّرَّاءِ ﴾ في الآية الثانية ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥] .

وَنَدْعُو إِلَى ملاحظةِ حكمةِ تقديمِ البِئْسَاءِ على الضَّرَّاءِ عند الكلام على الابتلاء ، وحكمةِ تقديمِ الضَّرَّاءِ على السَّرَّاءِ عند الكلام على العقاب ، وحكمةِ العدولِ عن البِئْسَاءِ إلى السَّرَّاءِ في الآية الثانية .

أهمُّ الفروقِ بين المصادرِ الأربعة :

بعدَ هذا الاستعراضِ السريعِ لورودِ المصادرِ الأربعةِ في القرآنِ : ضَرٌّ ، وَضَرٌّ ، وَضُرٌّ ، وَضُرٌّ ، نُسَجَلُ فيما يلي أهمُّ الفروقِ بينها :

١ - الضَّرُّ: بالفتح والإدغام: ضَرٌّ خارجيٌّ خاصٌّ ، ولم يُدَكَّرْ إلا مع مقابله ، وهو «التَّعْمُ» ، وكانَ مسبوقاً بالفعلِ المنفيِّ «لا يَمْلِكُ» . وهو منفيٌّ عن غيرِ الله ، لأنَّه بيدَ اللهِ وَحْدَهُ .

٢ - الضَّرُّرُ: بالفتح وفكَّ الإدغام: ضَرَّرُ داخليٌّ ، يُصِيبُ الإنسانَ من داخله في جسمه ، وهو ضَرَّرُ لا إراديٌّ ، والمصابُ مَعذُورٌ شرعاً .

٣ - الضُّرُّ: بالضمِّ: ضُرٌّ يُدَكَّرُ في القرآنِ بدونِ مقابله ، فلم يُدَكَّرْ معه في

القرآن نَفَعُ ولا غَيْرُهُ ، وكان مَقْرُوناً بالفعل «مَسَّ» ، والمَسُّ هو الإِصابة .
ولذلك كان هذا الضَّرُّ أَشَدَّ من الضَّرِّ بالفتح ، وكان أَكْثَرَ إِيلاماً وإِصابةً ،
وهو مُجَرَّدٌ عن غيرِ الله ، ولا يكونُ إِلا بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ .

٤ - الضَّرَاءُ: مصدرٌ مُؤَنَّثٌ لَفْظاً ، لأنه مختومٌ بِأَلِفٍ ممدودةٍ بعدها
همزة ، ولهذا كان مَمْنوعاً من الضَّرْفِ . والضَّرُّ والسوءُ والأذى فيه أَكْثَرُ ،
لكثرةِ حروفِهِ زيادةً على المصادرِ السابقة ، ولم يَدْكُرْ في القرآنِ إِلا مَقْرُوناً
بالحالَةِ المِقابِلَةِ ، مثلُ السَّرَاءِ والبِأْسَاءِ والتَّعْمَاءِ .

لم تأتِ هذه المصادرُ الأربعةُ مترادفةً ولا مكررةً في القرآن ، مع أنها كلها
مصادرٌ من الثلاثي ، وكلُّ مصدرٍ منها جاءَ في سياقٍ خاصٍّ ، وفي حالةٍ
خاصَّةٍ ، ولمعنى خاصٍّ ، ودلالةٍ خاصةٍ .

وهذا دليلٌ واضحٌ على الدَقَّةِ القرآنيةِ المعجزة ، في اختيارِ القرآنِ الكلمةَ
المناسبة في مكانها المناسب ، بحيث لا تُغني عنها ولا تُسَدُّ مَسَدَها كلمةٌ
أُخرى ، ولو كانت من نفسِ المادَّةِ ، وبِنفسِ الصيغةِ ، واختلقت عنها في
بعضِ الحركاتِ .

وسبحانَ الله العظيم مُنَزَّلَ هذا القرآنِ الكريمِ المعجز!! .

ثانياً: مع الفعل الرباعي «ضارَّ» في القرآن:

«ضارَّ»: فعلٌ رباعيٌّ على وزنِ «فاعِلٌ» . الثلاثيُّ منه «ضَرَّ» ، على وزنِ
«فَعَلٌ» ، فلما زيدت عليه الألف صارَ «ضارَّ» . وأصلُه «ضارَرَّ» ، ولما أدغمت
الرَّاءُ في الرَّاءِ صارَ «ضارَّ» . والمدُّ مدٌّ لازمٌ كَلِمِيٌّ مُثَقَّلٌ ، يَمُدُّ سِتَّ حَرَكَاتٍ
وجوباً .

والألفُ فيه أَلِفٌ المِفاعِلَةُ ، وتَدُلُّ إِما على المِشاركة ، مثلُ: قاتَلَ ،
وضارَبَ ، وإِما على التأكيدِ مثلُ: عالَجَ وجانَبَ .

وقد وَرَدَ هذا الفعلُ في القرآنِ على ثلاثِ صِبيغٍ:

الأولى: الفعلِ المضارعِ: «يُضارُّ» .

الثانية: المصدرِ: «ضِرارٌ» .

الثالثة : اسمُ الفاعل : «مُضَارٌ» .

وفيما يلي وقفنا التحليلية أمام هذه الصيغ الثلاثة :

أ- الفعل المضارع «يُضَارُ» في القرآن :

وَرَدَ الفعلُ المضارعُ «يُضَارُ» ثلاثَ مراتٍ في القرآن ، وفي ما يلي بيئناها :

١- الفعلُ المضارعُ «تُضَارُ» في القرآن :

وَرَدَ هذا الفعلُ مرَّةً واحدةً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدَةٌ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

الكلامُ في الآية عن الوالدات المطلقات ، لأنَّ الآياتِ السابقة عَرَضَتْ بعضَ أحكامِ الطَّلَاقِ ، وتُخْبِرُ الآيةُ أَنَّ الوالِدَةَ المَطْلُوقَةَ لها الحَقُّ أَنْ تُرْضِعَ وَلَدَهَا سَتَيْنِ كَامِلَيْنِ ، وَأَنْ تَأْخُذَ أُجْرَتَهَا من زوجها الذي طَلَّقَهَا . . . وَيَجِبُ على الزوج المطلق - وَصَفَتْهُ الآيةُ بأنه المولود له لأنه والدُ الطفلِ الذي سَيُنْسَبُ له - أَنْ يُعْطِيَ امرأته المطلقَةَ رِزْقَهَا وكِسْوَتَهَا بالمعروفِ مقابلِ إرضاعها ولَدَها - الذي هو ابنُه . -

جملة ﴿ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ جملةٌ تعليليةٌ ، تُعَلِّلُ الأحكامَ السابقةَ المتعلقةَ بالرِّضَاعِ ، فَاللهُ شَرَعَ الأحكامَ ، وَأَمَرَ الزوجَ أَنْ يُعْطِيَ امرأته المطلقَةَ أُجْرَتَهَا بالمعروفِ مقابلِ إرضاعها لابنِه ، لأنه لا يكلف اللهُ نفساً إلا وُسْعَهَا .

وجملة ﴿ لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدَةٌ ﴾ جملةٌ تعليليةٌ أخرى ، ولذلك جاءت استثنائيةٌ ، ولم تُعْطَفْ على ما قبلها ، واعتُبرتْ جملةً مستقلةً ، رغم ارتباطها البيانيِّ مع ما قبلها وما بعدها .

والحكمُ الذي تُقَرِّرُهُ هذه الجملةُ أنه لا يجوزُ للزوج أن يوقعَ الضَّرَرَ والأذى بامرأته المطلقَةَ ، بسببِ محبَّتِها لولَدِها وحنانِها عليه ، فيظلمها ويُعطيها أقلَّ من حَقِّها . . . كما أنه لا يجوزُ للمرأة أن توقعَ الضَّرَرَ في مُطْلَقِها ، وتستغلَّ حِرْصَه على ابنِه ، فتطلبُ أكثرَ من حَقِّها .

وقبلَ أَنْ نتحدَّثَ عن معنى ودلالةِ الفعل ﴿تُضَاكَرَ﴾ نتكلَّمُ عن القراءاتِ العشريةِ الصحيحةِ في الفعلِ :

ثلاث قراءات في الفعل :

في فعل ﴿تُضَاكَرَ﴾ ثلاث قراءاتٍ عشريةٍ صحيحة :

الأولى : قراءةٌ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف : ﴿لَا تُضَاكَرُ﴾ ، بفتح الرَّاءِ المُشدَّدةً .

على أَنَّ ﴿لَا﴾ : ناهية . و ﴿تُضَاكَرُ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بلا الناهية ، وعلامةُ جزمه السكون .

والفعلُ مبنيٌّ للمجهول ، على وَزْنِ «تُفَاعَلُ» بضمِّ أوَّلِهِ ، وفتح ما قبلِ آخِرِهِ . وأصلُ الفعلِ «تُضَارَرُ» بفتح الرَّاءِ الأولى وضمِّ الرَّاءِ الثانيةِ ؛ وأبدلت فتحه الرَّاءِ الأولى بسكون ، ليصحَّ إدغامُها بالرَّاءِ الثانيةِ ، فصارَ الفعلُ «تُضَاكِرُ» ، بضمِّ الرَّاءِ المُشدَّدة . ولما أدخلت عليه ﴿لَا﴾ الناهية جزمته ، فاجتمعَ عندنا حرفاراء ساكنان ، الرَّاءِ الأولى ساكنةٌ للإدغام ، والرَّاءِ الثانيةُ ساكنةٌ للجزم : «لا تُضَارَرُ» ، فأدغمت الرَّاءِ الأولى بالرَّاءِ الثانيةِ ، وحُرِّكَتِ الرَّاءُ بالفتحةِ لأنها أخفُّ الحركات ، فصارَ ﴿تُضَاكَرُ﴾ . و ﴿وَلِدَةٌ﴾ : نائبُ فاعلٍ مرفوع .

الثانيةُ : قراءةُ أبي جعفر المدني : «لا تُضَارُ» . على أَنَّهُ ليسَ من الفعلِ الماضي الرباعي «ضَارَ» ، وإنما من الفعلِ الماضي الثلاثي «ضَارَ» بتخفيفِ الرَّاءِ ، الذي مضارعُه «يُضِيرُ» ، وعندما يُبنى المضارعُ للمجهول يصيرُ «يُضَارُ» بضمِّ الرَّاءِ ، وعندما يُجزمُ بلا الناهية يصيرُ «يُضَارُ» . والضَّيْرُ هو الأذى .

والمعنى على قراءةِ أبي جعفر : لا يوقع الضَّيْرُ والأذى والظلمُ على المرأةِ بسببِ ولدها .

الثالثةُ : قراءةُ أبي عمرو وابن كثير ويعقوب : «لا تُضَاكِرُ» بضمِّ الرَّاءِ . على أَنَّ ﴿لَا﴾ حرفٌ نفي . و«تضَاكِرُ» : مضارعٌ مرفوعٌ ، أدغمت فيه الرَّاءُ في الرَّاءِ .

والجملة المنفية: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةَ بَوْلِدِهَا﴾ على هذه القراءة خَيْرٌ ، يُخْبِرُ اللهُ فيها أَنَّ الوالدة المطلقة لا يوقَعُ عليها الضَّرَرُ بسببِ ولِدِهَا . ولكنه خَيْرٌ في معنى النَّهْيِ ، فكأنه نهى عن إيقاع الضَّرَرِ بالوالدة بسببِ ولِدِهَا .

وبذلك تلتقي القراءات الثلاث على النهي عن إيقاع الضَّرَرِ والأذى بالوالدة ، بسببِ مَحَبَّتِهَا لولِدِهَا ، وإشفاقها عليه .

والسؤال الذي يطرح الآن: هل فعل ﴿تُضَارُّ﴾ مبني للمعلوم ، أو مبني للمجهول ، وهل ﴿لَا﴾ الداخلة عليه نافية أو ناهية؟ .

اللطيف والرائع في التعبير القرآني المعجز أَنَّ الجملة تحتمل الاحتمالين ، وَأَنَّ صياغة فعل «تُضَارُّ» عجيبة ، تجعل كلاً من الاحتمالين صحيحاً!! .

في ﴿لَا﴾ قولان:

الأول: أنها حرفٌ نفي . والفعل بعدها مرفوع ، وهذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب . وعلى هذا القول تكون الجملة خبرية ، يُخْبِرُ اللهُ فيها أَنَّ الوالدة المطلقة لا تُضَارُّ بسببِ ولِدِهَا .

الثاني: أنها حرفٌ نهى . والفعل المضارع بعدها مجزومٌ بها ، وأدغمت الراء بالراء ، لَأَنَّ الأولى ساكنة للإدغام ، والثانية ساكنة للجزم «تُضَارُّزُ» وحُرُوكٌ بالفتحة لأنها أَحَفُّ الحركات . وهذا على قراءة نافع وعاصمٍ وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف .

والمعنى على هذا القول: يَنْهَى اللهُ عن إيقاع الضَّرَرِ بالوالدة بسببِ ولِدِهَا .

ولا نُرجِّحُ أَحَدَ القولين على الآخر ، لَأَنَّ كلَّ قولٍ مبني على قراءة صحيحة ، فعند ثلاثة من القراء العشرة تكون ﴿لَا﴾ نافية والفعل مرفوع ، وعند ستة منهم تكون ﴿لَا﴾ ناهية ، والفعل مجزوم . . ومعلوم أنه لا يجوز ترجيحُ قراءة صحيحة على قراءة أخرى صحيحة ، لَأَنَّ كلاً منهما أنزلها الله .

لكنَّ القولين يلتقيان في النهاية . فعلى أَنَّ ﴿لَا﴾ ناهية ، تكون الجملة نهياً

صريحاً عن الضَّرَر ، وعلى أَنَّ ﴿لَا﴾ نافية ، تكونُ الجملةُ نهيًا ضمناً عن الضَّرَر ، لأنَّ الخَبَرَ فيها بمعنى النهي .

قولان في صياغة الفعل :

وفي صياغة الفعل «تضار» قولان :

الأول: أنه مبني للمعلوم . وأصله «تضارز» ، بكسر الراء الأولى ، وتسكين الراء الثانية بسبب الجزم ، وهو على وَزْنِ «تفاعل» . و﴿وَالِدَةٌ﴾ : فاعلٌ مرفوع . والمفعولُ به محذوف ، والمرادُ به زوجها الذي طلقها . والتقديرُ : لا تضارزُ والدةٌ زوجها بسبب ولدها .

وسكنت الراء الأولى للإدغام ، وسكنت الراء الثانية بسبب الجزم ، وأدغمت الراء في الراء ، وحركت الراء المدغمة بالفتحة لأنها أخفُ الحركات ، فصارت الفعلُ ﴿تضارز﴾ ! .

الثاني: أنه مبني للمجهول ، وأصله «تضارز» ، لأنَّ الفعلَ الرباعيُّ يُبنى للمجهولِ بضمٍّ أوَّلِهِ وفتح ما قبل آخره . و﴿وَالِدَةٌ﴾ : نائبُ فاعل . وعندما يُبنى الفعلُ للمعلوم يكون التقدير : لا يضارزُ والدٌ والدةٌ بولدها . وصارَ بعدَ بنائه للمجهولِ : ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ﴾ .

والراجحُ أَنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمجهول ، وأنَّ الراءَ الأولى مفتوحة : «لا تضارز» ، وأنَّ ﴿وَالِدَةٌ﴾ نائبُ فاعل . هذا هو الراجحُ ليتناسقَ مع ما قبله : ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ . ولتجاوَرَ الفعلانِ المضارعانِ المبنيانِ للمجهولِ : ﴿لَا تُكَلِّفُ﴾ و﴿لَا تُضَارُّ﴾ .

وجملةُ ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ﴾ : معطوفةٌ على جملةِ ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا﴾ على نية تكرارِ الفعلِ في الجملةِ الثانية . فكأنهما جملتانِ فعليتانِ : لا تضارزُ والدةٌ بولدها ، ولا يضارزُ مولودٌ له بولده .

الباءُ في ﴿بِوَالِدِهَا﴾ و﴿بِوَالِدِهِ﴾ باءُ السببية . والمرادُ بكلمةِ ﴿مَوْلُودٌ لَهُ﴾ والدُ الولدِ الذي طَلَّقَتْ أُمُّهُ .

واللطيفُ في الجملتينِ المتعاطفتينِ : ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ

يُولَدُهُ ﴿﴾ أَنَّ اللَّهَ نَهَى أَيَّ وَاحِدٍ مِنَ الْوَالِدَيْنِ عَنْ أَنْ يُوَقَعَ الضَّرَرَ بِالطَّرْفِ الْآخَرَ
بسبب الولد.

في الجملة الأولى: يَنْهَى اللَّهُ الْوَالِدَ عَنْ إِيقَاعِ الضَّرْرِ وَالسُّوءِ بِالْوَالِدَةِ.
مَسْتَعْلًا حَنَانَهَا عَلَى وَلَدِهَا ، بَأَنْ يَظْلَمَهَا وَيُعْطِيهَا أَقْلًا مِنْ حَقِّهَا: ﴿﴾ لَا تُضَاكِرُ
وَالِدَةَ يُولَدُهَا ﴿﴾ .

وفي الجملة الثانية: يَنْهَى اللَّهُ الْوَالِدَةَ عَنْ إِيقَاعِ الضَّرْرِ بِالْمَوْلُودِ لَهُ ،
مَسْتَعْلَةً حَرَصَهُ عَلَى وَلَدِهِ ، بَأَنْ تَظْلَمَهُ وَتَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهَا: ﴿﴾ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ
يُولَدُهُ ﴿﴾ .

و ﴿﴾ مَوْلُودٌ ﴿﴾: اسْمٌ مَفْعُولٌ ، وَهُوَ نَائِبٌ فَاعِلٌ لِفِعْلِ مُقَدَّرٍ ، وَالتَّقْدِيرُ:
وَلَا يُضَاكِرُ مَوْلُودًا لَهُ بَوْلَدِهِ .

وَاللَّطِيفُ أَنَّ فِعْلَ ﴿﴾ لَا تُضَاكِرُ ﴿﴾ مُؤَنَّثٌ بِالتَّاءِ فِي أَوَّلِهِ ، لِأَنَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ
﴿﴾ وَالِدَةٌ ﴿﴾ مُؤَنَّثٌ تَأْنِيثًا حَقِيقِيًّا ، وَأَنَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ الْمَذْكَرَ ﴿﴾ مَوْلُودٌ لَهُ ﴿﴾ عُطِفَ
عَلَى نَائِبِ الْفَاعِلِ الْمَوْثُوثِ ، وَلَمْ يَكْرُرْ فِعْلُهُ ، وَلَوْ كُرِّرَ فِعْلُهُ لَكَانَ مَذْكَرًا ،
وَلَكَانَ التَّقْدِيرُ: لَا تُضَاكِرُ وَالِدَةَ بَوْلَدِهَا ، وَلَا يُضَاكِرُ مَوْلُودًا لَهُ بَوْلَدِهِ .

وَالْقَاعِدَةُ أَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ اسْمَانِ مَذْكَرٌ وَمَوْثُوثٌ ، وَعُطِفَ أَحَدُهُمَا عَلَى
الْآخَرِ ، كَانَ حَكْمُ الْفِعْلِ لِلْسَّابِقِ مِنْهُمَا ، فَإِنْ قُدِّمَ الْفَاعِلُ الْمَذْكَرُ ذَكَرَ الْفِعْلُ:
تَقُولُ: جَاءَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ . وَإِنْ قُدِّمَ الْفَاعِلُ الْمَوْثُوثُ أَنْتَ الْفِعْلُ ، تَقُولُ:
جَاءَتِ الْمَرْأَةُ وَالرَّجُلُ !! .

فَأَنَّتَ الْفِعْلُ ﴿﴾ لَا تُضَاكِرُ ﴿﴾ لِأَنَّ نَائِبَ الْفَاعِلِ مُؤَنَّثٌ ﴿﴾ وَالِدَةٌ ﴿﴾ . وَعُطِفَ
نَائِبُ الْفَاعِلِ الْمَذْكَرُ ﴿﴾ مَوْلُودٌ ﴿﴾ عَلَى نَائِبِ الْفَاعِلِ الْمَوْثُوثِ .

وَعَلَى ضَوْءِ هَذَا الْبَيَانِ فَإِنَّ الْمَفَاعِلَةَ فِي ﴿﴾ لَا تُضَاكِرُ ﴿﴾ ، وَالْمَتَمَثِّلَةَ فِي
الْأَلْفِ ، تَكُونُ لِلْمُشَارَكَةِ ، وَلَيْسَ لِلتَّأْكِيدِ ، وَهَذِهِ الْمَشَارَكَةُ بَيْنَ الْوَالِدَيْنِ ،
بِمَعْنَى أَنَّ الْوَالِدَةَ لَا تَضُرُّ الْوَالِدَ ، وَالْوَالِدَ لَا يَضُرُّ الْوَالِدَةَ .

وَاللَّطِيفُ أَنَّ صِيَاغَةَ الْفِعْلِ ﴿﴾ لَا تُضَاكِرُ ﴿﴾ الْمَعْجِزَةَ جَعَلْتَهُ عَلَى صُورَةٍ ،
يَدْخُلُ فِيهَا اِحْتِمَالُ كَوْنِهِ مَبْنِيًّا لِلْمَعْلُومِ وَمَا بَعْدَهُ فَاعِلٌ . وَاحْتِمَالُ كَوْنِهِ مَبْنِيًّا
لِلْمَجْهُولِ ، وَمَا بَعْدَهُ نَائِبٌ فَاعِلٌ . وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ الْإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ الْقُرْآنِيِّ .

٢- الفعل المضارع «يُضَارُّ» في القرآن :

قال تعالى في آية الدين - أطول آية في القرآن - : ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ينهى الله في هذه الجملة عن أَنْ يُضَارَّ كاتبٌ يكتبُ الدَّينَ ، أو أَنْ يُضَارَّ شهيدٌ ، يشهدُ على الدين .

وفي ﴿وَلَا يُضَارُّ﴾ قراءتان :

الأولى : قراءة أبي جعفر المدني : «لا يُضَارُّ» بسكونِ الرَّاءِ المَحْفَافَةِ . على أَنَّ «لا» حرفٌ نَهْيٌ . و«يُضَارُّ» : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بـ«لا» الناهية . و«كاتبٌ» : نائبٌ فاعلٌ .

وعلى هذه القراءة : «يُضَارُّ» : فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمجهول . والماضي منه ثلاثي ، هو «ضَارٌّ» . تقول : ضَارَّ ، يَضِيرُ ، ضَيْرًا . والضَّيْرُ هو الأذى .

الثانية : قراءة التسعة : نافع وعاصم والكسائي وحمزة وابن كثير وابن عامر وأبي عمر ويعقوب وخلف : ﴿لا يُضَارُّ﴾ بالراءِ المشدَّدةِ المفتوحة .

وعلى هذه القراءة تكونُ ﴿لا﴾ : ناهية . و﴿يُضَارُّ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزوم ، أصله «يُضَارُّزُ» سَكَّنَتِ الرَّاءُ الأُولَى لِأَجْلِ الإِدْغَامِ ، وَسُكِّنَتِ الرَّاءُ الثَّانِيَةُ لِأَجْلِ الجَزْمِ ، ثم حُرِّكَتِ الرَّاءُ بِالْفَتْحَةِ ، لِأَنَّهَا أَسْهَلُ الحَرَكَاتِ ، فَضَارَّ الفِعْلُ ﴿يُضَارُّ﴾ .

وهل ﴿يُضَارُّ﴾ مبنيٌّ للمعلوم أو مبنيٌّ للمجهول؟ :

في ذلك قولان :

الأول : أنه مبنيٌّ للمعلوم ، والراءُ فيه مكسورة ، أصله «يُضَارُّزُ» ، على وَزْنِ «يفاعل» ، أدغمتِ الرَّاءُ بالراءِ ، بسببِ الإِدْغَامِ والجَزْمِ ، وحُرِّكَتِ الرَّاءُ بِالْفَتْحِ ، فَضَارَّ ﴿يُضَارُّ﴾ . و ﴿كَاتِبٌ﴾ : فاعلٌ . والمفعولُ به محذوفٌ . والتقديرُ : لا يُضَارُّ كاتبٌ صاحبُ الدَّيْنِ . . . والواوُ في ﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾ : حرفٌ عطفٌ . و﴿لا شَهِيدٌ﴾ : معطوفةٌ على الفاعلِ المرفوعِ ﴿كَاتِبٌ﴾ ، على نِيَّةِ

تكرير الفعل ، والتقدير: لا يُضَارُّ كاتبُ صاحبِ الدِّينِ ، ولا يُضَارُّ شهيدُ صاحبِ الدِّينِ .

والمعنى على هذا القول: يَهَيءُ اللهُ كاتبَ الدِّينِ ، وينهى الشاهدَ على الدِّينِ ، عَن أَنْ يوقِعَا الضَّرَّ والسوءَ بصاحبِ الدِّينِ أو بالمدينِ .

الثاني: أنه مبنيٌّ للمجهول ، والراءُ فيه مفتوحة ، أَصْلُهُ «يُضَارُّ» على وزن «يُفَاعَلُ» ، و ﴿كَاتِبٌ﴾: نائبُ فاعل . و ﴿شَهِيدٌ﴾: معطوف عليه . والتقدير: لا يُضَارُّ كاتبٌ ، ولا يُضَارُّ شهيدٌ . أي: لا يُضَارُّ الدائنُ أو المدينُ كاتباً أو شهيداً . ولما حُذِفَ الفاعلُ وُبنيَ الفعلُ للمجهولِ ، صارت الجملةُ: لا يُضَارُّ كاتبٌ ولا شهيدٌ .

والنهيُّ على هذا القولِ مُوجَّهٌ للدائِنِ والمدينِ وغيرِهما ممن لهم صِلَةٌ بالدِّينِ ، من أَنْ يوقِعَ أَحَدُهُم الضَّرَرَ بالكاتبِ الذي كَتَبَ الدِّينَ ، أو بالشهيدِ الذي يَشْهَدُ على الدِّينِ . وَأَلْفُ المفاعلةِ في ﴿يُضَارُّ﴾ على هذينِ القولينِ تكونُ على ظاهرِها ، وهو المشاركة .

واللطيفُ الرائعُ في التعبيرِ القرآني صياغةُ الفعلِ ﴿يُضَارُّ﴾ لِتَحْتَمِلَ القولينِ ، وذلك ليوَجَّهَ النهيُّ إلى الطرفين :

فإنَّ كَانَ الفعلُ مبنياً للمعلومِ كان النهيُّ موجَّهاً للكاتبِ والشهيدِ ، من أَنْ يوقِعَ أَحَدُهُمَا الضَّرَرَ والأذى بالدائِنِ أو المدينِ . ويكونُ المفعولُ به محذوفاً . والتقدير: لا يُضَارُّ كاتبٌ ولا شهيدٌ الدائنُ أو المدينِ .

وإنَّ كَانَ الفعلُ مبنياً للمجهولِ كان النهيُّ موجَّهاً للدائِنِ والمدينِ عن أَنْ يوقِعَ أَحَدُهُمَا الضَّرَرَ بالكاتبِ أو الشهيدِ .

وسبحانَ اللهُ العظيمِ ، مُنْزِلِ هذا القرآنِ الكريمِ المعجزِ ، الذي لا تَقْضِي عَجَائِبُهُ !! .

٣- الفعل المضارع «تُضَارُّوهُنَّ» في القرآن :

قال اللهُ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَرَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] .

الكلام في الآية عن الحقوق التي للمطلقة طلاقاً رجعيّاً على مُطلِّقها ؛
وهي التي طُلِّقت الأولى أو الطلقة الثانية .

إنَّ لها على مطلقها السكنى والنفقة حتى تنتهي عدتها . . . ويأمرُ الله الزوجَ
المطلقَ أَنْ يُسكِنَ مطلقته أثناءَ عدتها حيثُ يسكن ، ويتركُ تقديرُ مستوى
المسكنِ لحالته المادية ، حسبَ وُجدهِ وقُدْرتهِ ، كما يأمرُه أَنْ يُنفقَ عليها أثناءَ
سكناها ، حتى تنتهي عدتها ، وإن كانت حاملاً أسكنها وأنفقَ عليها حتى
تضع حملها ، لأنَّ عِدَّةَ الحاملِ تنتهي بالوضع ، مهما كان طلاقها . ولها بعدَ
الوضع أجرَةُ الإرضاع ، إن أَرْضَعَتْ ولده : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وأثناءَ تقريرِ هذه الأحكامِ الدقيقة تلتفتُ الآيةُ للأزواجِ المطلقينَ لنتهاهم
عن إيقاعِ الضررِ بالمطلقات ، وهم يدفعونَ لهنَّ حقوقهنَّ : ﴿ وَلَا نُضَارُوهُنَّ
لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ .

الواوُ في ﴿ وَلَا نُضَارُوهُنَّ ﴾ : حرفُ عطفٍ ، وجملةٌ ﴿ لَا نُضَارُوهُنَّ ﴾ :
معطوفةٌ على جملةٍ ﴿ أَسْكُوهُنَّ ﴾ . وجازَ عطفُ جملةِ النهيِ على الأمرِ لأنَّ كلاً
منهما طلبٌ ، الأولى طلبُ الإسكان ، والثانية طلبُ عدمِ الإضرارِ .

﴿ لَا ﴾ : حرفُ نهيٍ وجزم . و ﴿ نُضَارُوهُنَّ ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ بحذفِ
النونِ ، لأنَّه من الأفعالِ الخمسة ، أصلُه «نُضَارُونَهُنَّ» ، والواوُ فاعلٌ يعودُ
على الأزواجِ المطلقينِ ، و «هُنَّ» : مفعولٌ به يعودُ على المطلقاتِ
المعتداتِ ! .

واللامُ في ﴿ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ : للتعليلِ . و ﴿ ضَيِّقُوا ﴾ فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ
بـ«أَنَّ» مضمرة بعدَ لامِ التعليلِ ، وعلامةُ نصبه حذفُ النونِ ، والواوُ فاعلٌ ،
والمصدرُ في محلِّ جرٍّ باللامِ . والتقديرُ : لا تُضَارَوهُنَّ للتضييقِ عليهن .

وفعلٌ ﴿ نُضَارُوهُنَّ ﴾ مبنيٌّ للمعلوم ، ولا يصحُّ أَنْ يكونَ مبنياً للمجهولِ ،
لأنَّه نصبٌ مفعولاً به ، وهو الضميرُ المتَّصلُ : «هُنَّ» .

وهذا المصدرُ ﴿ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ ليس قيداً على تحريمِ الإضرارِ ، بمعنى أنه
لا يحرمُ الإضرارُ إلا إذا كانَ للتضييقِ عليهن .

إِنَّ الإِضْرَارَ بِالْمُطَلَّقاتِ حَرَامٌ سِوَاءَ بِقَصْدِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِنَّ أَمْ لَا ، وَسِوَاءَ نَتَجَّ عَنْهُ التَّضْيِيقُ عَلَيْهِنَّ أَمْ لَا ، وَذَكَرَ الْمَصْدِرُ ﴿لِضَيْقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ للإِشارةِ إِلَى أَنَّهُ هُوَ الْغالبُ مِنْ صُورِ وَحالاتِ الإِضْرارِ ؛ فَالأَزْواجُ يُضارُونَ مُطَلَّقاتِهِمْ بِهَدَفِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِنَّ ، لِتِنازُلِنَ عَنْ بَعْضِ حَقُوقِهِنَّ عَلَيْهِمْ .

وَاللَّطِيفُ فِي فِعْلِ ﴿نُضَّارُوهُنَّ﴾ أَنَّهُ لَا يُمكنُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَبْنِياً لِلْمَعْلُومِ ، وَأَنَّ الأَلْفَ فِيهِ لَيْسَتْ لِلْمِشارَكَةِ ، لِأَنَّهُ لَا مِشارَكَةَ بَيْنَ الأَزْواجِ وَمُطَلَّقاتِهِمْ ، وَالإِضْرارُ يَقَعُ مِنْ قِبَلِ الأَزْواجِ فَقَطْ ؛ فَهَذِهِ الأَلْفُ لِلتَّوْكِيدِ فَقَطْ .

ب - الْمَصْدِرُ «ضِرارٌ» فِي الْقُرْآنِ :

«ضِرارٌ» عَلَى وَزْنِ «فِعالٍ» ، مَصْدَرُ الْفِعْلِ الرَّباعِيِّ «ضارٌّ» . تَقُولُ : ضارٌّ ، ضِراراً ، مِثْلُ : قاتَلَ قِتالاً ، وَجاهَدَ جِهاداً .

وَقد وَرَدَ هَذَا الْمَصْدَرُ مَرَّتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ :

١ - قال تعالى : ﴿وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَلَئِنْ أَجَلْتُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِراراً لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

الكلامُ فِي الآيَةِ عَنْ مِراجِعَةِ الزَّواجِ لِمُطَلَّقَتِهِ قُبيلَ انْتِهاءِ عِدَّتِها ، فَهُوَ بِالخِيارِ : إمَّا أَنْ يُراجِعَها وَيُمسِكَها ، وَيُبقِياها زِواجَةً لَهُ ، لَكِنْ بِشَرطِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ . وإمَّا أَنْ يُفارِقَها وَيُسَرِّحَها وَيُعِيدَها إِلى أَهْلِها ، بِشَرطِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ أَيضاً . وَتَنهى الآيَةُ هؤُلاءِ الأَزْواجِ الْمُطَلَّقينَ مِنْ أَنْ يُعيدوا وَيُمسِكوا مُطَلَّقاتِهِمْ لِأَجْلِ الإِضْرارِ بِهِنَّ .

الواوُ فِي ﴿وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِراراً﴾ : حَرْفُ عَطْفٍ ، وَجَمَلَةٌ ﴿لَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِراراً﴾ : مَعْطُوفَةٌ عَلَى جَمَلَةٍ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ .

وَاللَّطِيفُ هُوَ عَطْفُ جَمَلَةٍ النِّهْيِ عَلَى جَمَلَةِ الأَمْرِ ، وَحِكمةُ ذَلِكَ هِيَ التَّوْكِيدُ عَلَى الأَمْرِ بِالإِمساكِ بِالْمَعْرُوفِ ، حَيْثُ أَمَرَتِ الآيَةُ بِالإِمساكِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَتْ عَنِ الإِمساكِ بِغَيْرِ الْمَعْرُوفِ .

﴿لَا﴾ : حَرْفُ نِهْيٍ وَجَزْمٍ . وَ ﴿تُنْسِكُوهُنَّ﴾ : فِعْلٌ مُضارعٌ مَجْزُومٌ بِحَذْفِ النُّونِ ، وَالْفاعِلُ الواوُ ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ الضَّميرُ الْمُتَصِلُ «هُنَّ» . وَ ﴿ضِراراً﴾ :

مفعولٌ لأجله ؛ أي: لا تُمسكوهنَّ لأجلِ الإضرارِ بهنَّ . والجملةُ المصدريةُ : ﴿لِنَعْتَدُوا﴾ في محلِّ جرٍّ باللامِ العجّازةِ التعليلية ، وذلك لتعليلِ الإضرار . والتقديرُ: لا تُمسكوهنَّ ضراراً للاعتداءِ عليهن .

و ﴿ضَرَارًا﴾ لا مشاركةَ فيه بين طرفين ، لأنَّ الضرَرَ يقعُ من الأزواجِ المطلَّقين على زوجاتهمِ المطلَّقات ، وهُنَّ لا يوقعنَ الضررَ بهم . فالألفُ فيه لتأكيدِ النهي عن الإضرارِ بالمطلَّقات .

٢ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَفِرْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧].

الكلامُ في الآيةِ عن مسجدِ الضُّرارِ . وخُلاصةُ قصِّته أن مجموعةً من المنافقينَ بالغوا في الكيدِ واللؤمِ والتآمرِ على الإسلامِ والمسلمين . وكان اتِّصالُهم السريُّ بالمجرمِ المتآمرِ «أبي عامر الفاسق» ، الذي هَرَبَ إلى ملكِ الروم ، وكان يتصلُّ من هناك بأعوانه في المدينة ، وأرادَ المنافقونَ في المدينة أن يكونَ اتِّصالُهم بزعيمهم مأموناً ، فاهتدوا إلى أن يبنوا مسجداً وهو في ظاهره عملٌ خيريّ ، ولا أفضلَ من بناءِ المسجد ، لكنَّه في حقيقته «وكرٌ» للتجسسِ والإضرار .

ولما بنوا المسجدَ جاؤوا إلى رسولِ الله ﷺ ، وطلبوا منه أن يباركَ المسجدَ ويفتتحه ويصليَ فيه ، ولما جاؤوه كانَ في طريقه إلى غزوةِ تبوك ، فقالَ لهم: «عندما أعودُ من تبوك أتِيكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» . ولما عادَ من تبوك ، أنزلَ اللهُ عليه هذه الآيةَ وما بعدها ، قبيلَ وصولهِ المدينة ، وكشَفَ له فيها حقيقةَ مسجدِ الضُّرار ، ونهأه عن الصلاةِ فيه .

فأمَرَ رسولُ الله ﷺ مجموعةً من الصحابةِ أن يُحَرِّقُوا وَيُدْمِرُوا ذَلِكَ الْوَكْرَ الْخَيْثَ ، الذي تَسْتَرُّ بِالْمَسْجِدِ ، ففعلوا . وسُمِّيَ المسجدُ منذُ ذلك اليومَ «مسجدَ الضُّرار» .

﴿الذين﴾: اسمُ موصولٍ في محلِّ رفعٍ مبتدأً مؤخَّر ، والخبرُ المقدمُ محذوفٌ ، والتقديرُ: ومنهم الذين اتخذوا . وجملةُ ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا﴾: صلةُ الموصولِ .

﴿ اتَّخَذُوا ﴷ : فعلٌ وفاعل . و ﴿ مَسْجِدًا ﴷ : مفعولٌ به . و ﴿ ضِرَارًا ﴷ مفعولٌ لأجله .

و ﴿ وَكُفْرًا ﴷ ، ﴿ وَتَقْرِبًا ﴷ ، ﴿ وَإِرْصَادًا ﴷ : كلماتٌ ثلاثةٌ منصوبةٌ ، معطوفةٌ على المفعولِ لأجله ؛ أي : بنى المنافقون المجرمون المسجدَ لأربعةِ أهدافٍ : الضَّرَارُ ، والكُفْرُ ، والتفريقُ بين المؤمنين ، والإرصادُ لمن حاربَ اللهَ ورسوله .

لذلك نهى اللهُ رسوله ﷺ عن الصلاةِ فيه وأمره بهدمه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴷ .

و ﴿ ضِرَارًا ﴷ : مصدرُ الفعلِ الرباعي «ضَارَّ» ، والألفُ في الفعلِ ليستُ للمشاركةِ ، لأنه لا يوجدُ طرفانِ يقعُ بينهما مُضَارَّةٌ ، وإنما هي لتوكيدِ إضرارِ المنافقينَ بالمسلمين .

واللافتُ للنظرِ أَنَّ ﴿ ضِرَارًا ﴷ لم يأتِ في القرآنِ إلاَّ مفعولاً لأجله ، وأنه لا يدلُّ على المشاركةِ بين طرفينِ في الإضرارِ ، وإنما يدلُّ على تأكيدِ الإضرارِ ، وإيقاعِ الأذى والسوءِ بالآخرينِ ، ولذلك نهى اللهُ عنه .

ج - اسمُ الفاعلِ «مُضَارٌّ» في القرآن :

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلْثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴷ [النساء : ١٢] .

الكلامُ في هذه الآيةِ عن الموارثِ ، وتقسيمِ التركةِ على الورثةِ ، وعن الميِّتِ الذي يورثُ كلالَةً ، وهو الذي لا وارثَ له من والدٍ أو ولدٍ ، وإنما يرثه الإخوانُ والأخواتُ والأعمامُ والعَمَّاتُ .

وتخبرُ الجملةُ أَنَّ التركةَ تُقسَّمُ على الورثةِ من بعدِ وصيةٍ يُوصي بها الميِّتُ ، أو دينٍ لم يسدِّه قبلَ موتهِ ، حيثُ تُخرجُ قيمةُ الوصيةِ من التركةِ ، ثم يُخرجُ الدينُ منها ، ويُقسَّمُ الباقي على الورثةِ .

وبما أَنَّ الآيةَ أجازتُ للمورثِ أَنْ يُوصي بجزءٍ من التركةِ لمن يُريدُ ، فإنها

اشترطت عليه عدم الإضرار بالوصية ، فقالت : ﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ .

﴿ غَيْرَ ﴾ : حال منصوب وصاحب الحال هو المورث ، وهو نائب فاعل
﴿ يُوَصَّى ﴾ ، و ﴿ مُضَارٍّ ﴾ : مضاف إليه مجرور .

و ﴿ مُضَارٍّ ﴾ : اسم فاعل من «ضارَّ» . تقول : ضارَّ ، فهو مُضَارٌّ . وهو
مثل فعله الماضي . تقول : ضارَّرَ ، فهو مُضَارِرٌّ . ومُضَارِرٌّ على وزن :
مُفَاعِلٌ ، مثل : مُقاتِلٌ ومُجاهِدٌ . وأدغمت الراء في الراء . فصارت : مُضَارٌّ .

وتدلُّ هذه الصفة ﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ ﴾ على تحريم الإضرار في الوصية ، أي
أنه لا يجوز للمورث أن يوصي بجزء من ماله إذا كان هدفه الإضرار بالورثة ،
وإيقاع السوء والأذى بهم ، فإن فعل ذلك كان آثماً .

والألف في اسم الفاعل هنا «مُضَارٌّ» ليست للمشاركة ، لأنه ليس هنا
مشاركة بين طرفين في الإضرار . وإنما هذه الألف لتأكيد النهي عن المضارة
في الوصية .

ومن صور الإضرار بالوصية ، التي يكون فيها الموصي مُضارراً فيها ، أن
يوصي بأكثر من الثلث ، لأنَّ الإسلام منع أن تزيد الوصية على الثلث .

ومن صور الإضرار بالوصية أن يكون هدف الموصي المورث منها حرمان
الورثة من المال ، فيوصي به إلى غيرهم .

والإضرار في الوصية حرام ، وفاعله آثم عند الله .

ثالثاً: الخماسي «اضطرَّ» في القرآن:

«اضطرَّ»: فعل ماضٍ خماسي ، على وزن «افتعل» . زيد على ثلاثيه
الهمزة وتاء الافتعال .

والذي ورد في القرآن من هذه الصيغة ثلاثة اشتقاقات :

الأول : الفعل المضارع المبني للمعلوم : «أضطرَّ» .

الثاني : الفعل الماضي المبني للمجهول : «اضطرَّ» .

الثالث : اسم المفعول : «مُضطرٌّ» .

وفيما يلي بيانها بعون الله .

١ - الفعل المضارع المبني للمعلوم «أَضْطَرُّ» في القرآن:

«أَضْطَرُّ» بفتح الهمزة ؛ فعلٌ مضارعٌ مسندٌ إلى المتكلم ، الماضي منه :
«اضْطَرَّ» بهمزة الوصل .

وقُلْنَا: إِنَّ الثَّلَاثِيَّ مِنْ هَذَا الْخَمَاسِي «ضَرَر» ، عَلَى وَزْنِ «فَعَلَ» فَلَمَّا زِيدَ عَلَى الثَّلَاثِيَّ هَمْزَةُ الْوَصْلِ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَاءُ الْاِفْتِعَالِ فِي وَسْطِهِ ، صَارَ الْفِعْلُ : اضْطَرَّ . عَلَى وَزْنِ «أَفْتَعَلَ» . . وَالضَّادُ فِي «اضْطَرَّ» حَرْفٌ مَجْهُورٌ ، وَالتَّاءُ بَعْدَهُ حَرْفٌ مَهْمُوسٌ ، فَصَعِبَ النُّطْقُ بِالْمَهْمُوسِ بَعْدَ الْمَجْهُورِ ، لِذَلِكَ أُبْدِلَتْ التَّاءُ طَاءً ، لِيَكُونَ حَرْفَانِ مَجْهُورَانِ مُتْتَابِعَانِ: الضَّادُ وَالطَّاءُ . فَصَارَ الْفِعْلُ : اضْطَرَّ .

وَالْمُضَارِعُ الْمُسْنَدُ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ «أَضْطَرُّ» وَرَدَ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الْقُرْآنِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦] .

لَمَّا بَنَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْكَعْبَةَ ، دَعَا اللَّهَ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، أَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، وَأَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ ، وَجَعَلَ الْأَمْنَ وَالرِّزْقَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

أَمَّا الْكَافِرُ مِنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ يَمْتَعُهُ مَتَاعًا قَلِيلًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يُعَذِّبُهُ فِي النَّارِ .

الْوَاوُ فِي ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ : حَرْفٌ عَطْفٌ ، وَجُمْلَةٌ ﴿ مَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ ﴾ : مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ . وَالتَّقْدِيرُ : وَسَأَرْزُقُ مَنْ كَفَرَ ، وَأُمْتِعُهُ فِي الدُّنْيَا . وَ ﴿ مِنْ ﴾ : اسْمٌ مَوْصُولٌ مُبْتَدَأٌ ، وَجُمْلَةٌ ﴿ كَفَرَ ﴾ : صِلَةٌ الْمَوْصُولِ . وَجُمْلَةٌ ﴿ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ﴾ : فِي مَحَلِّ رَفْعٍ خَبَرٍ . وَجُمْلَةٌ ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ : مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ﴾ .

وَ ﴿ أَضْطَرُّهُ ﴾ : فِعْلٌ مُضَارِعٌ ، وَالْفَاعِلُ تَقْدِيرُهُ «أَنَا» يَعُودُ عَلَى اللَّهِ . وَالْهَاءُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٍ بِهِ ، يَعُودُ عَلَى الْكَافِرِ .

وَأَصْلُ «أَضْطَرُّ» : «أَضْطَرَّ» عَلَى وَزْنِ «أَفْتَعَلَ» ، فَحَصَلَ فِيهِ الْإِبْدَالُ الَّذِي

ذَكَرْنَاهُ . وهو افتعالٌ من الضَّرر ، وهو سوءُ الحال . تقول : ضَرَرَهُ : إذا أوصلَ إليه السوءَ والأذى . وتقول : ضارَّه : إذا أوقعَ به السوءَ والأذى . وتقول : اضْطَرَّهُ : إذا دفعه وألجأه إلى السوء والأذى .

قال الإمامُ الراغبُ الأصفهاني : «الاضْطِرارُ : حملُ الإنسانِ على ما يَصُرُّهُ . . وهو في الثُّعارف : حَمَلُهُ على أمرٍ يكرهه . وهو على ضربين : أحدهما : اضْطِرارٌ بسببِ خارج ، كمن يُضْرَبُ أو يُهَدَّدُ ، حتى يَفْعَلَ مُنقاداً ، ويؤخَذَ قهراً ، فيُحْمَلُ على ذلك .

والثاني : بسببِ داخلٍ ، وذلك إمَّا بقهرِ قُوَّةٍ له ، لا يتأله بدفعها هلاك ، كمن غَلَبَ عليه شهوةُ خَمَرٍ أو قِمار . وإمَّا بقهرِ قُوَّةٍ ، يتأله بدفعها الهلاك ، كمن اشتدَّ به الجوعُ ، فاضْطَرَّ إلى أكلِ المَيْتَةِ» (١) .

الاضْطِرارُ فيه معنى الإكراه ، وذلك بحملِ الإنسانِ على ما يكرهه ، ودفعه إلى الوقوعِ في الضَّرر ، وهو السوءُ والأذى .

ومعنى ﴿ ثُمَّ اضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ : ثم أدفعه إلى عذابِ النارِ ، وألجئه إليها ، وأحمله عليها ، وأدخله فيها .

وقد ضُمَّنَ فعلُ ﴿ اضْطَرَّهُ ﴾ فعلَ : أَلَجَّه . ولذلك تَعَدَّى إلى ما بعده بحرفِ ﴿ إِلَى ﴾ المستعملِ في الدفعِ والإلجاء . أي : أَلَجَّه إلى عذابِ النارِ .

وقد أُسندَ هذا الفعلُ المضارعُ إلى ضميرِ الجمعِ في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزِنُكَ كُفْرُهُمْ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [٢٣-٢٤] .

الكلامُ في الآيةِ عن الكفار ، فاللهُ يُمَتِّعُهُمْ في الدنيا متاعاً قليلاً ، ثم يدفعُهُمْ في الآخرةِ إلى عذابِ النارِ .

﴿ نَضَطَّرَهُمْ ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ . والفاعلُ تقديرُهُ «نحن» ، يعودُ على الله ، وهو ضميرٌ للتعظيمِ وليس للجمع ، لأنَّ اللهَ واحد . و«هم» في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به يعودُ على الكفار .

(١) المفردات، ص ٥٠٤-٥٠٥ .

والاضطراؤ هو: الإلجاء والدفع والإكراه. وقد ضُمَّنَ فعلٌ ﴿نَضَطَرُّهُمْ﴾ فعلٌ: نُلِجْتُهُمْ ، ولذلك تعدى إلى ما بعده بحرفِ ﴿إِلَى﴾: ﴿ثُمَّ نَضَطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢ - الماضي المبني للمجهول «اضطَّرَّ» في القرآن:

«اضطَّرَّ»: فعلٌ ماضٍ خماسي ، مبنيٌّ للمجهول ، على وزنِ «افْتَعَلَ». ومعلومٌ أنَّ الماضي الخماسيَّ يَبْنِي للمجهولِ بضمِّ أوَّلِهِ ، وكسْرِ ما قبلَ آخِرِهِ. وهذا الماضي المبنيُّ للمجهولِ يَحْمَلُ مَعْنَى الإلجاءِ والإكراهِ والدَّفْعِ ، واضطراؤُ الإنسانِ بأنَّ يُحْمَلَ على ما يَكْرَهُ ، وأنَّ يُصِيبَهُ الأذى والسوءُ ، وأنَّ تُلجِئَهُ الحاجةُ والضرورةُ إلى ما يكره ، رَغْمًا عنه.

وهذا الذي يَحْمَلُ الإنسانَ على ما يَكْرَهُ يكونُ داخلِيًّا من داخلِ كيانِهِ. وإن لم يفعلْ ذلك المَكْرُوهَ والسوءَ مُضطَّرًّا يَهْلِكُ. وذلك كمن اشتدَّ به الجوعُ ، ولم يَجِدْ أمامَهُ ما يأكلُهُ إلاَّ المَيْتَةَ ، فإن لم يأكلْ منها مات ، فيقالُ: فيه: اضطَّرَّ إلى أكلِ المَيْتَةِ! أي: أُلجِئَ إلى أكلِ المَيْتَةِ.

وقد وَرَدَ الفعلُ الماضي «اضطَّرَّ» خمسَ مرَّاتٍ في القرآن:

أ - قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ- لَعَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣].

تَحَصَّرُ الآيَةُ المَحْرَمَاتِ بهذه الأصنافِ الأربعة: المَيْتَةَ ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما ذُبِحَ لغيرِ الله. وتُبيحُ لمن اضطَّرَّ وأُلجِئَ إلى أكلِها أكلها ، بشرطِ أن يكونَ غيرَ باغٍ ولا مُعتَدٍ.

الفاءُ في ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ ﴾: حرفٌ استثناف. و «من»: اسمٌ شرطٍ في محلِّ رفعٍ مبتدأ. وجملةُ ﴿ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾: فعلٌ الشرط. وجملةُ ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾: جوابُ الشرط.

و ﴿ اضْطُرَّ ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول ، ونائبُ الفاعلِ تقديرُهُ «هو». و ﴿ غَيْرَ ﴾: حالٌ منصوب ، و ﴿ بَاغٍ ﴾ مضافٌ إليه مجرور ، و ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾: معطوفٌ على ﴿ بَاغٍ ﴾.

و ﴿بَاغٍ﴾: اسْمُ فاعِلٍ ، فعلُهُ ثلاثي: «بَغَى». والباغي هو الظالم .
 و ﴿عَادٍ﴾: اسْمُ فاعِلٍ آخر ، فعلُهُ ثلاثي «عَدَا». تقول: عَدَا ، يَعْدُو ،
 فهو عَادٍ. والعادي هو المتجاوزُ ، الذي يَتَجَاوَزُ الحَلَالَ إلى الحرام .
 وما تعلقَ به فعلُ ﴿أَضْطَرَّ﴾ محذوف ، وهو أَكَلُ المَحْرَمَاتِ المذكورة .
 والتقدير: فَمَنْ اضْطَرَّ إلى أَكَلِ شيءٍ من المَحْرَمَاتِ غيرِ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ
 عليه .

وتعديةُ فعلِ ﴿أَضْطَرَّ﴾ إلى ما بعده بحرف «إلى» وما بعده المقدر ، لأنَّه
 ضَمَّنَ فعلُ «أُلجئ» . أي: مَنْ أُلجئٌ ودُفِعَ إلى أَكَلِ شيءٍ من المَحْرَمَاتِ .
 وإذا كانَ ﴿أَضْطَرَّ﴾ مبنياً للمجهولِ فَمَنْ الذي يَضْطَرُّه إلى ذلك؟ إنَّه شيءٌ
 داخليٌّ في جسمِهِ ، وهو الجوع ، وعندما تبني الفعلَ الماضي للمعلومِ تقول:
 فَمَنْ اضْطَرَّهُ الجوعُ إلى أَكَلِ الميتة ، وهو غيرُ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه .
 فالاضطرارُ هنا هو الإلجاءُ والدَّفْعُ ، بحيثُ تحمِلُ الحاجةُ الإنسانَ
 المحتاجَ إلى شيءٍ يكرهه رغمَ أنفه ، وهو سوءٌ وأذى . . لكنها الضرورةُ
 والحاجةُ .

ب - قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ
 يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَبْدٍ لِّلَّهِ بِهِ
 فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥] .

سياقُ هذه الآيةِ نفسُ سياقِ آيةِ سورةِ البقرةِ السابقة ، مع تفرُّدها بصياغةٍ
 خاصَّةٍ بها ، فالآيةُ تحصرُ المَحْرَمَاتِ بالأصنافِ الأربعة ، وتُبيحُ الآيةُ لمن
 ألجأه الجوعُ إلى أَكَلِ شيءٍ من تلك المَحْرَمَاتِ فعلَ ذلك ، لثلا يموتَ جوعاً .

ج - قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ
 لِعَبْدٍ لِّلَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٥] .

وحتى لا يُظنَّ أَنَّ آيةَ سورةِ النَّحْلِ تكرارٌ لآيةِ سورةِ البقرةِ فإنني أدعو إلى
 ملاحظةِ الفروقِ التعبيريةِ التاليةِ بينهما:

- قالَ في سورةِ البقرة: ﴿ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِعَبْدٍ لِّلَّهِ ﴾ ، فقدَّمَ شبهَ الجملةِ

﴿ بِهِ ﴾ على الجارِّ والمجرور . بينما قال في سورة النحل : ﴿ وَمَا أَهْلَ لِعَبْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ فَأَخَّرَ شبه الجملة ﴿ بِهِ ﴾ ؛ فما حكمة تقديمها في سورة البقرة ، وتأخيرها في سورة النحل ؟ .

- قال في سورة البقرة : ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، وحذف هذه الجملة كلها من سورة النحل .

- قال في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بدون فاء ، وقال في سورة النحل : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بالفاء !! .

ويلاحظُ أَنَّ الآياتِ الثلاثِ قَدَّتْ إِباحَةَ الأكلِ لِمَن اضْطُرَّ بِأَن يَكُونَ غيرِ باعٍ ولا عادٍ ، وَأَنَّ المِضْطَرَّ إِلَيْهِ فِيهَا كُلُّهَا محذوف . وتقديره : فَمَن اضْطُرَّ إلى شيءٍ من تلك المحرمات ! وَأَنَّ الحديثَ عن المِضْطَرِّ فِيها جاءَ بِجملةٍ شَرْطِيَّةٍ .

د - قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِعَبْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْنَقُوا بِالْأَنْزَلِ ذَلِكَ مِمَّا أَسْقَى الْيَوْمَ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَآخِشُونَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْنْتُمْ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

سياق الآية قريبٌ من سياق الآياتِ الثلاثِ السابقة - في سورِ : البقرة والأنعام والنحل - في تقريرِ حرمةِ الأكلِ من بعضِ أصنافِ اللحوم ، وإباحةِ ذلكِ المحرَّمِ لِمَن اضْطُرَّ إِلَيْهِ .

لكنَّ آيةَ سورةِ المائدةِ طَوَّلَتْ الكلامَ ، وفَصَّلَتْ الحديثَ عن المحرَّماتِ ، وذكَّرتِ امتنانَ اللهِ على المسلمينِ بِإكمالِ الدينِ وإتمامِ النعمةِ ، ولذلكِ طَوَّلَتْ الكلامَ لِمَن اضْطُرَّ إلى المحرَّماتِ ، ليتناسبَ ذلكُ مع التطويلِ والتفصيلِ في سياقِ الآيةِ .

قالت : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

الفاءُ حرفُ استئنافٍ ، والجملةُ بعدها استثنائيةٌ ، لتبيينِ إباحةِ الأكلِ مِنَ المحرَّماتِ لِمَن اضْطُرَّ . و ﴿ مَنْ ﴾ : اسمٌ شرطٍ في محلِّ رفعٍ مبتدأ . و ﴿ اضْطُرَّ ﴾ : فعلٌ ماضٍ ، وفاعلُه تقديرُه «هو» ، و ﴿ فِي مَخْصَصَةٍ ﴾ : شبه

الجملة في محلّ نصب حال . و ﴿عَيْرَ﴾ : حالٌ ثانٍ منصوب ، و ﴿لَائِمٍ﴾ : متعلّقٌ باسمِ الفاعل ﴿مُتَجَانِفٍ﴾ ، وجملة ﴿أَضْطَرَّ فِي مَحْصَةِ عَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لَائِمٍ﴾ : فعل الشرط . وجوابُ الشرط : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

والمضطرُّ إليه محذوف ، مفهومٌ من السياق ، وهو الأكلُ من المحرّماتِ المذكورة ، والتقدير : مَنْ اضْطَرَّ إِلَى الْأَكْلِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لَائِمٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ .

و ﴿مَحْصَةٍ﴾ : مصدرٌ ميمي ، من الثلاثي «خَمَصَ» . تقول : خَمَصَ ، مَخْمَصَةً ، والمخمصّة هي الجوعُ الشديد ، الذي يُؤدِّي إلى خُموصِ البطنِ وضموره .

و ﴿مُتَجَانِفٍ﴾ : اسمُ فاعلٍ من الخماسي «تجانفَ» ، مأخوذٌ من «الجَنَفِ» وهو الميئلُ . والمتجانِفُ إلى الإثمِ هو المائلُ إليه ، الراغبُ فيه .

الآياتُ السابقةُ قالتُ : ﴿فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ . . وهذه الآيةُ قالتُ : ﴿فَمَنْ اضْطَرَّ فِي مَحْصَةِ عَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لَائِمٍ﴾ .

أي : مَنْ أُلْجِيَ إِلَى الْأَكْلِ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ بِسَبَبِ الْجُوعِ الشَّدِيدِ الَّذِي أَلَمَّ بِهِ ، وهو غيرُ مُنْحَازٍ إِلَى الْحَرَامِ ، وغيرُ رَاغِبٍ فِي الْمَخَالَفَةِ ؛ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ لو أَكَلَ مِنْهَا .

هـ - قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١١٩] .

الكلامُ في الآيةِ عن استغرابِ موقفِ الذين لا يَقْبَلُونَ بِحُكْمِ اللَّهِ ، فلماذا لا يَأْكُلُ هؤُلاءِ الذبيحةَ التي ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، كما أمرَ اللهُ ؟ .

وذكرت الآيةُ أَنَّ اللَّهَ فَصَّلَ وَبَيَّنَ وَوَضَّحَ الْمَحْرَمَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ . . ثم استئنَت حالة الاضطرار ، فعندما يَضْطَرُّ النَّاسُ إِلَى الْحَرَامِ يَكُونُ مَبَاحًا لِلْمُضْطَرِّينَ .

الواوُ في ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ : واوُ الحالِ . والجملةُ بعدها في محلِّ نصبِ الواوُ في ، و ﴿مَّا﴾ : اسمٌ موصولٌ في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به لفعلٍ ﴿فَصَّلَ﴾ ،

وجملة ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ صلة الموصول . والمفعول به لفعل ﴿حَرَّمَ﴾ محذوف ، وهو العائدُ في الجملة الموصولة . وتقديره «الهاء» . والتقدير: وقد فَصَّلَ اللهُ لكم ما حَرَّمَهُ عليكم . أي : وقد فَصَّلَ لكم المحرَّم عليكم .

و ﴿إِلَّا﴾ : حرفُ استثناء . والاستثناء هنا مُنْقَطِع . و ﴿مَا﴾ : اسمٌ موصولٌ في محلِّ نَصْبٍ مُسْتَنَى . و ﴿أَضْطَرَرْتُمْ﴾ : فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول . و ﴿تُمْ﴾ : في محلِّ رَفْعٍ نَائِبٍ فاعِلٍ . . والهاءُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ تعودُ على ﴿مَا﴾ في : ﴿مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ . أي : اضطررتم إلى المحرَّم . والموصولُ وصلته في ﴿مَا أَضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ : في محلِّ نصب مُسْتَنَى . والتقدير: إلا المضطرَّ إليه .

ومعنى الاستثناء هنا أنه إذا اضطرَّ مسلمٌ واحتاج إلى الحرام ، فإنه يكون غير مُحرَّم عليه .

وتعدى فعلٌ ﴿أَضْطَرَرْتُمْ﴾ إلى ما بعده بحرفِ «إلى» ، لأنَّ الفعلَ ضَمَّنَ فعلَ «أَلْجَيْتُمْ» . أي : أُلْجَيْتُمْ إلى أكله أو فعله .

وفكُّ إدغامِ الرَّاءِ في ﴿أَضْطَرَرْتُمْ﴾ ، لأنَّ الفعلَ أُسْنَدَ إلى ضميرِ الرفعِ المتحركِ «تُمْ» ، الذي هو في محلِّ رَفْعٍ نَائِبٍ فاعِلٍ .

ومعلومٌ أنَّ الفعلَ الماضي المضعَّفَ اللَّامِ إذا أُسْنَدَ إلى ضميرِ الرفعِ المتحركِ يَفْكُّ إدغامه ، لأنَّه يُبْنَى على السكون ، تقول: اضطررت ، واضطررنا ، واضطررت .

وسببُ الاضطرارِ هنا داخلي ، لأنَّ حاجةَ الإنسانِ إلى الطَّعامِ بيولوجيةٌ فطرية ، والجوعُ يَدْفَعُهُ وَيُلْجِئُهُ إلى البحثِ عن الطَّعامِ ، وَيُصَابُ بالضَّررِ والسوءِ والهلاكِ إن لم يأكل .

واللطيفُ أنه لما أُسْنَدَ الفعلُ المبنيُّ للمجهولِ إلى المفردِ ، عادَ نائِبُ الفاعلِ المُسْتَر على اسمِ الشرطِ «مَنْ» ، وذلك في قوله : ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ ، و ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحَبَّةٍ﴾ .

وعندما أُسْنَدَ إلى جمعِ المخاطبين كانَ نائِبُ الفاعلِ ضميراً متصلاً : ﴿إِلَّا مَا أَضْطَرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ .

وعندما تبني الفعل للمعلوم في المواضع الخمسة فإنَّ الفاعل يكون «الجوع». والتقدير: فَمَنْ اضْطَرَّه الجوعُ غَيْرَ باغٍ ولا عاد. و: فَمَنْ اضْطَرَّه الجوعُ في مخمصة ، و: إِلَّا المحرَّم الذي اضْطَرَّكُمْ الجوعُ إليه .

٣- اسم المفعول «المضطرَّ» في القرآن:

«مُضْطَرَّ»: اسْمُ مفعولٍ من الفعلِ الخماسي «اضْطَرَّ» ، وهو على وزن «مُفْتَعَل» ، أصلُه: مُضْتَرَّرٌ. فأبدلت التاء طاءً لتوافق الضادَ المجهورة. وأدغمت الراءُ في الراءِ ، فصارت: «المضطرَّ» .

وقد وَرَدَ اسْمُ المفعولِ مرَّةً واحدةً في القرآن ، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم مَخْرَجًا وَيَرْزُقُكُم مِّنْ حَيْثُ تُرِيدُونَ﴾ [النمل: ٦٢] .

الكلامُ في الآيةِ عن أَنَّ الأمورَ كُلَّها بيدِ اللهِ وحده ، بأسلوبِ الاستفهامِ التقريري ، فهي تُقرَّرُ أَنَّ اللهَ هو الذي يَسْتَجِيبُ لدعاءِ المضطرِّ عندما يدعوه ، طالباً منه كَشْفَ الضَّرَرِ والسوءِ عنه .

«أَمَّ»: تُسَمَّى «أَمَّ المنقطعة». بمعنى بَلِّ . و«مَنْ»: اسْمُ استفهامِ في محلِّ رَفْعٍ مبتدأ ، وجملة: ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾: في محلِّ رَفْعٍ خَبَرٍ . والاستفهامُ هنا تقريرِي .

و﴿يُجِيبُ﴾ بمعنى: يَسْتَجِيبُ . والفاعلُ تقديرُه «هو» . و﴿الْمُضْطَرَّ﴾: مفعولٌ به .

و﴿إِذَا﴾: ظرفٌ للمستقبل . و﴿دَعَاهُ﴾: فعلٌ الشرط . وجوابُ الشرطِ محذوف . تقديره: إِذَا دَعَا الْمُضْطَرُّ فَمَنْ يَسْتَجِيبُ له؟ اللهُ هو الذي يَسْتَجِيبُ له .

والمضطرُّ هو المحتاجُ ، الذي أَلْجَأَتْهُ الحاجةُ والضرورةُ إلى طلبِ قضاءِ حاجتهِ ، وكشفِ السوءِ والضَّرَرِ عنه ، ولذلك يتوجَّهُ إلى الله بالدُّعاءِ .

و«أل التعريف» في ﴿الْمُضْطَرَّ﴾ للجنس ، فهي تدلُّ على العُموم ، وتشملُ جميعَ المضطرينَّ المحتاجين ، المتضرِّعينَ إلى الله ، طالبينَ كَشْفَ

الضَّرَرِ والسَّوِّءِ ، مهما كان نوعُ ذلك الضَّرَرِ ، سواء كان مادياً أو معنوياً ،
وسواءً كان في داخلِ الجسمِ كمرض ، أو كان خارجهُ كفقْر . . فكلُّ مَنْ كَانَ
مُضْطَرّاً واقعاً تحت تأثيرِ الضرورةِ ، ودعا اللهَ ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتَجِيبُ له ،
ويكشفُ السَّوِّءَ عنه .

رابعاً: «الضَّيْر» في القرآن:

في نهايةِ جولتنا مع مادةِ «ضَرَر» في القرآن ، وتَحليلنا لِصِيغِ واشتقاقاتِ
وتصرفاتِ هذه المادَّةِ ، نفقُ وقفَةً سريعةً مع مادَّةٍ أُخرى قريبةٍ جداً منها ،
ويظُنُّ بعض المتعجِّلين أنها منها ، مع أنها ليست كذلك .

إنها مادَّةُ «ضَيَّرَ» . والضَّيْرُ غيرُ الضَّرَرِ ، وهناك فَرْقٌ بينهما في الاشتقاقِ
وفي المعنى . عَيْنُ الكَلِمَةِ في «ضَرَر» راءٌ ، وَعَيْنُ الكَلِمَةِ في «ضَيَّر» ياءٌ .

وعَيْنُ الكَلِمَةِ في المضارعِ مضمومةٌ «يَضُرُّ» ، لأنها من بابِ نَصَرَ ، كما
سبقَ أَنْ بَيَّنَّا . أمَّا عَيْنُ الكَلِمَةِ في المضارعِ مكسورةٌ «يَضِرُّ» ، لأنها من بابِ
«ضَرَبَ» تقول: ضَارَ ، يَضِيرُ ، ضَيَّرَ . كما تقول: ضَرَبَ ، يَضْرِبُ ، ضَرَبًا .
وأصلُّ: «ضَارَ»: ضَيَّرَ . لكن لما تحرَّكت الياءُ وانفتحَ ما قبلها قلبتُ أَلِفًا
فصارَتْ: «ضَارَ» .

قال ابنُ فارس: «الضَّادُ والياءُ والراءُ كلمةٌ واحدةٌ ، وهو من الضَّيْرِ
والمَضْرَةِ ، تقول: لا يَضِيرُنِي كذا ، أَي: لا يُضِرُّنِي»^(١) .

وجاءَ في المعجم الوسيط: «ضَارَ ، يَضِيرُ ، ضَيَّرَ . أَي: أَضَرَّ بِهِ»^(٢) .

وجاءَ في لسانِ العرب: «ضَارَهُ: يَضِيرُهُ . أَي: يَضُرُّهُ . يُقال: ضَارَنِي ،
يَضِيرُنِي . وقولُه عليه السلام: «أَتَضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ؟» . ولما حاضَتْ
عائشةُ رضي اللهُ عنها في الحج ، قال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يَضِيرُكَ» . أَي:
لا يَضُرُّكَ .

(١) مقاييس اللغة ، ص ٦٠٦ .

(٢) المعجم الوسيط ، ص ٥٤٦ .

وَالضَّيْرُ وَالضُّورُ وَاحِدٌ . . . وَيُقَالُ: لَا ضَيْرَ ، وَلَا ضُورَ ، وَلَا ضَيْرَ ،
وَلَا ضُرَّرَ . . .»^(١).

وذهب معظم المفسرين واللغويين إلى أَنَّ الضَّرَّ والضَّيْرَ بمعنى واحد ،
وأنهما كلمتان مترادفتان ، وهذا مردود ، لأنهما مادَّتان مختلفتان في
الاشتقاق كما لاحظنا ، ولأنهما كلمتان قرآنيتان ، ومن المعلوم أنه لا ترادف
في القرآن .

وقد وردت مادة الضَّيْر مرتين في القرآن :

المرَّة الأولى : بصيغة المصدر ﴿ ضَيْرٌ ﴾ :

وردت في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، فلما أحضر فرعونُ
السحرة لمواجهة موسى عليه السلام ، وبعدما عرفوا الحق آمنوا بموسى عليه
السلام ، فهذَّدهم فرعونُ .

قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ٤٦ قَالُوا ءَأَمِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ ٤٨ قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُفُّوا الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ٤٩ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا
مُتَّقِبُونَ ٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٥١] .

لما هدَّد فرعونُ السحرة بالقتل والصلب ، ثبتوا على الحق ، وردوا على
تهديده قائلين : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ .

﴿ لَا ﴾ : نافية للجنس . و﴿ ضَيْرٌ ﴾ : اسمٌ ﴿ لَا ﴾ مبنية على الفتح في محلِّ
نصب ، وخبرها محذوفٌ وجوباً ، تقديره « واقع بنا » . أي : لا ضير واقع بنا .
وعلَّلوا ذلك بأنهم مُتَّقِبُونَ إلى ربِّهم يومَ القيامة ، وأنهم هم الفائزون ،
لأنَّه إن قتلهم فرعونُ فسيكونون شهداءً .

قال ابنُ عاشور في معنى كلامهم : « الضَّيْرُ : مُرَادِفُ الضَّرِّ . يُقَالُ : ضَارَّهُ ،
يَضِيرُهُ ؟ ومعنى : ﴿ لَا ضَيْرٌ ﴾ : لا يصيرنا وعيدك .

ومعنى نفى ضرِّه هنا : أنه ضرُّ لحظة ، يحصل عقبه النعيم الدائم ، فهو

(١) لسان العرب: ٤/٤٩٥ .

بالنسبة لما يَعْقُبُهُ بمنزلة العَدَمِ . . وهذه طريقةٌ في النفي ، إذا قامت عليها قرينة . . ومنها قولهم : هذا ليس بشيء ، أي : ليسَ بوجود ، والمقصودُ أنَّ وجودَه كالعَدَمِ .

وجملة : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ : تعليلٌ لنفي الضَّرَرِ ، وهي القرينة على المراد من النفي^(١) .

لَسْنَا مع ابنِ عاشورٍ رحمه الله في القولِ بَأَنَّ الضَّيْرَ مُرَادِفٌ للضَّرِّ . . ونوافقه في معنى نفيهم الضَّيْرَ عنهم .

وحتى ندركَ الفَرْقَ بين الضَّرِّ والضَّيْرِ ، لا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ معنى تهديدِ فرعونَ لهم : ﴿ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَاقُطَعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَاصَلْبِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

هَدَدَهُمْ بَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ ، وَبِتَضْلِيلِهِمْ فِي جَذْوَعِ النَّخْلِ ، وَأَنْ يَسْتَمِرُّوا هَكَذَا حَتَّى يَمُوتُوا .

أليس هذا التقطيعُ والتضليلُ ضَرَرًا يُصِيبُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَأَطْرَافَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ ؟ .

بلى ! إنه ضَرَرٌ وسوءٌ وأذى ، وإنه إفسادٌ لأطرافِهِمْ ، وإهلاكٌ لأبدانِهِمْ ، وهو ضَرَرٌ ما بعده ضرر ، وأذى ما بعده أذى ، وسوءٌ بالغُ يُصِيبُ عَلَيْهِمْ ! .

فكيفَ وهم بهذا السوءِ والضَّرْرِ والأذى الذي ينتظرُهُم يَقولون : ﴿ لَا ضَيْرٌ ﴾ ! ؟ .

فكيفَ اسْتَحْدَمُوا ﴿ لَا ﴾ النافية للجنسِ للدلالة على نفي وقوعِ جنسِ الضَّيْرِ عليهم ، مهما قلَّتْ نسبتُهُ ؟ .

لم يَقْصِدُوا في قولهم : ﴿ لَا ضَيْرٌ ﴾ إلى نفي الضَّرَرِ ، فهذا سيقعُ بهم لا محالة ، ولا مجالَ لنفيه .

والذي نَرَاهُ في التفريقِ بين الضَّرَرِ المثبتِ الذي سيحلُّ بهم ، والضَّيْرِ المنفيِّ الذي لن يَصِلَ إليهم هو :

الضَّرَرُ : هو السوءُ والأذى الماديُّ ، الذي قد يُصِيبُ الإنسانَ في جسمِهِ أو

(١) تفسير ابنِ عاشور : ١٢٨/١٩ .

حواشيه ، كالمريض والعمى والعرج ، وتلف بعض الأطراف وتعطيلها ،
كالأيدي والأرجل .

وهذا ما كان سيصيب السحرة ، حيث ستقطع أيديهم وأرجلهم ،
وسيصلبون في جذوع النخل ، وسيبقون هكذا حتى يموتوا . إن هذا ضررٌ
وأذى ، لكنه مادّي خارجي .

أمّا الضير فإنه السوء والأذى المعنوي ، الذي لا يصب الإنسان في
جسمه ، وإنما يصبه في قلبه وروحه ، ومشاعره ، وأحاسيسه ، وأفكاره
وتصوراته ، يصبه في نفسه وأعصابه ، وفي عزمته وهمة وإرادته ، فيتخلى
عن مواقفه وثباته ورجولته ، وعن شجاعته ومواجهته ، ويضعف ويجبن
ويذل وينهزم .

المشكلة ليست في الضر البدني الخارجي ، فهذا يستعان عليه بالله ،
ويواجهه بالصبر والاحتساب ، ولكن المشكلة في الضير المعنوي ، الذي
يصب الأرواح والقلوب والعزائم والهمم ، وإذا لم يصب المؤمن بالضير في
روحه وقلبه ، فإنه يبقى ثابتاً على الحق ، ويتحمل ما يلاقه من ضر أو سوء
أو أذى .

والذي جعل السحرة المؤمنين يتحملون الضر ، ويسلمون من الضير هو
نظرتهم إلى الآخرة ، ورغبتهم في كونهم من السابقين الأوائل : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنْقَلِبُونَ ﴾ . إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ .

ويؤكد هذا المعنى قولهم الذي أخبرنا الله عنه في سورة طه : ﴿ قَالُوا لَنْ
نُؤْتِكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ﴾ . إِنَّمَا بَرِينَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿
[طه : ٧٢ - ٧٣] .

المرّة الثانية : فعل مضارع منفي ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ ﴾ :

قال تعالى : ﴿ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهَتْ سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ
تَصْرَبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾
[آل عمران : ١٢٠] .

الآية في سياق تحذير المسلمين من عداوة الكفار لهم ، وإرشادهم إلى وسيلة عدم التأثر بتلك العداوة .

والوسيلة في الآية هي الصبر والتقوى : ﴿ وَإِنْ تَصِيرُوا أَتَقَوُّوْا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ ﴾ . ﴿ إِنَّ ﴾ : حرف شرط . و ﴿ تَصِيرُوا ﴾ : فعل مضارع مجزوم ، لأنه فعل الشرط . و ﴿ تَقَوُّوْا ﴾ : معطوف على ﴿ تَصِيرُوا ﴾ مجزوم مثله . وجملة ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ : جواب الشرط .

وفي ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ ﴾ قراءتان عشرين صحيحتان ؛ على إحدى القراءتين تكون من مادة «ضير» التي نتحدث عنها هنا . . . وعلى القراءة الثانية تكون من مادة «ضَرَر» التي سبق أن تحدثنا عنها .

الأولى : قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب : « لَا يَضُرُّكُمْ » .

الفعل على هذه القراءة من مادة «ضير» . وأساس الفعل المضارع : «يَضِيرُ» . ولكنه في الآية مجزوم لأنه جواب الشرط : «يَضِيرُكُمْ» . . والياء منه محذوفة ، لالتقاء الساكنين . فصار «يَضُرُّكُمْ» ، وبما أن المحذوف منه عين الكلمة - التي هي الياء - فإن الفعل على وزن «يَفْلُكُم» . . . و«كُم» في محل نصب مفعول به مقدم . و ﴿ كَيْدُهُمْ ﴾ : فاعل مؤخر .

والمعنى على هذه القراءة العشرية الصحيحة : كيد الأعداء قد يوقع الأذى بكم ، ولكنه أذى خارجي مادي ، يُصِيبُ أجسامكم وأموالكم ، وهذا محتمل ، تواجهونه بالصبر والاحتساب والتقوى .

لكن هذا الأذى لن «يَضِيرُكُمْ» . أي : لن يكون أذى معنوياً ، ولن يُصِيبَ أرواحكم وقلوبكم ، ولن يُضَعِفَ هممكم وعزائمكم ، فأنتم في مأمن من جهته .

ومما يشهد لهذه القراءة قوله تعالى عن السحرة المؤمنين ، الذي حللناه قبل قليل : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ .

ومما يشهد لها قوله تعالى في الحديث عن عدم نجاح الكفار في الإضرار

بالمسلمين إلا بالأذى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ ۖ وَإِنْ يَفْعَلُوا لَكُمْ يُؤَلُّوكمُ الْأَذْيَارَ﴾^ط
 [آل عمران: ١١١]. فالأذى هو الضرر الخارجي ، وليس الضير الداخلي
 الخطير .

والكلمة على هذه القراءة العشرية الصحيحة تدخل في مادة «ضير» ،
 ولهذا تكلمنا عنها هنا .

ومن باب استكمال التحليل والفائدة نُوجِّهُ القراءة الأخرى .

القراءة الثانية: قراءة الستة الباقين : حمزة وعاصم والكسائي وأبي جعفر
 وابن عامر وخلف : ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ .

الفعل على هذه القراءة من مادة «ضَرَرُ» التي تحدثنا عنها . . والضَرَرُ هو
 الأذى الخارجي المادي ، والسوء الذي يُصيبُ المسلمين .

تنفي الآية إمكانية إضرار كيد الكفار المسلمين ، فهم يُعادونهم
 ويُحاربونهم ، ويكيدون ضدهم ، ويتآمرون عليهم ، لكن هذا الكيد لن
 يَضُرَّهُم ولن يُؤثر فيهم ، إلا أذىً خارجياً بسيطاً ، قال الله عنه : ﴿لَنْ
 يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ ۖ﴾ .

لكن على هذه القراءة الصحيحة إشكال نحوي :

هل فعل ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ مرفوعٌ أو مجزوم؟ فإن كان مرفوعاً فأين جواب
 الشرط؟ وإن كان مجزوماً فلماذا عليه الضمة وليس السكون؟ .

لن ندخل هنا في استعراض الأقوال الكثيرة في توجيه ذلك ، ونرجح أن
 جملة ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْعًا﴾ جواب الشرط ، وأنه مجزوم .

أصل ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ : يَضُرُّكُمْ ؛ الراء الأولى مضمومة على الأصل ، لأنَّ
 فَعَلَ «يَضُرُّ» ، من باب «يَنْضُرُّ» فهو مضموم العين . . والراء الثانية مجزومة
 بسبب السكون ، لأنَّ الفعل جواب الشرط .

وَضُمَّتِ الراء الثانية الساكنة ، لتُناسب الراء الأولى المضمومة ، فصارَ
 الفِعْلُ : «يَضُرُّكُمْ» ، وهذه الحركة تُسَمَّى «حركة إنباع» ، أي أَنَّ الراء الثانية

تَبِعَتِ الرَّاءَ الْأُولَى فِي حَرَكَتِهَا . . ولما اجْتَمَعَ عِنْدَنَا رَاءَانِ مَضْمُومَتَانِ أُدْغِمَتَا
مَعًا ، فَصَارَ الْفِعْلُ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ .

فتقولُ في إعرابِ ﴿يَضُرُّكُمْ﴾ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ لأنه جوابُ
الشرطِ ، لكِنَّهُ حُرِّكَ بِالضَّمِّ لِلإِتْبَاعِ ، وَالإِدْغَامُ فِيهِ إِدْغَامُ الْمُتَمَاثِلِينَ .
وَاللَطِيفُ الرَّائِعُ فِي آيَةِ : ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ أَنَّ الْكَلِمَةَ تَحْتَمِلُ مَادَّتَيْنِ : مَادَّةَ
«ضَيْرٍ» ، وَمَادَّةَ «ضَرَرٍ» . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى رُوعَةِ الإِعْجَازِ الْبَيَانِيِّ فِي الْقُرْآنِ .



الفصل العاشر

مع سورة الإخلاص

سورة الإخلاص من أواخر السُّور ، حسب ترتيب المصحف ، وليس بعدها في المصحف إلا سورة الفلق وسورة الناس .

وهي السورة الوحيدة في القرآن التي لم يُذكر اسمها في إحدى كلمات آياتها . ومن المعلوم أنّ أسماء السور توقيفية ، بأمر من الله ، وأنّ اسم السورة يُؤخذ من شيء مذكور فيها ؛ إلا هذه السورة ، فكلمة الإخلاص لم ترد في آياتها .

اسمان للسورة:

للسورة اسمان توقيفيان :

الأول: سورة الإخلاص : وهو أشهرُ أسمائها ، والله هو الذي أمر أن تُسمّى بهذا الاسم . وسمّيت بهذا الاسم لأنها تُعلّم المسلمين الإخلاص في العقيدة ، وتعرّفهم على أسماء الله وصفاته . . فهو أحدٌ ، صمدٌ ، لا مثيل له .

الثاني: سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : وذلك بإطلاق أولى آياتها اسماً لها ، وسمّاها بذلك رسول الله ﷺ .

من فضائل السورة:

سورة الإخلاص من أفاضل سور القرآن ، ووردت في فضلها عدة أحاديث صحيحة ، منها :

أ - روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أنّ رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُردّها ، فلما أصبح جاء إلى

رسول الله ﷺ ، فذكر له ذلك ، وكان الرجل يتفألها! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن»!

ها هو أحد الصحابة يحب سورة الإخلاص ، ويرددها باستمتاع وتفاعل ، ويعيدها ويكررها من محبته لها . وها هو أحد إخوانه يكره عليه ذلك ، وكأنه وجدها سورة قليلة الآيات والكلمات! فلما كلم النبي ﷺ بذلك ، أقسم له رسول الله ﷺ أن هذه السورة القصيرة تعدل ثلث القرآن!

وليس معنى هذا أن من قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله ، ولكنها تعدل ثلث القرآن من حيث المعنى ، وذلك لأن موضوعات القرآن الأساسية ثلاثة: عقيدة ، وعبادة ، وقصص . وسورة الإخلاص سورة عقيدة ، فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار .

ب - روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم ، فيختم بسورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾! فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ . فقال: «سلوه ، لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه . فقال: لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها!! فقال ﷺ: «أخبروه أن الله يحبها» .

ج - روى البخاري والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم بها في الصلاة ، افتتح ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة . فكلمة أصحابه ، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تجزئك ، حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى . فقال: ما أنا بتاركها ، إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره . . . فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه . فقال له: «ما يمنعك يا فلان أن تفعل ما يأمرك أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها . قال: «حُبك إياها أدخلك الجنة» .

د - روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: قالت: كان رسول الله ﷺ إذا

أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كَفَيْهِ ، ثم نَفَثَ فِيهِمَا ، وقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، ثم يمسحُ بهما ما استطاعَ من جَسَدِهِ ، يبدأُ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبلَ من جَسَدِهِ .

هـ - من السُّنَّةِ : أن يقرأ المصلي بسورة الإخلاص ، في الركعة الثانية من سُنَّةِ الفجرِ وسُنَّةِ المغرب ، بعد قراءة الفاتحة ، وأن يقرأ بها مع المعوذتين في الركعة الثالثة من صلاة الوتر . . كما أنه من السُّنَّةِ أن يقرأ المسلم سورة الإخلاص بعد أن يفرغَ من صلاة الفريضة ، وكلَّ يومٍ في الصباح والمساء .
وَدَلَّتْ هذه الأحاديثُ على أن سورة الإخلاص من أفضلِ سُورِ القرآن .

نزول السورة:

الراجحُ أنَّ سورة الإخلاصِ مَكِّيَّةٌ ، ومن أوائلِ ما نَزَلَ بمكة . وعدَّها بعض العلماءِ السورةَ الثانيةَ والعشرين ، حسبَ ترتيبِ النزولِ . . وقد كان نزولُها بعد المعوذتين : سورة الفلق وسورة الناس .

وذكرَ عبدُ الله بنُ مسعودٍ وجابرُ بنُ عبدِ الله وأبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنهم : أن كُفَّارَ قريشٍ قالوا للنبيِّ ﷺ : يا محمد! انسُبْ لنا ربَّك! فانزلَ اللهُ هذه السورة ، يخبرهم فيها بأنَّ الله هو الأحدُ الصَّمَدُ .

وهذه السورةُ مكوَّنةٌ من أربعِ آياتٍ ، تَلْتَمِي كُلُّها على تقريرِ وحدانيةِ الله ، وتَفَرِّدُهُ سبحانه في أسمائه وصفاته وأفعاله .

وفيما يلي تحليلاتٌ شاملةٌ لآياتِ السورة :

١ - قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ :

بدأت الآيةُ بفعلِ الأمرِ : ﴿ قُلْ ﴾ ، وهذا الأمرُ مُوجَّهٌ إلى رسولِ الله ﷺ في المقامِ الأوَّلِ ، لكنَّه ليس خاصًّا به ، وإنما هو عامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ عالمٍ وداعيةٍ من بعده ، يَقُولُ هذا الكلام ، ويتلو آياتِ السورةِ على الناسِ ، ليتعرَّفوا على وحدانيةِ الله .

وحكمةُ بدءِ السورةِ بفعلِ الأمرِ ﴿ قُلْ ﴾ أنها نازلةٌ جواباً على السؤالِ الذي

وَجَّهَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَائِلِينَ لَهُ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ. فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمُ الْجَوَابَ.

وَيُمْكِنُ تَسْمِيَةُ ﴿قُلْ﴾ بِاسْمِ «قُلِ التَّلْقِينِيَّةِ» . . وَالتَّلْقِينُ هُوَ الْإِلْقَاءُ وَالتَّحْفِيزُ وَالتَّعْلِيمُ. تَقُولُ: فُلَانٌ يُلْقِنُ فُلَانًا؛ أَي: يُلْقِي إِلَيْهِ الْكَلَامَ بِاللَّفْظِ، لِيَحْفَظَهُ وَيُرَدِّدَهُ مِنْ بَعْدِهِ.

و﴿قُلْ﴾ التَّلْقِينِيَّةُ أَصِيلَةٌ فِي بَدَايَةِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَيْسَتْ لَعْوًا أَوْ حَشْوًا أَوْ زَائِدَةً. . وَكَمْ ضَلَّ وَانْحَرَفَ ذَلِكَ الزَّعِيمُ الَّذِي ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْهَا فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، وَدَعَا إِلَى إِسْقَاطِهَا وَحَذْفِهَا! وَنَعْلَمُ أَنَّ حَذْفَ كَلِمَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ تَحْرِيفٌ لَهُ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ!

وَيُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ ﴿قُلْ﴾ التَّلْقِينِيَّةِ الْإِشَارَاتِ التَّالِيَةِ:

- إِنَّهَا دَاخِلَةٌ عَلَى آيَةٍ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْعَقِيدَةِ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْحَقَائِقَ الْإِيمَانِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ وَحْيٌ وَتَلْقِينٌ مِنَ اللَّهِ، لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَهُ وَيُبَلِّغَهُ لِلْآخِرِينَ.

وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ مَسَائِلَ الْعَقِيدَةِ وَمُضَامِينَهَا تَلْقِينِيَّةٌ، وَلَا يَجُوزُ لِلْبَشَرِ - مَهْمَا كَانُوا عَبَايِرَةً - أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ، وَيُؤَلِّفُوهَا وَيَخْتَرَعُوهَا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ. . وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَتَلَقَّوْهَا مِنَ الْوَحْيِ، وَلِهَذَا أَسْمَاها عِلْمَاؤُنَا السَّابِقُونَ «السَّمْعِيَّاتِ»؛ أَيَّ أَنَّهَا تُوَخَّذُ بِالتَّلْقِينِ عَنِ طَرِيقِ السَّمْعِ، وَدَوْرُ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ الْوَاعِي هُوَ فِي فَهْمِ النُّصُوصِ التَّلْقِينِيَّةِ، وَإِحْسَانُ اسْتِخْرَاجِ حَقَائِقِ الْعَقِيدَةِ مِنْهَا.

- تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ. . فَعِنْدَمَا يَتْلُو عَلَيْهِمُ الْآيَةَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَهُوَ يَصْرَحُ بِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي يَسْمَعُونَهُ مِنْهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِهِ أَوْ تَأْلِيفِهِ أَوْ اخْتِيَارِهِ، إِنَّمَا هُوَ وَحْيٌ وَتَلْقِينٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ.

وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَصَالَةَ وَأَهْمِيَّةَ وَوُضُفَةَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ حَشْوًا أَوْ زَائِدَةً.

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ : هذه الجملة «مقول القول» ؛ أي أنها في محل نصب مفعول به لفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ ، لأنها وما بعدها هو القول الذي أمر أن يقوله .

﴿هُوَ﴾ : ضميرٌ منفصل ، في محل رفع مبتدأ ؛ وهو ضمير «الشأن» ، ويؤتى به للاهتمام بالجملة التي بعده ، فإذا سمعه السامع انتبه لسماع ما بعده ، لأن ما بعده له شأن كبير ؛ ولذلك سُمِّيَ بأنه ضمير الشأن . كأنه قيل : الشأن هو : الله أحد .

﴿اللَّهُ﴾ : لفظ الجلالة خبرٌ أول مرفوع .

﴿أَحَدٌ﴾ : خبرٌ ثانٍ مرفوع .

من لطائف الآية :

يمكن الالتفات إلى اللطائف التالية في الآية :

١ - بدؤها بضمير الشأن ﴿هُوَ﴾ :

لإثارة الاهتمام بما بعد الضمير ، فعندما يسمع السامع ضمير ﴿هُوَ﴾ ، ينتبه ويتطلع لما بعده ، فيأتيه الجواب : ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

٢ - أخبرت الآية عن الله بأنه ﴿أَحَدٌ﴾ :

وهذا الاسم مشتق من مادة «وَحَدٌ» التي تدل على التميز والتوحيد والانفراد . وأصل ﴿أَحَدٌ﴾ وَحَدٌ ، ولكن الواو أبدلت همزة للتسهيل .

تقول : وَحَدَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ ؛ أَي : تَمَيَّزَ وَتَفَرَّدَ فِيهِ . واسمُ الفاعل منه «واحد» ؛ تقول : وَحَدَ ، فهو واحدٌ ، وتقول : هو واحدٌ في صفاته ، أَي : متميزٌ فيها ، لا يكاد يُشبهه فيها أحد .

ومؤنث «واحد» : واحِدَةٌ . ومؤنث ﴿أَحَدٌ﴾ : إِحْدَى .

ومن ورود «واحد» في القرآن قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُكُمُ إِلَهٌ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ١٦٣] .

ومن ورود «وَحَدٌ» في القرآن قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [غافر : ٨٤] .

ومن ورود «واحدة» في القرآن قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومن إطلاق «أحد» على غير الله في القرآن قوله تعالى: ﴿لَا نُفِرُّ بِكَ أَحَدٌ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقد يُصاف «أحد» إلى المثنى ، كما في قوله تعالى: ﴿فَنُقِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَلْ مِنَ الْآخِرِ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقد يُصاف إلى الجمع ، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ [الأنعام: ٦١].

ومن ورود «إحدى» مؤنث «أحد» في القرآن ، قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

وليس هذا موضع ذكر الفروق بين الكلمات الخمس في القرآن: أَحَدٌ ، وَحَدٌ ، وَاحِدٌ ، وَاحِدَةٌ ، إِحْدَى .

٣- الفرق بين «أحد» و«واحد»:

«واحد»: اسمُ فاعل . و«أحد»: صفةٌ مشبَّهةٌ على وَزْنِ «فعل» . . ومعلوم أنَّ الصفة المشبَّهة تدلُّ على تَمَكُّنِ الصفة في الموصوف أكثر من اسمِ الفاعل .
إنَّ وُضِعَ اللهُ بِأَنَّهُ ﴿أَحَدٌ﴾ أبلغ من وَضَعِهِ بِأَنَّهُ «واحد» .

وعندما نقول: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؛ فَإِنَّ معناه أَنَّهُ متفرِّدٌ متوحدٌ ، متميِّزٌ بأسمائه وصفاته وأفعاله ، لا مثيل له ولا شبيهه ، ولا ثاني ولا ثالث .

وعندما نقول: اللهُ وَاحِدٌ ؛ فَإِنَّ معناه أَنَّهُ واحدٌ فقط ، وليس مُتَعَدِّدًا .

﴿أَحَدٌ﴾: بالنسبة إلى ذاته ، متوحدٌ في ذاته وصفاته . . و«واحدٌ» بالنسبة إلى غيره . ثم إنَّ «واحدٌ» مُفْتَتِحُ العَدَدِ ، دون «أحد» . فأنْت تقول: واحد ، اثنان ، ثلاثة . ولا تقول: أحد ، اثنان ، ثلاثة .

وقد التقت الصحابة إلى التفريق بين «أحد» ، و«واحد» . وأنَّ الأولى أبلغ من الثانية ، ولذلك كان بلالٌ رضي الله عنه يجهرُ بها ، ويُسمِعُها للمشركين . . عندما كانوا يُعذِّبونَه ، ويَطْرَحونَه على رَمْلِ الصَّحراءِ الحارِقِ ، في الصيف

الحارّ ، وَيَضَعُونَ عَلَى صَدْرِهِ صَخْرَةً ، ويقولون له : سَتَبَقِي هكذا حتى تكفر
بمحمد - ﷺ - أو تموت . . كان يقول لهم : أَحَدٌ ، أَحَدٌ . . . ويقول لهم : لو
أعلمُ كلمةً تُغَيِّظُكُمْ أَكْثَرَ مِنْهَا لَقُلْتُهَا !! .

لقد كان بلالٌ رضي الله عنه يدركُ ببصيرته الإيمانية النافذة أَنَّ «أَحَدًا» أبلغُ
من «واحدٍ» ، وَأَنَّ الكفَّارَ كانت تُغَيِّظُهُمْ كلمةُ «أَحَدٍ» أَكْثَرَ مِنْ كلمةِ «واحدٍ» .

٤ - حكمة تنكير ﴿أَحَدٌ﴾ :

اللافتُ للنظر في الآية : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَنَّ فيها خبرين : الخبر
الأوّلُ : لفظُ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ ، وهو معرفة . والخبر الثاني : ﴿أَحَدٌ﴾ ،
وهو نكرة .

ومن أهمِّ حِكَمِ تَنكِيرِ ﴿أَحَدٌ﴾ :

- لقد تمَّ تعريفُ طرفي الجملة الاسمية ، المبتدأ والخبر : ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ .
وناسبَ هذا تنكير الخبر الثاني ﴿أَحَدٌ﴾ . . . ولعلَّ من غير المناسبِ هنا ذِكْرُ
ثلاثِ كلماتٍ مُعَرِّفاتٍ : «هو الله الأحد» . . ومجيء نكرة بعد معرفتين جمالُ
قرآني ملحوظ !! .

- تنكيرُ ﴿أَحَدٌ﴾ للتفخيم والتعظيم والتكريم ، فلله الأحديَّة العظيمة ،
التي تليقُ بجلاله وعظمتِهِ سبحانه .

- تنكيرُ ﴿أَحَدٌ﴾ يُشيرُ إلى أنه مهما عَرَفَ المؤمنونَ ربهم ، وتعرَّفوا على
أسمائه وصفاته ، فإنه يستحيلُ عليهم أَنْ يُحيطُوا به عِلْمًا . وعلى هذا قوله
تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه : ١١٠] .

٥ - وَرَدَتْ ﴿أَحَدٌ﴾ أربعاً وسبعين مرةً في القرآن :

جاءتُ أحياناً مُثَبِّتَةً ، وغالباً مَنْفِيَّةً ، ومجرّدةً عن الإضافة أحياناً ، ومضافةً
للاسمِ أو الضمير أحياناً .

لكنها لم تردْ خبراً عن الله إلا مرةً واحدةً ؛ في سورة الإخلاص ؛ وهذا من
روائع اللطائف .

٢ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾:

هذه الآية الثانية من سورة الإخلاص ، جملة اسمية: ﴿اللَّهُ﴾: لفظ الجلالة مبتدأ. و﴿الصَّكْمُ﴾: خبر.

و﴿الصَّكْمُ﴾: صفةٌ مشبهةٌ ، على وزن «فعل» ، وهي بمعنى اسم المفعول: «مضمود». ولم ترد هذه الكلمة في غير هذا الموضع من القرآن. و﴿الصَّكْمُ﴾: القصد.

قال الراغب الأصفهاني: ﴿الصَّكْمُ﴾: السَّيِّدُ ، الذي يُصَمِّدُ إليه في الأمر ، وصمده: قصده ، مُعْتَمِداً عليه. وقيل: الصَّمْدُ: الذي ليس له جَوْفٌ^(١).

يُقال: فلانٌ صَمْدٌ ؛ إذا كان يَقْصِدُهُ الآخرون ، وهو السَّيِّدُ المطاعُ فيهم . . والمضمودُ: المقصودُ. ومن لغتنا الدارجة: العروسُ مضمودةٌ ؛ لأنَّ الأنظارَ تقصدها وتتوجَّهُ إليها.

ف﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾: هو المقصودُ ، يقصدهُ المخلوقون جميعاً ، ويتوجَّهون إليه ، ويطلبون منه قضاء حاجاتهم . . وهو سبحانه يَسْتَجِيبُ لهم . قال ابنُ عاشور: «الصَّمْدُ: من صفاتِ الله ، واللهُ هو الصَّمْدُ الحقُّ ، الكاملُ الصمديَّة . والصَّمْدُ من أسماءِ الله التسعة والتسعين .

ومعنى ﴿الصَّكْمُ﴾: هو المفتقرُ إليه كُلُّ ما عداه ؛ فالمعدوم مفتقرٌ وجوده إليه ، والموجودُ مفتقرٌ في شؤونه إليه .

وقد كَثُرَتْ عباراتُ المفسِّرينَ من السلفِ في معنى الصَّمْدِ ، وكلُّها مندرجةٌ تحت هذا المعنى الجامع ، وقد أنهاها فخرُ الدين الرازي إلى ثمانية عشر قولاً . . ويشملُ هذا الاسمُ صفاتِ الله المعنوية الإضافية ، وهي كونه تعالى: حياً ، عالماً ، مُريداً ، قادراً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً . . لأنه لو انتفى عنه أحدُ هذه الصفاتِ لم يكن مضموداً إليه . .^(٢)

(١) مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٩٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور: ٦١٧/٣٠ .

إِنَّ كُلَّ المَخْلُوقَاتِ فقيرةٌ محتاجةٌ إليه ، وهو سبحانه غنيٌّ عنها . . يُعْطِيهَا ما يَشَاءُ ، ولا يُنْقِصُ ذلكَ من مُلكه شيئاً ، كما قالَ في الحديثِ القدسيّ : «يا عبادي : لو أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ ، وَإِنْ سَأَلْتُمْ وَجِئْتُكُمْ ، قاموا في صعيدٍ واحدٍ ، فسألوني ، فأعطيتُ كُلَّ واحدٍ ما سألَ ، ما نقصَ ذلكَ مما عِنْدِي إلَّا كما يُنْقِصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ» .

بين الأَحدِ والصَّمَدِ :

الأحد والصمد : اسمانِ مِنَ أسماءِ الله ، وَرَدَا في آيَتينِ متتابعَتينِ ، فيهما ثناءٌ على الله ، لكنَّ كلاً منهما يَخْتَصُّ بِمجالٍ مهمٍّ من مجالاتِ الثناءِ على الله ، فهما متكاملان في ذلك :

﴿ أَحَدٌ ﴾ : صفةُ كمالِ الله في ذاته : فهو صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ ، بمعنى اسمِ الفاعلِ «واحد» ؛ فاللهُ واحدٌ أحدٌ ، متميِّزٌ في ذاته وصفاته ، لا يُشَبَّهُه أَحَدٌ في هذه الأَحَدِيَّةِ . . ولذلك جاءَتْ ﴿ أَحَدٌ ﴾ نكرةً ، والتنكيرُ هنا للتعظيمِ والإِحلالِ .

﴿ الصَّمَدُ ﴾ : صفةُ كمالِ الله مع غيره : وهي صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ ، بمعنى اسمِ المفعولِ : «مضمود» . يقصدهُ وَيَتَوَجَّهُ إليه جَمِيعُ المخلوقينِ .

ومن اللطائفِ بين الأَحدِ والصَّمَدِ ما يلي :

١ - كُلُّ منهما صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ على وَزْنِ «فَعَلَ» .

٢ - ﴿ أَحَدٌ ﴾ : نكرةٌ للتعظيمِ . . و﴿ الصَّمَدُ ﴾ : معرفةٌ للتَّخْصِيسِ .

٣ - فُصِّلَتْ جملةُ : ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ عن جملةِ : ﴿ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ، ولم تُعْطَفْ بحرفِ العطفِ ، فلم يَقُلْ : «قل هو الله أحد ، والله الصمد» ، لتكونَ كلُّ آيةٍ مستقلةً بذاتها ، وتكونَ كُلُّ صِفَةٍ مستقلةً بذاتها .

٤ - عَبَّرَ بالاسمِ البارزِ بَدَلَ الضميرِ ، فقال : ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ ، ولم يَقُلْ : هو الصَّمَدُ ؛ للتَّمَدُّحِ بِذِكْرِ اسمِ ﴿ اللهُ ﴾ المباركِ ، وللإشارةِ إلى تَخْصِيسِ الصَّمَدِيَّةِ بجملةٍ خاصَّةٍ لتقريرِ أهميَّتها .

٥ - ﴿ أَحَدٌ ﴾ : بمعنى اسمِ الفاعل «واحدٌ» ، والصَّمَدُ بمعنى اسمِ المفعول «مضمود» .

٦ - ﴿ أَحَدٌ ﴾ : صفةُ ذات ، و﴿ الصَّمَدُ ﴾ : صفةُ فعل .

٣ - قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ ﴾ :

بعد أن أثبت الله لنفسه الكمال في ذاته وصفاته في الآيتين السابقتين ، نفى عنه النقص في هذه الآية ، فهو سبحانه لم يلد مولوداً ، ولم يلد له والد .

والآية جملة فعلية ، في محل رفع خبر ثالث عن الله . وقد فصلت عن الآية السابقة ، ولم تُعطف عليها بحرف العطف ، فلم تقل : «الله الصمد ، ولم يلد» . وحكمة عدم العطف هنا تقرير استقلال نفي النقص عن الله ، وعدم عطفه على ما قبله ! .

﴿ لَمْ ﴾ : حرف جزم . و﴿ يَكِدْ ﴾ : فعل مضارع مجزوم . والفاعل تقديره «هو» يعود على ﴿ الله ﴾ ، والمفعول به محذوف ، والتقدير : «مولوداً» . والجملة في محل رفع خبر ثانٍ . والتقدير : الله الصمد غير والد .

و«الواو» حرف عطف ، والجملة الفعلية ﴿ لم يولد ﴾ : معطوفة على جملة ﴿ لم يكِدْ ﴾ . و﴿ يُولِّدْ ﴾ : فعل مضارع مجزوم ، وهو مبني للمجهول . ونائب الفاعل تقديره «هو» ، يعود على الله . والتقدير : الله الصمد ، غير والد ، وغير مولود .

وهذه الآية ردُّ على الكافرين ، الذين جعلوا لله أولاداً وبنات ، وهي كقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ [١٤٩] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ [١٥٠] أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ [١٥١] وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [١٥٢] أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ [الصفات : ١٤٩ - ١٥٣] .

وقد كان المشركون يقولون : وَلَدَ اللَّهُ الْبَنَاتُ ، وَهُنَّ الْمَلَائِكَةُ ، فَكَذَّبْتَهُمْ جملة ﴿ لم يكِدْ ﴾ . كما كذبهم الله في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَخِيبًا شَاهِدَتْهُمْ وَمِيسَاتُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] .

وجعل اليهود والنصارى الولد لله ، فكذبتهم جملة ﴿ لم يكِدْ ﴾ ، كما

كَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ...﴾ [التوبة: ٣٠].

وَيُنَاقِشُ الْقُرْآنُ نِسَبَةَ الْوَالِدِ لِلَّهِ مَنَاقِشَةً عَقْلِيَّةً ، لِيُبَيِّنَ لِلْمُشْرِكِينَ سُوءَ زَعْمِهِمْ ، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْوَالِدَ لَا يَأْتِي لِلرَّجُلِ إِلَّا مِنْ صَاحِبَةٍ ، فَمِنْ أَيْنَ لِلَّهِ الْوَالِدُ ، وَهُوَ لَيْسَ لَهُ صَاحِبَةٌ ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وَمِنْ بَابِ اسْتِكْمَالِ نَفْيِ النِّقْصِ عَنِ اللَّهِ ، فَقَدْ نَفَتْ عَنْهُ الْآيَةُ أَنَّ يَكُونَ مَوْلُودًا: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾. فَاللَّهُ لَيْسَ أَصْلًا يَنْفَرَعُ عَنْهُ غَيْرُهُ ، وَهُوَ لَيْسَ فَرْعًا يَتَفَرَعُ عَنْ غَيْرِهِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَيْسَ لَهُ وَالِدٌ وَلَا وَالِدَةٌ.

وَجُمْلَةٌ ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ رَدُّ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ أَلْهَوْا عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا وَأُمُّهُ مَرْيَمُ هِيَ الَّتِي وَلَدَتْهُ؟ وَالْإِلَهَ لَا يُولَدُ. وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَنْبِيُّ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

من لطائف الآية:

تتكوّن الآية من جملتين فعليّتين ، عَطِفتَ فِيهِمَا الثَّانِيَةُ عَلَى الْأُولَى .
ويمكنُ الإِشَارَةُ إِلَى اللَّطَائِفِ التَّالِيَةِ:

١ - تَرْتِيبُ الْآيَةِ خَاصًّا ، لَيْسَ عَلَى أَسَاسِ التَّرْتِيبِ الْبَشَرِيِّ لِلْوِلَادَةِ ، فَالْإِنْسَانُ يُولَدُ أَوَّلًا ، وَبَعْدَمَا يَكْبُرُ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةُ فَيَأْتِيهِ الْوَالِدُ ، وَلَوْ كَانَ تَرْتِيبُهَا عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ لَقَالَتْ: لَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَلِدْ .

وَلَعَلَّ حِكْمَةَ مَخَالَفَةِ التَّرْتِيبِ الْبَشَرِيِّ التَّأَكِيدُ عَلَى أَحَدِيَّةِ اللَّهِ وَتَفَرُّدِهِ ، وَعَدَمُ مِشَابَهَتِهِ لِخَلْقِهِ. . . وَبَرَزَ هَذَا حَتَّى فِي نَفْيِ النِّقْصِ عَنْهُ . وَلِذَلِكَ قَدَّمَتِ الْآيَةُ نَفْيَ وِلَادَتِهِ لغيرِهِ عَلَى نَفْيِ وِلَادَةِ غَيْرِهِ لَهُ .

٢ - الفعل المضارعُ: ﴿يَكِدُّ﴾ مُعَدَّةٌ إِلَى المفعولِ بهِ . تقول: وَوَلَدَ الرَّجُلُ طِفْلاً . . وَلَكِنَّ مَفْعُولَهُ مَحذُوفٌ فِي الجُمْلَةِ الأُولَى مِنَ الآيَةِ: ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ ، وَحِكْمَةٌ حَذَفِ المفعولِ بِهِ المبالغةُ فِي تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنِ النقصِ .

٣ - أُدخِلَ حَرْفُ الجُزْمِ ﴿لَمْ﴾ عَلَى كُلِّ جُمْلَةٍ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ﴾ وَحِكْمَةٌ تَكَرَّرَهُ وَإِدْخَالُهُ عَلَى الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ ، إِعْطَاؤُهَا نَفِيًّا مُسْتَفِلاً ، تَأْكِيداً لِنَفْيِ النقصِ عَنِ اللَّهِ . وَفَرْقٌ بَعِيدٌ بَيْنَ قَوْلِكَ: «لَمْ يَلِدْ وَيُوَلِّدْ» وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ﴾ .

٤ - ذُكِرَ الفعلُ المضارعُ فِي الآيَةِ مَرَّتَيْنِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمَا عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ: كَانَ فِي الجُمْلَةِ الأُولَى مَبْنِيًّا لِلْمَعْلُومِ. ﴿لَمْ يَكِدْ﴾ ، وَصَارَ فِي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ: ﴿وَلَمْ يُوَلِّدْ﴾ ؛ وَهَذَا جَمَالٌ بَيَانِيٌّ مَلْحُوظٌ .

أَيُّ أَنَّ الفَاعِلَ العَائِدَ عَلَى اللَّهِ فِي الجُمْلَةِ الأُولَى ، صَارَ مَفْعُولاً بِهِ فِي الجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ ، وَعِنْدَمَا بُنِيَ الفعلُ لِلْمَجْهُولِ فِيهَا ، صَارَ هَذَا المفعولُ بِهِ نَائِبَ فَاعِلٍ .

٥ - كَانَ الضميرُ الغائبُ «هُوَ» مُسْتَرَاً فِي الجُمْلَتَيْنِ المَتَعَاظِفَتَيْنِ ، وَاسْتَتَارَهُ فِيهِمَا جَمَالٌ بَيَانِيٌّ آخَرَ .

٤ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُؤًا أَحَدٌ﴾ :

هَذِهِ الآيَةُ الرَّابِعَةُ تَنْفِي وَجُودَ كُفٍّ أَوْ مَثِيلٍ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ .

الْوَاوُ: حَرْفُ عَطْفٍ . وَجُمْلَةُ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُؤًا أَحَدٌ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ﴾ .

و﴿يَكُنْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزوم . و﴿لَهُمُ﴾: جَارٌّ وَمَجْرُورٌ مَتَعَلِّقٌ بِكَلِمَةِ ﴿أَحَدٌ﴾ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ . و﴿كُفُؤًا﴾: خَبَرٌ ﴿يَكُنْ﴾ مَنْصُوبٌ ، مُقَدَّمٌ عَلَى الأِسْمِ . و﴿أَحَدٌ﴾: اِسْمٌ ﴿يَكُنْ﴾ مُؤَخَّرٌ . . وَالتقدير: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ كُفُؤاً لَهُ .

و﴿كُفُؤًا﴾: اِسْمٌ عَلَى وَزْنِ «فُعْلٌ» ، وَهُوَ بِمَعْنَى المِكَافِئِ وَالمِثَالِ وَالمِشَابِهِ وَالمِساوِي . وَأَصْلُهُ بِالْهَمْزَةِ «كُفُؤًا» .

وَجَذَرُ الْكَلِمَةِ هُوَ «كَفَاءٌ» وَهُوَ الشَّبَهُ وَالتَّسَاوِي .

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ فِي الْمَقَائِيسِ : «الْكَافُ وَالْفَاءُ وَالْهَمْزَةُ ، يَدُلُّ عَلَى التَّسَاوِي فِي الشَّيْئَيْنِ . . . وَ : الْكِفَاءُ ؛ الْمَثَلُ . . . وَالتَّكَافُؤُ : التَّسَاوِي» (١) .

تَقُولُ : كَفَاءٌ ، يَكْفُؤُ ، كَفْتَأُ . مِنْ بَابِ : نَصَرَ ، يَنْصُرُ ، نَصْرًا . وَهُوَ : كُفُؤٌ .
أَيُّ : هُوَ شَبِيهُ وَمِثْلُ . وَقَلْبَتِ الْهَمْزَةُ وَأَوَّأَ لِلتَّخْفِيفِ وَالتَّسْهِيلِ ، فَصَارَ كُفُؤًا .

وَفِي «كُفُؤًا» ثَلَاثُ قِرَاءَاتٍ عَشْرِيَّةٍ :

الْأُولَى : رَوَايَةٌ حَفِصٍ عَنْ عَاصِمٍ : «كُفُؤًا» : بَضَمَ الْكَافِ وَالْوَاوِ ، حَيْثُ قَلْبَتِ الْهَمْزَةَ وَأَوَّأَ لِلتَّخْفِيفِ ، وَضَمَّ مَا قَبْلَ الْوَاوِ لِلتَّخْفِيفِ .

الثَّانِيَّةُ : قِرَاءَةُ حَمْزَةً وَيَعْقُوبَ وَخَلْفَ : «كُفُؤًا» بِإِسْكَانِ الْفَاءِ ، وَبِالْهَمْزَةِ ، عَلَى الْأَصْلِ .

الثَّلَاثَةُ : قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَنَافِعِ وَابْنِ عَامِرٍ وَأَبِي عَمْرٍو وَأَبِي جَعْفَرٍ وَالكَسَائِي : «كُفُؤًا» . بَضَمَ الْفَاءَ وَالْهَمْزَةَ .

وَالْقِرَاءَاتُ الثَّلَاثُ مُتَقَابِرَةٌ فِي الْمَعْنَى ، لَيْسَ بَيْنَهَا فَرْقٌ إِلَّا فِي التَّحْرِيكِ وَالتَّسْكِينِ وَالتَّسْهِيلِ وَالْقَلْبِ ، وَهَذِهِ لُغَاتٌ فِي النُّطْقِ بِالْكَلِمَةِ .

مِنْ لَطَائِفِ الْآيَةِ :

١ - إِدْخَالُ «لَمْ» عَلَى الْجُمْلَةِ ، لِإِفَادَةِ نَفْيِ نَقْصِ ثَالِثٍ عَنِ اللَّهِ نَفْيًا خَاصًّا مُسْتَقْلَلًا .

٢ - الْجُمْلَتَانِ السَّابِقَتَانِ نَفْتَا عَنِ اللَّهِ النِّقْصَ فِي ذَاتِهِ : «لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ» فَلَمْ يَنْفِصِلْ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَمْ يَنْفِصِلْ هُوَ عَنْ شَيْءٍ . . . فَهُوَ كَامِلٌ مُتَفَرِّدٌ فِي ذَاتِهِ .

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ نَفَتْ وُجُودَ مُشَابِهٍ أَوْ مَسَاوٍ لَهُ سَبْحَانَهُ ، لِأَنَّهُ وَحْدَهُ خَالِقٌ ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ كُفُؤًا لِلْخَالِقِ .

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ص ٩٣ .

٣ - هذه الآية تعليلٌ للآياتِ الثلاثِ التي قبلها:
 لماذا اللهُ أَحَدٌ؟ لأنه: لم يكنْ له كُفُوًّا أَحَدٌ.
 ولماذا اللهُ الصَّمَدُ؟ لأنه: لم يكنْ له كُفُوًّا أَحَدٌ.
 ولماذا اللهُ لم يَلِدْ؟ لأنه: لم يكنْ له كُفُوًّا أَحَدٌ.
 ولماذا اللهُ لم يُولَدْ؟ لأنه: لم يكنْ له كُفُوًّا أَحَدٌ.

٤ - في الآيةِ تقديمانِ لطيفانِ:

الأول: تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿لَمْ﴾ على ﴿أَحَدٌ﴾. والأصلُ تأخيرها:
 ولم يكنْ أَحَدٌ كُفُوًّا له. وحكمةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ أنها هي الأهمُّ ، لأنَّ فيها
 ضميراً يعودُ على اللهُ ، وهو المقصودُ من السورة.

الثاني: تقديمُ خبرِ «كان» على اسمِها، والأصلُ ذكرُ الخبرِ متأخراً: ولم
 يكنْ أَحَدٌ كُفُوًّا له. وحكمةُ تقديمِ الخبرِ هو التأكيدُ على نفيِ المشابهةِ
 والمماثلةِ والتكافؤِ.

ومن حكمِ تأخيرِ اسمِ كانَ ﴿أَحَدٌ﴾ هو التوافقُ مع فواصلِ آياتِ
 السورة ، لأنَّ فاصلتها دالٌّ ساكنةٌ مُقْلَقَةٌ قَلْقَلَةٌ كبرى.

لطائفِ بيانيةِ في آياتِ السورة:

في هذه السورةِ القصيرةِ ، المكوّنةُ من أربعِ آياتٍ ، مجموعةٌ من اللطائفِ
 البيانيةِ الرائعةِ ، سجّلنا بعضها أثناءَ وقفتنا التحليليةِ مع الآياتِ .

ونُضيفُ إلى تلكِ اللطائفِ هذه اللطائفِ العامة:

١ - كلمةُ ﴿أَحَدٌ﴾ مذكورةٌ في السورةِ مرّتين: في الآيةِ الأولى وفي الآيةِ
 الأخيرةِ. ولم يكنْ ذكرُها تكراراً ، وإنما هي في كلِّ مرّةٍ بمعنى. ومن الفروقِ
 بينها في الآيتين:

- ﴿أَحَدٌ﴾ في الآيةِ الأولى خبر: ﴿هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ، وهي في الآيةِ
 الأخيرةِ اسمٌ ﴿يَكُنْ﴾ ، أي أنها مبتدأٌ في الأصل ؛ أي أنها نُقِلَتْ من كونها
 خبراً لتكونَ مبتدأً.

- ﴿أَحَدٌ﴾: في الآيةِ الأولى خبرٌ عن اللهُ ، بهدفِ إثباتِ تفرّدهِ وأحديّتهِ ،

وهي في الآية الأخيرة أريدَ بها غيرُ الله ، لأنه ليس مساوياً لله! أي: نقلت من كونها خبراً عن الله ، لتكونَ خبراً عن غير الله . . وهذا جمالٌ مقصود .

- ﴿ أَحَدٌ ﴾ في الآية الأولى في جملةِ خبريةٍ مُثَبِّتةٍ ، لإثباتِ كمالِ الله . . وهي في الآية الرابعة في جملةِ خبريةٍ منفيةٍ ، لنفيِ النقصِ عن الله . . ومجيءُ ﴿ أَحَدٌ ﴾ مُثَبِّتةً أولاً ، ثم مَجِيئُهَا منفيةً بعد ذلك ، بهدفِ الثناءِ على الله في الموضوعين جمالاً تعبيرياً ملحوظ .

٢ - لفظ الجلالة ﴿ اللهُ ﴾ مذكورٌ في السورة مرتين: وهو في المرتين مبتدأ ، لكن الذي اختلف هو الخبر. فالخبر في الآية الأولى نكرة: ﴿ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ، وهو في الآية الثانية معرفة: ﴿ اللهُ الصَّكْمُ ﴾ .

وَوَرَدَتِ كَلِمَةُ ﴿ اللهُ ﴾ في الآية الأولى في سياقِ الإخبارِ عن كمالِ الله في ذاته ، وَوَرَدَتِ في الآية الثانية في سياقِ الإخبارِ عن كمالِ الله بالنسبة لغيره .

٣ - حرفُ الجزمِ ﴿ لَمْ ﴾ مذكورٌ في السورة ثلاث مرات ، وهو في كُلِّ مَرَّةٍ داخلٌ على جملةٍ تنفي نقصاً عن الله .

﴿ لَمْ ﴾ الأولى: نفث عن الله نقصَ ولادته لغيره: ﴿ لَمْ يَكِلِدْ ﴾ .

و﴿ لَمْ ﴾ الثانية: نفث عن الله نقصَ ولادة غيره له: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

و﴿ لَمْ ﴾ الثالثة: نفث عن الله نقصَ مماثلة غيره له: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

٤ - بما أنَّ ﴿ لَمْ ﴾ حرفُ جزمٍ ونفيٍ وقلبٍ ، فإنها قلبت المضارع في الجملِ الثلاثِ إلى ماضٍ ، أي أنَّ الجملةَ مضارعٌ في الظاهر وماضٍ في الحقيقة . أي أنَّ هذه النقاخصَ الثلاثةَ منفيةٌ عن الله ماضياً وحاضراً ومستقبلاً .

٥ - اختصت سورة الإخلاص بكلمتين ، لم تُذكر في غيرها من السور: الصَّمَدُ ، وكُفُوًا .

واللطيفُ أنَّ الكلمةَ الأولى ﴿ الصَّكْمُ ﴾ صفةٌ مُشَبَّهةٌ ، أُطْلِقَتْ على الله وحده ، ولا يجوزُ إطلاقُها على غيره . . وأنَّ الكلمةَ الثانيةَ ﴿ كُفُوًا ﴾ أريدَ بها غير الله ، في نفيِ مشابهته لله .

وَاللَّطِيفُ أَيْضاً أَنَّ الْكَلِمَةَ الْأُولَى فِي جُمْلَةٍ مُثَبَّتَةٌ ، وَأَنَّ الْكَلِمَةَ الثَّانِيَةَ فِي جُمْلَةٍ مَنْفِيَّةٍ .

٦ - من روائع لطائفِ السورة أنَّ فيها ظاهرة يمكنُ تسميتها «ظاهرة التَّنصيف» وهي القائمةُ على القسمةِ النصفيةِ .

السورةُ مكوَّنةٌ من أربعِ آياتٍ ، مُتَنَاصِفَةٌ فيما بينها :

أ - الآيتانِ الأوليانِ تتحدَّثانِ عن اللهِ بِأَسْلُوبِ الْإِثْبَاتِ : ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . اللَّهُ الصَّكْمُ . والآيتانِ الأخريتانِ تتحدَّثانِ عن اللهِ بِأَسْلُوبِ النَّفْيِ ، حيثُ وَرَدَ فيهما حرفُ النفي ثلاثَ مرَّاتٍ : ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴾ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُؤًا أَحَدٌ .

ب - الآيتانِ الأوليانِ : اسميتانِ ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . اللَّهُ الصَّكْمُ . والآيتانِ الأخريتانِ فعليتانِ : ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴾ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُؤًا أَحَدٌ .

ج - الآيتانِ الأوليانِ إخبارٌ عن كمالِ اللهِ وَجَلالِهِ ، وَتَفَرُّدِهِ وَتَميِّزِهِ . والآيتانِ الأخريتانِ إخبارٌ عن نفيِ النقصِ عن اللهِ .

٧ - هناك كلماتٌ مذكورةٌ في السورةِ مرتينِ ، وهي :

أ - لفظُ الجلالةِ ﴿ اللَّهُ ﴾ . وكان مرفوعاً في المرتينِ .

ب - لفظُ ﴿ أَحَدٌ ﴾ . وكان مرفوعاً في المرتينِ .

ج - الفعلُ المضارعُ : ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴾ . وكان مجزوماً في المرتينِ .

د - حرفُ العطفِ الواوُ ، وَعَظَفَ فعلاً مضارعاً مجزوماً على فعلٍ مضارعٍ

مجزومٍ .

هـ - الضميرُ المستترُ «هو» العائدُ على اللهِ ، وكان في المرةِ الأولى في محلِّ رفعٍ فاعلٍ ﴿ لَمْ يَكِدْ ﴾ . وكان في المرةِ الثانيةِ في محلِّ رفعٍ نائبِ فاعلٍ : ﴿ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ﴾ .

هذه اللطائفُ الرائعةُ في سورةِ الإخلاصِ دليلٌ على روعةِ التعبيرِ القرآني ، وعلى جمالِ الإعجازِ البياني فيه .

وبهذا نختمُ وفقَّتنا التحليلية مع هذه السورة الجليلة ، قصيرة الآيات ، قليلة الكلمات ، عظيمة المعاني والدلالات ، ثرية اللطائف والإشارات . . وهذا مما يُرسِّخُ مظاهر فضلها ، ويُحقِّقُ كونها ثلثَ القرآن ، كما أخبر رسولُ الله ﷺ .

والحمد لله رب العالمين



الفهرس

الصفحة

الموضوع

مقدمة ٥

الفصل الأول

﴿ مَثْنٍ وَثُلُثٍ وَرَبْعٍ ﴾

- ١٣ مناسبة نزول الآية
- ١٥ ١ - قوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ ﴾
- ١٧ ٢ - قوله: ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾
- ٢٠ ٣ - قوله: ﴿ مَثْنٍ وَثُلُثٍ وَرَبْعٍ ﴾
- ٢١ ٤ - قوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴾
- ٢٢ ٥ - قوله: ﴿ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾
- ٢٤ ٦ - قوله: ﴿ ذَلِكَ أَذَقَهُ أَلَّا تَعْلَمُوا ﴾
- ٢٦ بين الأعداد الأصول والأعداد المعدولة
- ٢٨ رخصة التعدد بين التناوب والتضمين
- ٣١ بين العدل المثبت والعدل المنفي
- ٣٣ من أحكام ودلالات الآية
- ٣٨ من لطائف الآية

الفصل الثاني

﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾

- ٤٧ ١ - قوله: ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾

- ٢ - قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ^٤﴾ ٥٠
 ٣ - قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْزِلِ الْإِلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ ٥٢
 من لطائف الآيات ٥٤
 من أهم دلالات الآيات ٥٧

الفصل الثالث

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾

- ١ - قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ ٦١
 ٢ - قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ ٦٢
 ٣ - قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ٦٢
 من لطائف الآيات ٦٤
 بين الإدراك المنفي والرؤية المثبتة ٦٦
 لا تدركه الأبصار حتى في الجنة ٧١

الفصل الرابع

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾

- ١ - قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمِ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ ٧٤
 ٢ - قوله: ﴿وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ^٥﴾ ٧٥
 ٣ - قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ٧٧
 ٤ - قوله: ﴿وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْظُمُ الْكُفَّارُ﴾ ٨٠
 ٥ - قوله: ﴿وَلَا يَتَالَوْنَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا﴾ ٨١
 ٦ - قوله: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ ٨٣

- ٨٥ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾
- ٨٧ قوله: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾
- ٨٨ قوله: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾
- ٨٩ قوله: ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ﴾
- ٨٩ قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
- ٩١ من لطائف الآيتين
- ١٠٢ من أهم دلالات الآيتين

الفصل الخامس

﴿كَلَّا نُمَدِّهُتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾

- ١١٢ قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾
- ١١٥ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾
- ٣ - قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾
- ١١٦ قوله: ﴿كَلَّا نُمَدِّهُتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾
- ١١٩ قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾
- ١٢١ قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
- ١٢٢ قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾
- ١٢٣ من لطائف الآيات
- ١٢٤ من أهم دلالات الآيات
- ١٣١

الفصل السادس

﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾

- ١ - قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
- ١٣٧

- ٢ - قوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ١٣٨
- ٣ - قوله: ﴿ تَلْقَوْنَ آلِيَهُمْ بِالْمُودَةِ ﴾ ١٤١
- ٤ - قوله: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ ١٤٣
- ٥ - قوله: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ ١٤٤
- ٦ - قوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ ١٤٦
- ٧ - قوله: ﴿ تُشِيرُونَ آلِيَهُمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ ﴾ ١٤٨
- ٨ - قوله: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ ١٥١
- أساليب التهيج على عدم موالاته الأعداء ١٥٣
- من لطائف الآية ١٥٤

الفصل السابع

السعي إلى الجنة بين المسابقة والمسارعة

- آيتا المسابقة والمسارعة ١٥٩
- مظاهر الاتفاق بين الآيتين ١٦٠
- سبعة فروق بين الآيتين ١٦٠
- اختلاف السياق في الحديد وآل عمران ١٦٢
- ١ - حرف العطف بين الحذف والذكر ١٦٤
- ٢ - الفرق بين المسابقة والمسارعة ١٦٤
- ٣ - كاف التشبيه بين الذكر والحذف ١٦٦
- ٤ - التفاوت بين المفرد والجمع: السماء والسموات ١٦٦
- ٥ - بين كثرة المؤمنين وقلة المتقين ١٦٨
- ٦ - حكمة التعقيب في سورة الحديد ١٦٨
- ٧ - دعوة للاتصاف بصفات المتقين ١٦٩
- من لطائف التعبير في الآيتين ١٧٠

الفصل الثامن

حديث القرآن عن الجاهلية

- الجذر الاشتقاقي للجاهلية ١٧٣
- معنى مصطلح الجاهلية ١٧٥
- ١ - ظن الجاهلية في سورة آل عمران ١٧٦
- ثلاثة مظاهر لظن الجاهلية ١٧٨
- بين ظن الجاهليين و يقين المؤمنين ١٧٩
- ٢ - حكم الجاهلية في سورة المائدة ١٨١
- من لطائف الآية ١٨٣
- ٣ - تبرج الجاهلية الأولى في سورة الأحزاب ١٨٤
- التبرج بين الجاهلية الأولى والجاهلية المعاصرة ١٨٦
- ٤ - حمية الجاهلية في سورة الفتح ١٨٨
- ما هي «حمية الجاهلية»؟ ١٩٠
- خلاصة الجولة مع الجاهلية في القرآن ١٩٣

الفصل التاسع

مع مادة «ضُرُزُّ» في القرآن

- معنى «ضُرُزُّ» في اللغة ١٩٥
- صيغ مادة «ضُرُزُّ» في القرآن ١٩٦
- أولاً: مع الفعل الثلاثي «ضَرَّ» ١٩٧
- أ - الفعل المضارع «يَضُرُّ» في القرآن ١٩٧
- ب - اسم الفاعل «ضارٌّ» في القرآن ٢٠٠

- ٢٠٠..... الحالة الأولى: اسم الفاعل المفرد: «ضارّ»
- ٢٠٠..... الحالة الثانية: اسم الفاعل الجمع: «ضارّون»
- ٢٠٢..... جـ- المصدر: «ضَرَّ» في القرآن
- ٢٠٢..... المصدر الأول: الضَّرُّ في القرآن
- ٢٠٣..... المصدر الثاني: الضَّرَر في القرآن
- ٢٠٥..... المصدر الثالث: الضُّرُّ في القرآن
- ٢٠٧..... المصدر الرابع: الضراء في القرآن
- ٢٠٨..... أهم الفروق بين المصادر الأربعة
- ٢٠٩..... ثانياً: مع الفعل الرباعي: «ضارّ» في القرآن
- ٢١٠..... أ- الفعل المضارع «يُضارُّ» في القرآن
- ٢١٠..... ١- الفعل المضارع «تُضارُّ» في القرآن
- ٢١١..... ثلاث قراءات في الفعل
- ٢١٢..... في ﴿لا﴾ قولان
- ٢١٣..... قولان في صياغة الفعل
- ٢١٥..... ٢- الفعل المضارع «يُضارُّ» في القرآن
- ٢١٦..... ٣- الفعل المضارع «تضاروهن» في القرآن
- ٢١٨..... ب- المصدر «ضرار» في القرآن
- ٢٢٠..... جـ- اسم الفاعل «مُضارُّ» في القرآن
- ٢٢١..... ثالثاً: الخماسي «اضْطَرَّ» في القرآن
- ٢٢٢..... ١- الفعل المضارع المبني للمعلوم «أضطر» في القرآن
- ٢٢٤..... ٢- الفعل الماضي المبني للمجهول «اضطر» في القرآن
- ٢٢٩..... ٣- اسم المفعول «المُضْطَرُّ» في القرآن
- ٢٣٠..... رابعاً: الضير في القرآن
- ٢٣١..... المرة الأولى: المصدر «ضيرُّ» في القرآن
- ٢٣٣..... المرة الثانية: الفعل المضارع «يَضِرُّكُمْ» في القرآن

الفصل العاشر

مع سورة الإخلاص

٢٣٧	اسمان للسورة
٢٣٧	من فضائل السورة
٢٣٩	نزول السورة
٢٣٩	١ - قوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»
٢٤١	من لطائف الآية
٢٤٤	٢ - قوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾
٢٤٥	بين الأحد والصمد
٢٤٦	٣ - قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدٌ﴾
٢٤٧	من لطائف الآية
٢٤٨	٤ - قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾
٢٤٩	من لطائف الآية
٢٥٠	لطائف بيانية في آيات السورة
٢٥٥	الفهرس
٢٦٢	صدر من هذه السلسلة «من كنوز القرآن»
٢٦٣	صدر للمؤلف



صدر من هذه السلسلة «من كنوز القرآن»

- ١ - مفاتيح للتعامل مع القرآن .
- ٢ - في ظلال الإيمان .
- ٣ - الشخصية اليهودية من خلال القرآن .
- ٤ - تصويبات في فهم بعض الآيات .
- ٥ - مع قصص السابقين في القرآن .
- ٦ - لطائف قرآنية .
- ٧ - القصص القرآني : عرض وقائع وتحليل أحداث .
- ٨ - مواقف الأنبياء في القرآن : تحليل وتوجيه .
- ٩ - عتاب الرسول في القرآن : تحليل وتوجيه .
- ١٠ - وعود القرآن بالتمكين للإسلام .
- ١١ - الأعلام الأعجمية في القرآن : تصريف وبيان .
- ١٢ - القرآن ونقض مطاعن الرهبان .
- ١٣ - وقفات مع هذه الآيات .



صدر للمؤلف

- ١ - سيد قطب الشهيد الحي .
- ٢ - نظرية التصوير الفني عند سيد قطب .
- ٣ - أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب .
- ٤ - مدخل إلى ظلال القرآن .
- ٥ - المنهج الحركي في ظلال القرآن .
- ٦ - في ظلال القرآن في الميزان .
- ٧ - مفاتيح للتعامل مع القرآن .
- ٨ - في ظلال الإيمان .
- ٩ - الشخصية اليهودية من خلال القرآن .
- ١٠ - تصويبات في فهم بعض الآيات .
- ١١ - مع قصص السابقين في القرآن .
- ١٢ - البيان في إعجاز القرآن .
- ١٣ - ثوابت للمسلم المعاصر .
- ١٤ - إسرئيليات معاصرة .
- ١٥ - سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد .
- ١٦ - لطائف قرآنية .
- ١٧ - هذا القرآن .
- ١٨ - حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية .
- ١٩ - الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد .
- ٢٠ - التفسير والتأويل في القرآن .
- ٢١ - الأتباع والمتبعون في القرآن .

- ٢٢ - التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق .
- ٢٣ - الحطة البراقة لذي النفس التواقة .
- ٢٤ - تفسير الطبري تقريب وتهذيب .
- ٢٥ - الرسول المبلغ ﷺ .
- ٢٦ - القصص القرآني .
- ٢٧ - تهذيب فضائل الجهاد لابن ال
- ٢٨ - تعريف الدارسين بمناهج المفسرين .
- ٢٩ - القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية .
- ٣٠ - سيد قطب الأديب الناقد والداعية المجاهد .
- ٣١ - صور من جهاد الصحابة .
- ٣٢ - إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني .
- ٣٣ - مواقف الأنبياء في القرآن : تحليل وتوجيه .
- ٣٤ - سعد بن أبي وقاص : المجاهد الفاتح .
- ٣٥ - الحرب الأمريكية بمنظار سيد قطب .
- ٣٦ - سيرة آدم عليه السلام : دراسة تحليلية .
- ٣٧ - بين الإسلام الرباني والإسلام الأمريكي .
- ٣٨ - عتاب الرسول ﷺ في القرآن : تحليل وتوجيه .
- ٣٩ - وعود القرآن بالتمكين للإسلام .
- ٤٠ - حديث القرآن عن التوراة .
- ٤١ - جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم .
- ٤٢ - سفر التكوين في ميزان القرآن .
- ٤٣ - الانتصار للقرآن .
- ٤٤ - الأعلام الأعجمية في القرآن : تحليل وتوجيه .
- ٤٥ - القرآن ونقض مطاعن الرهبان .
- ٤٦ - الكليني وتأويلاته الباطنية للآيات القرآنية .
- ٤٧ - وقفات مع هذه الآيات .

